سلسلة الأخت المسلمة

ماذا قدم الإسلام للمرأة ؟

بقلم المربي الأستاذ:

محمود محمد الجوهري

تقديم

الشيخ/ محمد عبد الله الخطيب

من علماء الأزهر الشريف

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم : (٧١)

سلسلة الأخت المسلمة

٢١٠٫٤
٢٠ م ج م

ماذا قدم الإسلام للمرأة؟

بقلم المربى الأستاذ

محمود محمد الجوهرى

دار التوزيع والنشر الإسلامية

٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢ ص ب ١٦٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) ﴾ [آل عمران : ١٩٥]

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين.

وبعد

فإن شيخنا الأستاذ محمود الجوهرى أطال الله فى عمره وبارك فيه، قضى حياته كلها فى الاهتمام بالمرأة المسلمة ورعايتها والعناية بها، والاخذ بيدها إلى طريق الاستقامة والعبودية لله وحده، والخروج من طريق الغواية، والبعد عن الضلال والضالين وأدعياء حرية المرأة وحقوق المرأة.

وهو فى هذه الرسالة « ماذا قدم الإسلام للمرأة » يواصل هذا الدور المبارك فيكشف جوانب الإسلام العظيم، الذى حرر المرأة من كل المعوقات وضمن لها حقوقها كاملة، وبيّن مركزها فى الحياة الإسلامية.

وإذا كان هناك من يقول: إن المرأة نصف المجتمع. لا ينبغى أن يهمل أو يعطل، ونحن نقول بهذا ونزيد عليه « إن المرأة نصف المجتمع فى العدد، ولكنها أكثر منه فى التأثير، فإنها تؤثر بالإيجاب أو السلب فى زوجها وأبنائها والنهوض بهم، فدورها عند المسلمين أكبر من أن تكون نصف المجتمع فحسب..

ولقد بيّن لنا المؤلف: اهتمام القرآن والسنة بالأسرة المسلمة، وساق فى هذا الصدد الآيات الدالة على هذا الاهتمام، والأحاديث الصريحة فى توضيح هذه الحقوق.

ثم أشار إلى الأسرة المسلمة ومعناها ومقوماتها، والأسس التى تقوم عليها، وإذا كان الشىء يعرف بضده فقد أشار المؤلف إلى أسر ضلت الطريق وأغواها الشيطان. ثم تبرأ منها بعد أن وقعت فى أسره وتحت سلطانه.

ثم أشار إلى نداءات العلماء والمفكرين وحرصهم على صيانة المرأة المسلمة والأسرة المسلمة. لأنها عماد المجتمع ونواته الكبرى، وبغير الأسرة الصالحة فإن المجتمع معرض للضياع والفناء.

فبناء المرأة المسلمة هو أقوى دعائم المجتمع. وهو نقطة التحول فى تاريخ الحضارة والتقدم، وحين تدعم بالتربية وبالقدوة الحسنة والأخلاق والآداب الإسلامية، تصبح مصنع الرجال والأبطال.

ثم أشار المؤلف إلى صور مشرقة للمرأة المسلمة وللأسرة المسلمة ووضع أمام نظر القارىء صورة الأسرة القدوة الثابتة لبيت النبوة. وما كان عليه من مثل عليا، وآداب وأخلاق وعطاء وبذل. وتعليم وتربية.

جزى الله المؤلف خير الجزاء عما قدم ويقدم من خير، أسأل الله ان تكون هذه الأعمال المباركة فى ميزان حسناته يوم الدين إنه نعم المولى ونعم النصير.

محمد عبد الله الخطيب

من علماء الأزهر الشريف

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الهادى لأقوم طريق، وأرشد سبيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الغر الميامين الذين آمنوا وفهموا وعملوا وأخلصوا وثبتوا، فكانوا خير العالمين وخير المخلصين، وخير المجاهدين، وتركوا لنا ميراثًا ضخمًا هو الإسلام العظيم فتلقيناه عنهم بصفائه ونقائه ووضوحه، ونسأل الله أن يجعلنا أهلاً لحمل هذه الأمانة والحفاظ عليها كما هى دون تبديل أو تقصير أو نقص أو زيادة حتى نلقى الله وقد أدينا ووفينا.

ومن خلال تجربتى فى هذه المسيرة الإسلامية السليمة الواضحة كتبت هذه السطور القليلة فى ذلك الخضم الهائل، خضم الأسرة المسلمة التى أهملها أهلها وغفل عن المسئولية عنها كل مسئول عنها؛ إلا من رحم ربى إن ربى رحيم ودود. أقول أردت أن تقف الأسرة المسلمة اليوم على ما عليها وما لها وأن توفى الحق، وتؤدى الأمانة التى ستسأل عنها الأسرة كلها؛ الأب، والأم، والأبناء، والأرحام ، وكل من يمت إليها بصلة، ولعل الله تبارك وتعالى يبارك هذه الأمة بنفحة ربانية لتعود إلى حظيرة ربها مؤمنة طائعة راضية ملبية أمر ربها فى كل شأن من شئونها.

ولتعلم الأسرة المسلمة والقائمون عليها، والمسئولون عن كيانها وتوجيهها أن الطوفان الكافر زاحف، ومكشر عن أنيابه، ومعه الدنيا بغرورها؛ القوة والكثرة، والظلم، والبغى، والعدوان.

لكن الأسرة المسلمة الصالحة القدوة، معها الله إذا رجعت إليه، واستمسكت بحبله، واتبعت هدى نبيها، وسلكت سبيل المجاهدين، ولم ترهبها أى قوة فى الأرض مادامت هى فى معية الله.

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٥، ٦].

وأرجو أن يمدنى الله بعونه لأواصل الكتابة مرة أخرى فى هذا المجال، والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والله أكبر ولله الحمد.

محمود الجوهرى

الفصل الأول

اهتمام القرآن والسنة بالأسرة المسلمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وسلك سبيله إلى يوم الدين.

وبعـــد...

فقد كان هناك شبه إجماع على ما سماه بعض المفكرين المعاصرين والأقدمين - مشكلة المرأة - وأفاضوا وكتبوا وأذاعوا في كتبهم وندواتهم ومؤتمراتهم مطالبين بحقوق المرأة، في الوقت الذي أصبحت فيه عضوة في مجلس الشعب ومجلس الشورى وتبوأت في الدولة مراكز وزارات ثلاث، ووصلت إلى مركز وضع القوانين والتشريعات في أهم أمور الدولة. ومع هذا لازالت الأصوات عالية تطالب بحقوق المرأة، وكأنما فرغت الأيدي من كل حقوق الناس الرجال وغيرهم على السواء ولم يبق أحد ناقص الحقوق إلا المرأة، ولم يبحث باحث ولم يتكلم متكلم ولم يناد مناد بواجبات المرأة الأساسية؛ أين هي من أدائها كاملة نحو نفسها وبيتها وأسرتها ومجتمعها وأمتها؟ سكتت كل الأصوات وأمسكت جميع الأقلام!

ولم يدر هؤلاء المفكرون والكتاب الذين يتصدرون الدفاع عن حقوق المرأة المهضومة، أن المرأة تبوأت مكانة لم تصل إليها حتى الآن من أربعة عشر قرنًا أو تزيد حين نزلت أول آية من القرآن الكريم تأمر الناس جميعًا في شخص النبي ﷺ:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق: ١ - ٥].

وهذا الأمر شامل للناس جميعًا؛ رجالهم ونسائهم.

ولو فكروا بعين البصيرة، والعقل المجرد من الهوى لعلموا أن في تلك الآيات الخمس كل الحقوق والواجبات على الرجل والمرأة سواء.

ومن خلال ما سنبينه بعد ذلك تفصيل الأهمية العظمى لصلاح الأسرة المكونة من الرجل والمرأة، وأثر هذا الصلاح في سلامة المجتمع الذي بسلامته تسلم الأمة من كل ما يعترض تقدمها ونهضتها.

الحاجة الملحة فى إقامة الأسرة

أرادت الحكمة الإلهية العليا بعد خلق السماوات والأرض – وإعدادها بكل ما تتطلبه الحياة على الأرض – أن يجعل هذه الحياة قائمة على الأسرة، فقال جل شأنه مخاطبًا ملائكته: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة: ٣٠ – ٣٥].

ومن الاستعراض المجمل لآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة يتضح لكل منصف منزلة الأسرة التى أراد الله أن تكون الحياة على أساسها فى الأرض(١).

وسوف نستعرض بعون الله وتوفيقه نماذج من آيات القرآن الكريم ثم من الأحاديث النبوية الشريفة التى وردت بها توجيهات من أجل الأسرة، ومنها يتضح أهمية الأسرة وضرورة سلامتها وصلاحها، حتى يسلم المجتمع وتصلح الأمة، وتأخذ مكانتها تحت الشمس كما أراد الله لها أن تكون ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠]..

أولاً: من القرآن الكريم

* سورة النجم: قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

* سورة الأعراف: قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

* سورة يس: قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس: ٥٥ – ٥٨].

---

(١) لذلك نجد أن الأسرة ذكرت في ٤٤ سورة نزلت بمكة المكرمة، وفي ١٨ سورة نزلت بالمدينة المنورة، فيكون المجموع ٦٢ سورة من سور القرآن الكريم البالغ عددها ١١٤ سورة، وعدد الآيات التي وردت في السور المكية ٥٥٠ آية، وعدد الآيات الي وردت في السور المدنية ٢٣٦ آية فيكون المجموع ٧٨٦ آية.

سورة فاطر: قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (11) ﴾ [فاطر: ١١].

سورة الإسراء: قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

سورة النحل: قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ [النحل: ٧٢].

سورة الروم: قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) ﴾ [الروم: ٢١].

سورة النساء: قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1) ﴾ [النساء: ١].

سورة محمد ﷺ: قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (23) ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

سورة المنافقون: قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (9) ﴾ [المنافقون: ٩].

ثانياً: من السنة المطهرة

* قال ﷺ: «أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه، وأطعمه طعامك، يلن قلبك وتدرك حاجتك».

* وقال ﷺ: «إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة».

* وقال ﷺ: «إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين، فليتق الله في النصف الباقي».

■ وقال ﷺ : «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحصنت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلى الجنة من أى أبواب الجنة شئت».

■ وقال ﷺ : «تنكح المرأة لأربع: لحسبها و لدينها ومالها وجمالها، فعليك بذات الدين تربت يداك».

■ وقال ﷺ : «إن من يمن المرأة تيسير خطبتها، وتيسير صداقها، وتيسير رحمها».

* وقال ﷺ : «تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم، ولا تكونوا كرهبانية النصارى».

* وقال ﷺ : «ثلاث جدهن جد، وهزلهن جد: النكاح والطلاق والرجعة».

* وقال ﷺ : «خير نسائكم الولود الودود، المواسية المواتية، إذا اتقين الله، وشر نسائكم المتبرجات المتخيلات، وهن المنافقات، لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم».

* وقال ﷺ : «ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة» صدق رسول الله ﷺ.

الفصل الثاني

الأسرة المسلمة.. معناها ومقوماتها

بسم الله الرحمن الرحيم

الأســـرة المسلمــة

الفطــرة:

قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥].

وقـال تعـالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف:١٨٩].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل: ٧٢].

من الآيات الأربعة السابقة نفهم أن الحياة قامت على الأرض - أول ما قامت - بنفس واحدة، هي آدم عليه السلام.

ولما كان هو وحده لا تستمر الحياة به ولا تنتشر ولا تكثر، فقد اقتضت حكمة الله العليا أن يكون استمرار الحياة وامتدادها وعمار الأرض بالتناسل، وذلك يقتضي وجود أنثى بجانب الرجل؛ فخلق الله تبارك وتعالى المكمل لهذه الحياة والذى به يتم التكاثر والتناسل، هذا المكمل هو حواء لتكون زوجًا لآدم، وأوحى الله إليه كيفية التناسل وخرج من آدم وحواء النسل وتكاثر حتى يومنا هذا إلى أن تقوم الساعة.

ومن هذا نعلم أن الحياة قامت أول أمرها على الأرض تابعة ومرتكزة على الأسرة. وبدونها ما كانت الحياة، وهذا مخالف لما أراده الله تبارك وتعالى.

ولما كان قيام الحياة واستمرارها مرتكزًا على وجود الأسرة، فيجدر بنا أن نعلم ما يقوله الله

تعالى ورسوله ﷺ والعلماء والحكماء والعقلاء فى أهمية وجود الأسرة وضرورتها.

أولاً: قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم: ٦].

وقال جل شأنه: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢) ﴾ [طه: ١٣٢].

وقال جل ذكره: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) ﴾ [مريم: ٥٥].

وقال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى» حديث صحيح.

وقال ﷺ: «كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول» وفى رواية من يقوت» حديث صحيح.

أما أقوال العلماء والحكماء والعقلاء فى أهمية وجود الأسرة فنقتطف منها ما يلى:

فمما قال الإمام الشهيد حسن البنا تحت عنوان «البيت المسلم»:

«.. إذا صلح الرجل، وصلحت المرأة - وهما عماد الأسرة - استطاعا أن يكونا بيتًا نموذجيًا مؤسسًا على القواعد التى وضعها الإسلام. وقد وضع الإسلام قواعد البيت المسلم فأحكم وضعها،، وأرشد إلى حسن الاختيار، وبين أفضل طرائق الارتباط، وحدد الحقوق والواجبات، وأوجب على الطرفين رعاية ثمرات هذا الزواج حتى تينع وتنضج فى غير عبث ولا إهمال، وعالج ما يعترض هذه الحياة الزوجية من المشاكل أدق علاج، واختط فى كل نظراته طريقًا وسطًا لا تفريط فيه ولا إفراط..» إلى هنا انتهى حديث الإمام.

وقد عقب على هذا الإجمال الأخ الأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود فقال تحت عنوان: «**الزواج فى نظر الشرع الإسلامى**»:

ينظر الإسلام الحنيف إلى الزواج نظرة سامية، ويجعله أهم أسباب عمارة الكون، وصلاح العالم، وسلامة الحياة، فهو نعمة - إذا ما تم على وجهه - جديرة بالشكر لله، حقيقة بالحمد له، والثناء عليه، وما أبلغ قول الله تعالى ممتنًا على عباده: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم: ٢١]

والمودة والرحمة هما أساس هذه الحياة الزوجية، وأساس ذلك الاختلاط، وتلك العشرة، وهما من خصائص القلوب، وتصاريف القلوب أيضًا، وميل الأفئدة، وارتياح العواطف

والأحاسيس؛ وكل ذلك من الله عز وجل، وما أصرح قوله ﷺ بصدد القسم بين زوجاته في المبيت وميل القلب: « اللهم هذا قسمي فيما أملك؛ فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك ».

والزواج علاقة سامية بين الرجل والمرأة، وامتزاج روحي يهذب الخلق، ويعوّد النفس كيف تكبح جماحها، ويروضها على الصبر والجلد واحتمال الشدائد في سبيل الآخرين؛ فيقضي على الأنانية والأثرة وحب النفس، ليحل محله المحبة والإيثار، فإن الرجل والمرأة كليهما يؤثر ولده على نفسه في كل شيء؛ ومهما بلغ الشاب من الطيش؛ فإن الزواج هو علاج طيشه، ودواء اعوجاجه، ولا يفتأ الشاب بعد الزواج أن يفكر بعقل الشيخ، وينطق بحكمته، ويدبر أمره برؤيته.

وعقد الزواج في نظر الشرع الإسلامي ليس عقد تمليك يتصرف بمقتضاه الرجل في المرأة بما يريد من بيع وهبة أو رق وأسر، وإنما هو عهد وميثاق كما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) ﴾ [النساء: ٢١].
كما هو عقد على قدم المساواة بين الطرفين؛ إذ لابد من رضا كل منهما وموافقته على الآخر.

وقد أجمل العالم الراحل الكريم أستاذنا الشيخ محمد الغزالي أسس الحياة الزوجية السعيدة فيما يلي:

الزواج المثالي تحكمه عدة مبادئ الإخلال بواحد منها يفسد الحياة الزوجية وهي:

١ – أخوة عقيدة.　　٢ – شركة أعباء.　　٣ – صحبة حياة.

٤ – وحدة هدف وغاية.　　٥ – تجاوب ثقافة .　　٦ – وحدة انتماء.

كذلك ليس الغرض من الزواج مجرد اللذة والمتعة، وقضاء الوطر والشهوة، وراحة القلب، وهدوء البال؛ وإنما وراء هذا وقبله ومعه غرض آخر أسمى وأرفع وأجل وأعظم، ذلك هو « الولد »؛ أعني النسل وامتداد الحياة، ففي النسل الصالح قوة ومنعة، وعزة وهيبة، فمن هذا النسل الصالح يتكون المجتمع الصالح، ومن المجتمعات الصالحة تتكون الأمة الفتية القوية العزيزة التي تحمل الإسلام وتنفذه ،وتبلغه وتزود عنه. ولن تكون الأمة كذلك إلا بكثرة أبنائها المخلصين، وأفرادها العاملين لتمضي قدمًا في سبيل السمو بالإنسانية إلى ما تبتغي من رقي، وما ترجو من كمال.

فالدين الإسلامي يريد من المرأة أن تكون للرجل زوجة تعفه وتحصنه، وتشرف على بيته

وتدبر شئونه فى إخلاص ووفاء، فتجعل من شقائه فى الخارج سعادة، وتسرى عنه،، وتكون له ردءًا فى الشدائد وعونًا فى النائبات، وأمّا لأولاده؛ تحسن تربيتهم، وتعدهم للإسلام جنودًا يحملون اللواء، وللوطن مجاهدين يدافعون عن حياضه، ويذودون عن أرضه، ويريد الإسلام من الرجل أن يكون للمرأة زوجًا يعفها، ويحصنها ويقوم بنفقتها، ويؤدى حقوقها كما يأمر الإسلام، وأن يكونا معًا نفسًا واحدة فى صورتين: رجل وامرأة.

وقد صور القرآن الكريم هذا الامتزاج فى آيتين كريمتين، فقال جل شأنه فى سورة البقرة: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧]. بمعنى الستر والاندماج والإخلاص.

وكذلك فى سورة النساء يقول جل ذكره: ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النساء: ٢١].

ولبس وراء ذلك أجمل ولا أسمى من قول الخالق العظيم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك: ١٤].

وفى معنى الإفضاء بين الزوجين يقول الشهيد سيد قطب فى كتابه: السلام العالمى والإسلام تحت عنوان: «سلام البيت».

قال رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء:

البيت مثابة وسكن؛ وفى ظله ينبت الطفولة، وتدرج الحداثة، ومن سماته تأخذ سماتها وطابعها، وفى جوه تتنفس وتتكيف، وكم من أحداث وحوادث وقعت على مسرح المجتمع، وأثرت فى سير التاريخ، تكمن بواعثها الخفية فى مؤثرات بيتية.

والفرد الذى لا يستمتع فى بيته بالسلام، لن يعرف للسلام قيمة، ولن يتذوق له طعمًا ولن يكون عامل سلام وفى أعصابه معركة، وفى نفسه قلق، وفى روحه اضطراب.

والإسلام يتجه إلى بذر بذور السلام فى البيت، فى ذات الوقت الذى يتجه فيه إلى الضمير الفردى، وإلى المجتمع الدولى.. فكلها حلقات متضامنة، وفيما بينها ترابط واتصال.

الرباط المقدس

يبدأ الإسلام أولاً بتصوير العلاقة البيتية تصويرًا رفاقًا شفيفًا يشيع فيه التعاطف وترى فيه الظلال، ويشبع فيه الندى، ويفوح منه العبير: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١]. ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة:١٨٧].. فهى صلة النفس، بالنفس وهى صلة السكن والقرار، وهى صلة المودة والرحمة، وهى صلة الستر والتجمل، وإنك تحس فى الألفاظ ذاتها حنوًا ورفقًا، وتستروح من

خلالها نداوة وظلاً، وإنها لتعبير كامل عن حقيقة الصلة التى يفترضها الإسلام لذلك الرباط الإنسانى الرفيق الوثيق.

ذلك فى الوقت الذى يلحظ فيه أغراض ذلك الرباط كلها بما فيها امتداد الحياة بالأولاد ليمنح هذه الأغراض كلها طابع النظافة والبراءة، ويعترف بطهارتها وجديتها، وينسق بين اتجاهاتها ومقتضياتها، ذلك حين يقول: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فيلحظ كذلك معنى الإخصاب والإكثار.

يحيط الإسلام هذه الخلية، أو هذا المحضن، أو هذه المثابة، وهى الأسرة، بكل رعايته وبكل ضماناته. وحسب طبيعة الإسلام الكلية، فإنه لا يكتفى بالإشعاعات الروحية بل يتبعها التنظيمات القانونية، والضمانات التشريعية.

فأولاً: لابد فى هذا الارتباط من الرضى والاستئذان، فلا تزوج المرأة بغير إذنها ورضاها، و «لا تنكح الثيب حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن وإذنها الصموت». حديث شريف.. أخرجه الشيخان. ولابد فيه من الرؤية ليكون هذا الرضى جديًا وقائمًا على حقيقة ومنبعثًا من شعور «فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» من حديث المغيره بن شعبة، ذكر صاحب مصابيح السنة خانه من الحسان.

وثانيًا: لابد فيه من علانية وإشهار؛ فلا يتم فى السر والخفاء؛ كما تتم الجريمة، ولابد من إيجاب وقبول صريحين يشهد عليهما الشهود، فلا يبقى ظل من شك أو غموض فى قيام هذا الارتباط، حتى ليستحب دوق الطبول لهذه المناسبة زيادة فى الإعلان.

وثالثًا: لابد فيه من نية التأبيد لا التوقيت؛ فإذا نوى أو صرح بأن يكون هذا الزواج موقوتًا بزمن لم ينعقد؛ لأن هذا الزواج مقصود به السكن والاستقرار.

مقصود به أن يركن إليه الزوجان فى اطمئنان، وأن يبنيا فى ظله الحياة وهما واثقان آمنان، ولكى يهيئ الإسلام للبيت جوه، ويهيئ للفراخ الناشئة فيه رعايتها، أوجب على الزوج النفقة وجعلها فريضة، كى يتاح للأم من الجهد ومن الوقت ومن هدوء البال ما تشرف به على هذه الفراخ الزغب، المرهقة بمقتضيات العمل، المقيد بمواعيده، المشتتة الطاقة فيه، لا يمكن أن تهب للبيت جوه وعطره، ولا يمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها، وبيوت الموظفات والعاملات ما تزيد على جو الفنادق والخانات؛ وما يشيع فيها ذلك الأريج الذى يشيع فى البيت. فحقيقة البيت لا توجد إلا أن تنشئها امرأة؛ وأريج البيت لن يفوح

إلا أن تطلقه زوجة؛ وحنان البيت لن يشبع إلا أن تتولاه أم. والمرأة أو الزوجة أو الأم التى تقضى وقتها وجهدها وطاقتها الروحية فى العمل لن تطلق فى جو البيت إلا الإرهاق والكلال والملال!!.

إن خروج المرأة لتعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة، أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها، فتلك هى اللعنة التى تصيب الأرواح والضمائر والعقول فى عصور الانتكاس والشرود والضلال.

وفى سبيل الاستقرار البيتى وقطعًا لدابر الفوضى والنزاع فيه، جعل الإسلام القوامة فيه للرجل، وذلك تمشيًا مع سياسة التنظيم التى يحرص عليها الإسلام حرصًا شديدًا، والتى جعلت الرسول ﷺ يأمر الرجال أن يؤمروا عليهم أحدهم حتى لو خرج ثلاثة فى أمر فأحدهم أمير.

إن توحيد القيادة ضرورى لأمن السفينة، وفى سفينة البيت لابد من قيادة تحتمل التبعة، وتحفظ النظام من أن ينتكث، وما فى هذا من شذوذ على القاعدة الإسلامية العامة فى عالم الرجال أيضًا. فأى الزوجين كان المنطق كفيلاً بأن يسلمه القيادة؟ المرأة المشبوبة العواطف والانفعال بحكم وظيفتها الأولى فى رعاية الأطفال وتعطير جو البيت بالحمال؟ أم الرجل الذى كلفه الإسلام الإنفاق لتخلو المرأة إلى عبئها الضخم، وتنفق فيه طاقتها ووسعها؟ لقد جعل الإسلام له القوامة؛ تحقيقًا لنظامه المطرد أن تكون فى كل عمل قيادة وقوامة، واختاره لأنه بخلقته وتجاربه أصلح الاثنين لهذه الوظيفة.

وهكذا حين تعرض المسألة فى بساطتها هذه وفى وضوحها، ينكشف ذلك اللفظ الهاذر الذى تلوكه ألسنة الفارغين والفارغات فى هذا الزمان حول هذا النظام، ويتجلى فى أن فراغ الحياة وفراغ القلوب وفراغ العقول، هو الذى ينشئ ذلك اللفظ ويجعله موضوع جدل ومادة حديث، وهو نظام قصد به الإسلام أن يكون حلقة من حلقات السلام فى البيت، وضمانه للاستقرار فيه والنظام، ولكن فى عهود الانتكاس، وفى فترات الفراغ من جديات الأمور، لا يبقى للمجتمع ما يحفل به إلا الفتات والقشور، وإلا الهذر واللجاج.

ومما قال الإمام البنا رحمه الله:

عجيب أن يستبد سلطان التقليد ببعض العقول والأقلام حتى ينسيها البديهيات، وقد سبق لهذه الأقلام وغيرها أن عرّضت بالنظم الإسلامية فى الطلاق، وفى نصيب المرأة فى

الميراث، وفى حظها من الشهادة، وصورت هذه الأوضاع بغير صورتها الحقيقية وحملتها ما لا تحتمله من النتائج والآثار.

هذه الزوبعة التى تتجدد كلما ثارت فى الرءوس عاصفة التقليد الهوجاء لا تضر الإسلام فى شىء، بل تنفع كثيراً فى إثارة الأقلام الإسلامية للكشف عن جمال نظمه وكمال أوضاعه.

وفرق كبير بين نظم الإسلام الحنيف وتعاليمه من حيث هى؛ وبين سوء استخدام الناس لهذه النظم، وفساد تطبيقهم لهذه الأوضاع، فالصورة الجميلة الرائعة قد تعلق مقلوبة؛ أو ينظر إليها الناظر كذلك، فتبدو مشوهة ليس فيها معنى من معاني الجمال. ولا ذنب للإسلام إذا كان بعض أهله أو كثير منهم قد لبسوه كما يلبس الفرو مقلوباً، كما قال حكيم. وإن جريمة هؤلاء الذين لبسوا الإسلام على غير وجهه ليست بأعظم من جريمة أولئك الذين جهلوا فضله من أبنائه فحاربوه بحسن قصد أو بسوء قصد. كلا الصنفين مخطئ، وكلاهما يحتاج إلى التوجيه والرعاية والإرشاد.

أباح الإسلام تعدد الزوجات إلى أربع للقادر على ذلك، المستطيع له، ولهذه الإباحة حِكَمُها الرائعة الجليلة، ولعل هذه الحرب وما سيعقبها من فقر فى الرجال ستكون أعدل شاهد وأقرب دليل. والواقع سيد الأدلة كما يقولون، وإن خيراً للمرأة وأقرب إلى العدالة الاجتماعية، والإنصاف فى المجتمع أن تستمتع كل بربع رجل أو ثلثه أو نصفه من أن تستمتع زوجة واحدة برجل كامل وإلى جانبها واحدة أو اثنتان أو ثلاث لا يجدن شيئاً، وإن خيراً للمرأة وللرجل وللمجتمع كله أن يتصل الرجل بهذا العدد من الزوجات على أنهن حليلات لا خليلات. هذا كلام مفروغ منه وهو عدل وحق وإنصاف وصلاح للمجتمع كبير ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٨] فإذا أساء الناس استخدام هذه الإباحة وظهرت لذلك نتائج فاسدة، وآثار ضارة؛ فليس العيب فى النظام ولكن فى الاستخدام، وعلى المسئولين أن يحملوا الناس على أن يضعوا كل شىء فى موضعه، ولا يمنعهم عن ذلك شىء فى الإسلام.

وأباح الإسلام الطلاق بعد مراحل عدة: بعد صبر ومصابرة وجهاد. ووعظ وإرشاد وهجر وبعاد وزجر واشتداد ثم تحكيم بين الطرفين، ثم انتظار وتربص ليقع الطلاق على صورة لا تضر أحداً من الزوجين، ثم فرصة بعد ذلك لتعود الحياة الزوجية إلى وضعها الأول بعد هذه النزغة من الشيطان، حتى إذا فقد الأمل، وعجزت الحيل، وتعذر الإمساك بالمعروف؛ كان

التسريح بالإحسان ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) ﴾ [النساء: ١٣٠].

فماذا فى هذا الوضع من الإجحاف وقلة الإنصاف؟ وحسبنا أن الأمم التى خالفت هذا الوضع ونقدته مر النقد قد صارت هى إليه، واتكأت عليه، وجعلته من شرائعها الاجتماعية وأوضاعها الأسرية. وإذا أسيئ الاستخدام فليس العيب فى النظام.

وجاء الإسلام يقرر أن للذكر مثل حظ الأنثيين، وأن نصيب الفتاة نصف نصيب الفتى من تركة الأبوين. نظام ما أبدعه وعدل ما أروعه!! نظر إليه القاصرون من زاوية واحدة؛ فنادوا بالويل والثبور، وعظائم الأمور؛ ،ونسوا أن الإسلام وحدة كاملة يجب أن ينظر إليها من كل ناحية. فالإسلام الذى قرر هذا الوضع قرر إلى جانبه أن الفتى مطالب بالإنفاق على الفتاة زوجًا كانت أو أختًا أو أمًّا، فكان من العدل أن يُعان على تبعته؛ وكان مقتضى هذا ألا تأخذ الفتاة شيئًا من الميراث، ولكن الشارع الحكيم احترم قرابتها، وهو الذى يقدس القرابة بقدر صلتها؛ فقدر لها وتوسط بذلك فى الأمر، فلم يعطها الإعطاء الكامل، ولم يحرمها الحرمان الكامل، وذلك بالنسبة لها، ولا شك أن ذلك أعدل الأوضاع، وجاء الإسلام يقرر أن شهادة المرأة لابد أن تعزز بمثلها وأن تقرن بأختها ﴿ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وارتفعت أصوات القاصرين بأن هذا هو الظلم المبين، ولم يصبروا حتى يتموا قراءة الآية الكريمة، ويعرفوا تعليل هذا الوضع الحكيم ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] يا هؤلاء إنكم معنا ونحن معكم فى أن جمال المرأة عاطفتها، وأنها عاطفة كلها، وأنها حين تخلو من رقة العاطفة وجمالها تفقد أهم مميزاتها وأفضل خصائصها، والشهادة دليل يحتاج إلى حدة الذاكرة ودقة التفكير، والبعد عن مجال العاطفة، وتجنب التأثر بتيار الشعور والوجدان، ولهذا قرر الإسلام أن تقرن شهادة المرأة بشهادة أخري حتي يتأكد لدي القاضي أنها شهادة يمليها تفكير لا هوي ولا عاطفة: ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فليس في ذلك إنقاص لقيمة المرأة ولا حط من درجتها ومنزلتها؛ ولكنه تقدير لعاطفتها، ونزول علي تكوينها.

أحب أن يضع هؤلاء الكاتبون أمام أنظارهم هذه النظرات، وأن يفكروا فيها بعيداً عن تيار التقليد، وموجة التعصب، ولا شك أنهم بعد ذلك سيقولون معنا ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

مقومات الأسرة الصالحة أيضًا

وللإمام البنا رحمه الله كذلك نظرات فى تلك المقومات حيث قال:

لا شك فى أن من أعقد المشاكل التى تعترض المصلحين الاجتماعيين فى هذا العصر: «مشكلة نظام الأسرة» وما يتبعه من صلة المرأة بالرجل» وصلة المرأة بالمجتمع، وما يجب أن يكون عليه تكوينها وتنشئتها تبعًا لذلك.

ومن هنا كانت هذه الألفاظ التى تتصل بالمرأة والأسرة أكثر دورانًا وتداولاً للقلوب والأسماع: السفور، الاختلاط بين الجنسين، عمل المرأة فى البيت وفى خارجه، التبرج، الحفلات العامة، تعدد الزوجات، تقييد الطلاق، تشجيع الزواج، تعليم الفتاة، الملابس والأزياء.. الخ. كلها من الألفاظ التى تشير إلى موضوعات هامة تشغل أذهان المصلحين وألبابهم، وتدفع الكتاب إلى أن يكتبوا، والوعاظ إلى أن ينصحوا، والحاكمين إلى أن يقننوا، والجماعات إلى أن تتحرك وتعمل، لاشك فى هذا كله، ولا شك عند المنصفين الفاهمين أن الإسلام بما وضع لهذه المشاكل من حلول، وبما جاء به من نظم وأوضاع قد كفى الناس مؤنة هذا العناء لو أخذوا عنه ولجأوا إليه، وساروا وفق نهجه القويم وصراطه المستقيم، ولكن هكذا الإنسان يصبح ظمآنًا وفى البحر فمه.

جاءنى بعض الشباب ثائرًا ثورة عنيفة على ما تريد الحكومة أن تتقدم به من قوانين تحد بها من تعدد الزوجات، وتقيد حق الرجل فى الطلاق، وقالوا إنها لاحدى الكبر أن تحرم ما أحل الله، وأن تحمل الناس على نهج يزيد الأمر فساداً على فساد كما يتداوى شارب الخمر بالخمر، وسألونى رأيى فى هذه القضية، وتطرق الأمر من حديث خاص حول هاتين النقطتين إلى حديث عام حول «المرأة والأسرة» وما يجب أن يكون عليه الحال بالنسبة لهما، ولقد خلصت من هذا الحديث بهذه النتائج ولا أدرى أأرضاهم هذا الاستنباط أم غضبوا له، ولكنها على كل حال آراء اعتقد أنها توضح لهم نهج الإسلام القويم فى هذه المشاكل المعقدة، وأتمنى أن يفتح الله لها آذان الحاكمين والمحكومين على السواء، وأن يلهمنا الرشد بالرجوع إلى ديننا والتأدب بآداب شريعتنا فإنها الحق كل الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟.

لا أظن أن اثنين يختلفان فى أن الإسلام الحنيف يحرم تحريمًا قاطعًا هذه الفوضى الخلقية والإباحية السائدة التى تتجلى فى مجتمعاتنا وأحفالنا والصور التى تنشرها جرائدنا ومجلاتنا، ومهما قيل عن أن كشف الوجه والكفين يجيزه الإسلام فليس فى الدنيا كلها مسلم واحد يقول إن الإسلام يبيح هذا الكشف الفاضح عن مواضع الزينة، ويسيغ هذه

الأزياء المتهالكة التي تشف وتصف معا والتي تدع صواحباتها كاسيات عاريات، ولا ينكر أحد هذا التغيير والتبديل لخلق الله إلا إذا كان مسلماً بالاسم فقط، ولا يعلم من أحكام هذا الدين وآدابه شيئًا، وليس في الدنيا كلها مسلم واحد يقول بجوا خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية عنه من غير أن يكون معها «مَحْرَم». هذا الوضع لا يقره الإسلام بحال، ولا يقر ما يؤدي إليه، فكل عمل أو تصرف يكون من شأنه اختلاط المرأة بالأجانب عنها يحرمه الإسلام ولا يرضاه.

هذا كلام أظن أنه مفروغ منه بين الذين يعرفون أحكام هذا الدين، ودعك من الجدل الفقهي حول عورة المرأة وخوف الفتنة وما إلى ذلك من المماحكات. وحسبك أن تصرخ بكل قواك بأن الإسلام يحرم تحريمًا قاطعًا هذا الاختلاط وهذه الأزياء، وهذه الصور وهذه الاحفال وهذا التبرج وهذا التمرد على الأزواج والأولاد والبيوت والخدور، وهذا الانطلاق الشائن إلى ساحات الأعمال التي لم تخلق لها المرأة، ولا يمكن أن تمت إليها بسبب من الأسباب، فيردد صدى صرختك كل قلب مؤمن، ولا تجد من ينكرها إلا رجلاً لم يعرف شيئًا من الإسلام، أو آخر يجاهر بأنه سيعمل ما يشاء وإن رغم أنف الإسلام، ولا يرغم الله إلا هذه المعاصي.

ولا شك أن الأسرة في مصر قد وصلت من التحلل والاضطراب إلى درجة تصم السميع، وتعمي البصير، ويسأل من مثلها العافية.

والأسباب لذلك معروفة غير مجهولة، والداء مشخص واضح غير خفي ولكن الشأن في العلاج.

إن العلاج تربية الفتيان والفتيات تربية إسلامية عفيفة طاهرة، ومصادرة هذا الغذاء الوبيل من الصحف والمجلات والروايات والكتابات والمسارح والسينمات والإذاعات المرئية والمسموعة الهازلة الضئيلة المثيرة التي تستغل في الناس أخس مشاعرهم، وأحط غرائزهم، ومقاومة هذا التيار من التبرج والاختلاط، ومفارقة البيوت والخدور للتسكع في الحدائق والمصايف والمتنزهات وعلى الشواطئ وفي البلاجات، وتحريم هذه الوسائل الخسيسة التي تيسر على الشباب مقاصدهم بغير تبعة ولا رقابة ولا حساب، وتيسير سبيله على راغبيه وإقناعهم بالغاية الصحيحة منه، وإفهامهم أنه شركة على احتمال أعباء لا جنة يجب أن تكون محفوفة بالروح والريحان، ومغمورة بالمشاعر الملتهبة والعواطف الثائرة الحائرة، وتعريف كل من الزوجين حقه وواجبه في حدود قول الله تعالى: ﴿ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ

بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فل يكون بعد ذلك إلا إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

إن الأمر فى الحقيقة أوضح من أن يحتاج إلى مزيد شرح، ولكنه يحتاج إلى قوة جهاد ودوام كفاح، وعمل متواصل، ويحتاج كذلك إلى قدوة صالحة وأسوة حسنة، تظهر للناس عاملة مجدة، وأرجو أن يكتب الله هذا الفضل للإخوان المسلمين وأن يجعلهم فى ذلك من السابقين الأولين بإذن الله.

أما تقييد الطلاق وتعدد الزوجات فليس محل خلاف بين الناس.

إن الإسلام سلم بهذه الحقوق للأزواج وعلمهم طريق استخدامها، كما أنه ليس فى محل خلاف أن معظم الناس قد أساء استخدام هذه الحقوق ولم يتصرف فيها على وجهها السليم، ولم يضعها موضعها النافع. وليس محل خلاف كذلك أن الحكومة باعتبارها المسئولة عن شئون الناس العامة من حقها أن تتدخل لوضع حد لهذه الفوضى التى أوجدها سوء استخدام الجماهير لهذه الحقوق، وهى بذلك إن وقفت تعمل ولا شك على حماية الأوضاع الإسلامية نفسها، وعلى رعاية الكيفيات التى رسمها الإسلام لاستخدام هذه الحقوق واستعمالها فقد أدت واجبًا عليها نحو الناس. ففى تعدد الزوجات مثلاً قال القرآن الكريم ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء: ٣] فإذا تدخلت الحكومة لحماية شرط العدل كانت عاملة على تحقيق فكرة الإسلام لا واقفة فى طريقها، وفى الطلاق قال القرآن الكريم ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٣٥]، فإذا تدخلت الحكومة لتجعل القاضى وسيطًا فى الصلح ينتدب حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها؛ قبل الطلاق، كانت بذلك عاملة على تحقيق فكرة الإسلام كذلك.. وهكذا.

وقد يقال إن هذا الحق إنما يقرر للحكومة التى تثبت أنها حكومة تسير وفق النظام فى كل صغيرة وكبيرة من شأنها. أما ومعظم الحكومات لا تأخذ بهذا التوجيه، ولا تتقيد به، فإن ما يخشى من سوء استخدام الحكومة لحق التدخل الممنوح لها أعظم مما يخشى من استعمال الأفراد لحقهم الأصلى. وهذا محل نظر من وجهين:

الوجه الأول: أن هذا الوصف غير مسلم به فى جملته.

والوجه الثانى: أن هذه الحكومات كلها ستكل هذا التطبيق للجهة الشرعية التى تنفذ الفكرة الإسلامية فى كل تصرفاتها وأحكامها. ومهمة الحاكم العام بعد ذلك ملاحقة التنفيذ لا أكثر.

وإذا تقرر هذا فإن الذى يجب أن تتوجه إليه العناية بمناسبة هذه التشريعات أن تسأل الحكومة هل عجزت عن كل علاج إلا هذا؟ وهل هى قوية العزم مع استخدام هذا العلاج أن تعتبره علاجًا وقتيًا، وتعمل جاهدة على إزالة الأسباب الرئيسية الأساسية للداء، وهل لاحظت فى مشروعاتها مطالب الفكرة الإسلامية، وكيفت أوضاعها بحيث لا تصطدم بالقواعد الشرعية فلا يترتب عليه إحلال حرام أو تحريم حلال؟ وهل كان الدافع لهذا بحق هو المصلحة العامة لا شهوة بعض الأفراد، ورغبة بعض الأشخاص؟ فإذا وثقنا من أن الإجابة على هذه الأسئلة مرضية كان من الواجب أن تتعاون الهيئات كلها على أن يأتى العلاج بثمرته.. وذلك ما نحققه بدراسة أوفى ومعرفة أوسع لنصوص هذه المشروعات والمذكرات الملحقة بها، وهو ما ستقوم به اللجنة الشرعية بالمركز العام للإخوان المسلمين، ثم تكتب فيه بيانًا أدق وأوفى بإذن الله. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل. مايو ١٩٤٤.

البيت المسلم

اعتقد أنه لا يوجد أحد ينكر خطورة أى عارض مؤثر فى كيان الأسرة من قريب أو بعيد، وما يستتبعه انحطاط الأسرة من تأخر شديد للحالة الاجتماعية كلها، ومن ذا الذى يتجاهل الأوضاع المريضة للأسر المصرية، وما أشاعته هذه الأوضاع من فوضى واضطراب يؤثران فى حياة الوطن العامة ونهضته المرتقبة؟

إن بناء الجسم الاجتماعى للأمة ليس إلا من هذه الخلايا الصغيرة الحية، ومقدار العافية التى تسرى فى أوصاله؛ هو مجموع ما تتمتع به كل خلية على حدة من قوة ونماء، فإذا استطعنا تكوين الأسر السليمة، وأمددناها بما يكفل لها الحياة الحقة، فإن مكسبنا فى الواقع مضاعف الربح، وغراسنا مبارك الثمر. ولنا أن نرجو بركات إصلاح الأسرة وهو ما يعنى كلمة البيت المسلم، فى مجتمع زكى كريم، تنهض استقامته على دعائم متينة، وتتعارف وتتعاون وحداته على أقدس المعانى وأسماها.

وثم شىء آخر يولد مع الأسرة الصالحة، ويترعرع فى كفالتها، ونعنى به النفسية السوية، نفسية، نفسية الفرد الذى يسير على منطق الفطرة وحده، ويتبع فى حياته نوعا ممتازا من السلوك، هو السلوك السوى الذى فطره الله عليه، لا السلوك الذى يريده عليه الآخرون مخالفاً للفطرة السوية.

هذه الشخصية لا تظهر بيننا إلا على ندرة.

والحقيقة أن أقدار الأمم تتفاوت رفعة وضعة؛ بتفاوت أنصبتها من الأنظمة التى تُعنى بهذه الروح، وتقوم على حراسته، بل إن بقاء الأمم وانهيارها يرجع فى الحقيقة إلى سلوك الأفراد واحدا واحدا. وفى هذا الإطار يقول الإمام البنا يرحمه الله: «إن الرجل يستطيع أن يبنى أمة إذا توجهت همته إلى البناء، ويستطيع أيضاً أن يهدم أمة إذا توجهت همته إلى الهدم.

وعلى هذا أصبح كل إنسان يحمل كفلاً من مقدرات الأمة التى ينتمي إليها، ويؤثر بخلقه وهمته وعمله فى رجاحة موازينها أو خفتها، وأمثال هذه الأمور توكل مباشرة إلى البيوت (الأسر) التى يعيش فيها المرء من المهد إلى اللحد، والتى يكتسب فيها من الخصال ما يمتزج بلحمه ودمه، والحديث الشريف الصحيح يقول:

«كل مولود يولد على الفطرة، وأبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

فلنتكاتف جميعا فى موضوع البيت الذى يضم الأسرة، ولا نطل التفكير فيه، ففى إمكاننا استخراج القواعد التى ينبغى تطبيقها للوصول إلى الكمال الواجب، وهى منا قريبة جداً وفى متناول كل فرد وكل أسرة وكل بيت؛ تلك هى توجيهات القرآن الكريم التى صدرنا بها هذا الكتاب، والأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة التى أوردناها عقب الآيات القرآنية الكريمة التى أوضحت المعالم لحياة الأسرة المسلمة الصالحة.

البيت المسلم أيضاً للمفكر الإسلامى المرحوم الشيخ محمد الغزالى فى غير صفحة من الكتاب الكريم، وفى غير موضع من السنة المطهرة يستقبلك كلام عن الأسرة، وشتى شئونها، لم يترك جليلاً أو دقيقا من هذه الأحوال الهامة إلا عالجه بما يبين وجه الحق فيه. ولقد بلغ من دقة إحساس الإسلام، وشدة شعوره أن تدخل فى نظام الدخول والخروج بين حجرات البيت الواحد، فشرع له أدب الاستئذان ووضع خلال النصوص الناطقة به من المعانى والإشارت ما يعتبر توجيهًا دقيقا فى نواح يقوم عليها البيت المسلم قياماً سليما، ولقد اهتم الإسلام بالروابط بين أعضاء الأسرة فجعل ثبوتها أمراً يعلو على الفناء، وأعادها مرة أخرى لتربط بين أعضاء الأسرة المؤمنة فى جنات النعيم ﴿ **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)** ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]. كذلك ربط بين أعضاء الأسرة المجرمة الشقية فى مهادى الجحيم: ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)** ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. ثم لعلك تجد فيما يؤثر عن حياة الرسول ﷺ

بين أزواجه، وفى أنواع المعاملة التى شرعها عليه الصلاة والسلام فى بيوته العديدة؛ ما يلقى على المجتمع الإسلامى هداية تطهر جوانبه، وتدعم قواعده، وما فيه كذلك غنى ومقنع لكافة دعاة الإصلاح حتى لا يوجد محل لثقافة دخيلة، ومبادئ غريبة تستورد من هنا أو من هناك.

طبيعة الحياة: ولقد ظهرت الحياة الإنسانية على الأرض، وقدر الله لها البقاء إلى أجل مسمى، ولكنه لم يكل أمر إبقائها أو إفنائها إلى الفعل البشرى، ولم يفوض إليه حرية المحافظة على نوعه، وإبراز السلالات المغيبة إلى عالم الوجود تتوارث عمارة الأرض والضرب فى رحابها الواسعة. نعم لم يترك للعقل البشرى تدبير هذه الشئون الخطيرة، وإنما شاءت حكمة خالق الحياة أن تجعل استمرار الحياة والأحياء وظيفة عدة غرائز بالغة القوة، شديدة النزوع، لا تفتأ تثور فلا تهدأ حتى تستقر عند أهدافها، ونحن مهما وصفنا هذه الغرائز بأنها بهيمية، وأنها مجنونة؛ فإن نتائج أعمالها الجليلة هى سر بقائها!! وهى سر اطراد مواكب العمران مع رحيلها الدائم إلى أودية الموت، ولو أن هذه النتائج عينها طُلب إلى العقل البشرى تحصيلها لكانت فلسفة التشاؤم قد حصدت الآجال وأبقت ظاهر الأرض قاعا صفصفا؛ ذلك أن التبرم بالعيش كثير التفشى بين الطبقات الضعيفة - وما أكثرها - ومن ثم ندرك مبلغ الحكمة فى اختيار هذا الأسلوب لمواصلة السعى فى ذلك العالم العظيم، وندرك كذلك حقيقة الصلة الوثيقة التى تجمع بين نفسين، والتى نسميها الزواج. وندرك معها نفاق المجتمع الذى يحاول إكساب الزواج مظهرًا رهيبا، ويعتبر الإقدام عليه اقتحاماً لأدق المشروعات وأقساها، فلننظر حوالينا لنرى الأسرة فى مراحل تكوينها الأولى، ونرى العوامل التى تحيط بها وتمهد لغدها القريب.

بناء الأسرة: راعى الإسلام فى الزواج أن يكون إتمامه على طريقة الاختيار الحر، والإقناع الهادئ، وجعل توثيق عقدته من إيجاب وقبول بين الرجل والمرأة التى اختارها، ولقد روى فى الأثر أن فتاة جاءت إلى رسول الله ﷺ تقول: إن أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته وأنا له كارهة، فقال لها ﷺ «إن شئت أمضيت النكاح، وإن شئت فسختيه» فقالت: قد أمضيت ما صنع أبى، ولكنى أردت أن تعلم الفتيات أن ليس للآباء شىء أمام رغبة الفتيات. وهذه السنة تحارب طائفة من الرجال يسعون وراء الجاه أو المال أو أى شىء من المآرب الأخرى، ويزفون بناتهم إلى من يكرهنه؛ فيضعون بذلك البذرة للفساد والشقاق المنكر، وبالتالى لهدم الأسر، ونكد الحياة. وإن كانت السنة المطهرة قد احتاطت للأمر من ناحية أخرى؛ فلم تدع للنساء حبلهن على الغارب ليتزوجن ممن تتجه إليه شهواتهن،

فشرطت لصحة العقد كذلك رضا الولى، وأبطلت ما دون ذلك من تصرفات، وهذا التشريع الإسلامى هو أقصى ما تصل إليه المحافظة على تكوين الأسرة الإسلامية الصالحة؛ تكوينا يضمن السعادة والكرامة لحاضر الأسرة ومستقبلها. ولكن طريقة الاختبار الحر والإقناع الهادىء التى قلنا بوجوبها فى أسس تكوين الأسرة كيف تتم، وفى أية بيئة اجتماعية تحدث، وهل معنى ذلك أن تتجه إلى تقاليد الغرب فى الخطبة والزواج؟ وهل يكون مجتمعنا عندئذ مجتمع انفراد أو اختلاط؟ وللتقاليد الأولى فى الصعيد المصرى أنصار أى أنصار، والأخرى لها من أشياع أوروبا دعاة وأعوان، وكلتا النظرتين تحاول الغلبة والشيوع؛ ولئن كان الإسلام يؤيد الفكرة الشرقية؛ فهو لا يقرها على طول الخط، كما لا يقر أيضا أكثر التقاليد الأوروبية فى ذلك المعنى، فقديمًا كانت المباعدة بين الجنسين تتخذ شكلاً يبلغ فى قوته حد التوحش وكان على المرأة أن تقضى حياتها سجينة بين أربعة جدران متى جاوزت حد الطفولة، فلا تخرج إلا إلى الزوج أو القبر!

والجريمة النكراء أن تراها عين، ولا شك أن الزواج الذى يعقد فى مثل هذه الحالات نوع من القمار الخطر، قد يجلب السعادة، كما يجلب الخسارة؛ ففى طيات الغيب وحده طالع هذا الاقتران الذى ألف بين طرفيه المصادفات الطارئة؛ أو الأغراض البعيدة، وقد أعقب هذا الغلو رد فعل شديد فى الفترة الأخيرة، فطالب للمرأة أنصارها أن تتمتع بكافة الحقوق التى سلبت منها قبلاً، وكان فى طليعة ما قرر للمرأة حرية الاختلاط بالرجل حرية عاتية طفت على كثير من التقاليد الحسنة، وأعقبها ما كان له أوضح الأثر فى كيان الأسرة وسعادتها؛ إذ كانت السمة الغالبة على هذا العهد هى الفوضى والإسراف فى تقليد الأجانب، والأمور لا تستقيم إلا باستلهام تعاليم الإسلام، ورعاية الدقة البالغة فى تنفيذها. وإن صادم ذلك تقاليد المحافظين والمتحللين جميعا، فنحن نستقبل نهضة تنفخ روح الحياة فى أمتنا الكبيرة، فلا يجوز أن نهمل عمل الأسرة فى بلوغ هذا الشأو. يجب أن نؤدى رسالة الأسرة كاملة غير منقوصة، وأن تُؤَدَّى من جميع أعضائها المسلمين والمسلمات . وإذا كان الزواج قد فُهم يوما ما بالنسبة إلى المرأة على أنها متعة ومتاع وبالنسبة إلى الرجل على أنه المنتفع المستغل، فقد دفعنا ثمن ذلك الضلال غرما فادحاً أديناه من تقدمنا ونهوضنا ورسالتنا الإسلامية العظمى فى هذه الحياة. ولقد كانت البيئة المصرية كبقية البيئات الشرقية أشبه بالمستنقع الراكد يبدو على صفحته الهدوء الجميل وتتوارى فى أعماقه الكدورة الكريهة، وماذا تتحمل طبيعة هذه البيئات الضحلة؟

لقد انتقلت عنها موجات الحياة الصاخبة وأعاصيرها الدافعة.. ثم استيقظنا مرة أخرى، ولكن على لطمات قاسية من أيدى الذين نهضوا لما لم ننهض نحن بالخير والرشاد.

(بين الرجل والمرأة) للإمام الراحل الشيخ محمد الغزالى رحمه الله

من عجيب صنع الله جل جلاله؛ فى هذا العالم أنه لم يخلق فيه شيئاً يكتمل بنفسه، ويستغنى عن غيره، بل جعل لكل شيء قرينا يتم به وجوده، ويستمر به بقاؤه. ويحفظ به نوعه ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات: ٤٩] ونحن نشهد هذا الازدواج واضحاً فى الإنسان والحيوان والنبات، وقد تقرر أخيراً أنه مطرد فى الجماد كذلك، فإن هذه الذرات الجامدة يحتاج بعضها إلى الآخر لتكون شيئاً مذكورا، كما تحتاج الدائرة الكهربائية إلى التيار السالب والتيار الموجب جميعا لكى تؤدى عملها، وهكذا تشيع الزوجية فى مظاهر الوجود كله. ثم يبقى الله وحده المستغنى بنفسه عن كل شيء، وليس يستغنى عنه أى شيء: يبقى وحده الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد !! ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس: ٣٦]. وقد خلق الله الجنس الإنسانى من ذكر وانثى، وجعل بقاءه على ظهر الأرض أثرًا لالتقاء نوعيه كليهما وشرع للناس سننا محكمة توضح العلائق بينهما، وتحدد الاتجاه الطاهر الرشيد الذى يجب أن يتحول إليه الأفراد والجماعات.

آداب لابد منها: لا يكاد الإنسان ذكراً كان أو أنثى يقطع من عمره بضعة عشر عامًا حتى تظهر على جسده وفى نفسه آثار غزيرة قوية شديدة تغير نظرته إلى الأمور وفكرته نحوه، وتؤثر فى مسلكه تأثيراً بالغاً، وتبدأ هذه الغريزة قوية شديدة قبل أن يقوى العقل ويشتد، وتبلغ أشدها قبل أن يدرك المرء رشده، ولذلك طالما اهتاج لها الشعور، وطاش بها الفكر. وقد تدخل الإسلام فى هذه الحال وأصدر من الأوامر والنواهى ما يعتبر حصانة قويمة للخلق الإنسانى، وتعاليا بالنفس إلى المكان اللائق بها. والغاية التى يهدف إليها الإسلام هى غرس العفاف والفضيلة فى دماء بنيه، وتزكية أنفسهم وعواطفهم بشتى التعاليم. ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨].

وقد توسل الإسلام إلى ذلك بطائفة من الآداب الكريمة يكفكف بها من حدة الغريزة ودسائسها، فأمر الرجال والنساء بغض البصر ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ

﴿أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١]. وبين أن مجاهدة دواعى النظر، ومغالبة نوازع الهوى تترك فى ضمير المؤمن لذة الانتصار على شيطانه، ولذة الاستمتاع بمرضاه الله عنه «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها من مخافتى أبدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه». واعتبر الإسلام المرأة عورة وكلفها أن تبالغ فى الاحتشام وفى ستر جسدها بما يقطع أسباب الفتنة. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

والإسلام يرفض الثياب التى تثير الفتنة أشد من العرى الفاضح: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا».

والإسلام إن كان قد أباح الزينة للإنسان، فإنما قرن ذلك بما يحدد مواضع الزينة ومواطنها إذا حرم على المرأة أن تكشف عن زينتها لغير زوجها أو الأقربين من ذوى محارمها. ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

فإذا خرجت المرأة من بيتها لقصد مشروع فلتخرج؛ ولكن على النحو الذى بينا سابقة الثياب عاطلة الزينة فإنه: «أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهى زانية وكل عين - نظرت إليها - فهى زانية». وما عدا ذلك فهو جاهلية منبوذة لا تليق بمسلمة. ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. والمرأة فى بيتها لا يجوز لأحد أن ينفرد بها. ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. وتحريم الخلوة سد حاسم لمصادر الشر، وحبال الإثم، ومصايد الجريمة. «لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما». ذلك وقد حرم الإسلام أن تخرج المرأة فى السفر الطويل وحدها مهما كانت غاية السفر كريمة نبيلة، بل لابد أن يصحبها زوجها أو أحد محارمها. «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر يومين من الدهر إلا ومعها ذو محرم منها أو زوجها». وقال رجل يارسول الله إن امرأتى انطلقت حاجة وقد اكتتبت فى غزوة كذا فقال له الرسول ﷺ «اذهب فحج مع امرأتك».

وبهذه الوصايا المشددة، والنصائح المؤكدة يريد الدين أن يحافظ على طهارة أبنائه وأن

يصون أعراضهم، وأن يؤسس تصرفاتهم على المرءوة الحقة والخلال العفة، وقاعدته فى ذلك الصراحة فى كشف الداء، ووصف الدواء.

غلط شائع: نعم هذه أدوية ولكن من الحق أن نقول إنها مؤقتة وأكثرها «مسكنات» للحالة التى تسبق الزواج وبقيتها ضوابط وحصانات للحالة التى تعقبه، ولأمر ما لم يعط الإسلام لقب الإحصان إلا للرجل المتزوج أو للمرأة المتزوجة !! والواقع أن الزواج هو الدواء الشافى للغريزة الجنسية، وإرشادات الدين حين توجه الناس إليه إنما تدفع بهذه الغريزة إلى مجراها الطبيعى، ووضعها العتيد، فهى تبقى غض البصر عن المحارم لتفتحه كاملاً على الحلال الطيب، ثم هى تضع هذا الحلال الطيب فى سياج من تحريم الخلوة والتبرج، حتى لا تتكدر متعته، وتتحول حلاوته إلى مرارة، ومن ثم يقول الرسول ﷺ: «يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج».

ويقول عليه الصلاة والسلام: «من شاء أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر».

وليس الترهب دينا يرضى عنه الله ورسوله ، وليست مكافحة الشهوة عبادة مادام الزواج ممكنا، بل ذلك عبث يستنكره الإسلام، ويراه شروداً فى فهم حقيقة التقوى، وقد حاول بعض الناس أن يعبد الله بهذا الضرب من الرهبانية وظن اعتزال النساء روحانية مشكورة، وتغلبًا على مطالب الجسد وطبائعه. ولكن الرسول ﷺ حسم الأمر بقوله: «إنى أتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى» ويجب أن يعلم الناس أن العمر أغلى عند الله من أن يأمر بإضاعته فى إعلان الحرب على غريزة لا معنى لخصومتها، وإكنان العداء لها، لأننا سنتعب فى ذلك كثيرا، ثم لا نجنى من بعد ذلك شيئاً طائلاً فى دين أو دنيا!!.

جوع وشبع: ومع ذلك فإن العلائق بين الرجل والمرأة لم تستقر على الوضع الذى رضيه الله لهما؛ فأما الغرب فقد تحرر من القيود عامة وترك للشهوات المجال الواسع تنطلق فيه جهدها، ولم يجشم نفسه أى مشقة فى الوقوف أمامها، وبعيدا عن معانى التحليل والتحريم أوجد من أسباب الملاهى ما يشبع الشهوة إلى حد البطر والتخمة، بل أصبح ذلك من مقومات العرف الشائع عند الغربيين؛ فحفلات الرقص وحمامات الشواطئ، وتسويغ العُرى. إلخ. هذه كلها منافذ واسعة هى فى الحقيقة فوق ما تطلب الشهوة مهما جُنَّت ثورتها وطاشت فورتها، ومن ثم كان وجود المرأة ضرورة فى كل شىء عند الغرب المادى المغرق فى مادته، أما الحال لدينا نحن المسلمين فهى مضطربة كذلك، فقد استمعنا إلى بعض الآداب الإسلامية السابقة، وأهملنا البعض الآخر، واضطربت أمورنا فى فعل ما اخترنا، وترك ما

أهملنا ! فضاعفنا الحجاب، وشددنا النكير، وأسأنا الظن، ثم جعلنا الزواج عسيرا جدا مع أنه الوضع الصحيح للعلاقة بين الرجل والمرأة، فكنا تعانى ضربا من الجوع ترك فى النفوس استعداداً القبول الحضارة الأوروبية بشتى مخازيها، وللجوع والشبع دسائس ملعونة يضرب الإنسان في عواقبها. وكثيراً ما نجد الشر حين نظن الخيرا وقد لا يعدو والأمر بين الشرق والغرب. ذلك في إفراطه وهذا في تفريطه قول الإمام البوصيري رضي الله عنه:

واخش الدسائس من جوع ومن شبع   فرب مخمصة شر من التخم

فلنرجع إلي ديننا في مثل هذه الشئون فهو أبر بالناس، وأحني عليهم من تقاليد الشرق والقرب علي السواء.

شركاء المجتمع: والإسلام بعد أن يقرر حكمه في القضايا السابقة يبين لنا أنه يعتبر النساء شقائق الرجال، فهو يفرق بينهما في اليسير، ولكنه يسوي بينهما في الكثير. ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. ومواضع التفرقة بين حقوق الجنسين وطبيعة عملها في المجتمع ترجع كلها إلي التفاوت الحيوي بين خصائص الجنسين وصفاتهما واستعدادهما، بحيث تعتبر التسوية بينهما مع تحقق هذا التفاوت ظلمًا لا ريب فيه، فمن المشاهد أن النساء في المجموع أضعف تكوينًا وأقل احتمالاً من الرجال وأنهن – علي الإجمال – أقل ذكاءً، وأدني تفكيراً، وحسبك في الاستدلال لذلك الاستقراء، فإن زعماء الإنسانية وقادتها العالميين والموضعيين فى جميع نواحى النشاط العقلى من الرجال، ولن تظفر فى أطوار التاريخ الطويل إلا باسم امرأة أو اثنتين، ثم إن المتوسط العادى لأعوام المرأة يهبط إلى الربع تقريبًا إذا لاحظنا أنها يجب أن تُشغل بأمومتها؛ فهى ستكون حاملاً ومرضعًا أكثر أيام السنة. ومعنى هذا أن الطبيعة قد وزعت الاختصاص فجعلت أكثر عمل الرجل فى الشارع وأقله فى البيت، وجعلت عمل المرأة على العكس من ذلك. ،ومادامت فى الدنيا أسر وبيوت فلا نظن عقلاً يحكم بجعل الرجل قعيد البيت، والمرأة طليقة الشارع، وموقف الإسلام فى توزيع الأعمال، وتوضيح الحقوق لكلا الجنسين هو موقف الطبيعة العاقلة والفطرة السليمة لا خلاف بينهما البتة، فامتياز الرجل فى تكوينه البدنى والعقلى والحيوى هو الذى جعله فى نظر الإسلام قوامًا على المرأة يرجح عليها فى طائفة من الحقوق المادية والأدبية.

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤]. نقول يرجح عليها ولا يحتكر دونها، فإن دين الله لم يحرم المرأة شيئًا يضيرها

نقصه حين يجعل ميزان التسوية والتفرقة قوله الرائع: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ونحن باسم هذه الفطرة الإنسانية نقول: إن التخصص سمة هذا العصر، وإنما توكل الأعمال إلى الأكفا لها. فلا تجعلوا المرأة ضابطة فى الجيش مثلاً لأنكم تحرمون الرجال الضعاف من هذا العمل وأمثاله، ولا توجهوا النساء إلى تعلم الهندسة والحقوق وأشباه ذلك لأن نفعهن فى ذلك مشكوك فيه، وإن تحقق يومًا فهو مؤقت؛ إذ سبيل إلى إخلاء البيت من صاحبته القعيدة لكى تدبر مكتبًا هندسيًا أو قضائيًا.

أخبروهن: وليس معنى هذا قسر المرأة أو قهرها، فإنه لابد من أن تأخذ حقها كاملاً فى العلم والفضل وفى خدمة الدين والأمة، وفى إسداء النصح، وأعمال البر على أن يكون ذلك فى حدود وظيفتها التى هيأها الله لها، وعلى أن تكون تابعًا فى الحياة لا متبوعًا، وعلى أن تكون فى نهاية الصف لا فى طليعته، وبهذا وحده تصلح الأوضاع وتستقيم الأمور.. وقد نسمع إلى بعض الحمقى ممن يظنون تملق المرأة ذكاءً وارتقاءً؛ يطلبون لها أكثر مما تطيق طبيعتها، وتحمل وظيفتها ويريدون أن تكون فى طليعة الصفوف، وأن ثمة فريق من الرجال يخضعون لها، ويسيرون خلفها، وذلك ضلال مدنى تأباه الحياة قبل أن يأباه الدين الذى يقول: «شر صفوف الرجال آخرها وخيرها أولها، وشر صفوف النساء أولها وخيرها آخرها».
﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) ﴾ [الأعراف: ٨٥].

الزواج بين متعته وحكمته الخاصة

لفضيلة الشيخ محمد بن أبى زهرة - يرحمه الله -

يعرف الفقهاء عقد الزواج بأنه عقد يفيد حل الاستمتاع بين الذكر والأنثى على الوجه المشروع. ونحن إذا نظرنا إلى هذين التعريفين من الوجهة المنطقية لما وجدنا ثغرة للنقد فى أيهما؛ لأنه إذا كان التعريف جامعًا مانعًا فهو صحيح من الوجهة المنطقية، وكلا التعريفين جامع مانع فهو صحيح منطقًا.

ولكن هل التعريف الذى يقف عند بيان أن الزواج هو تلك المتعة العرضية تعريف يبين ماهية الزواج، وحكمته الشرعية؟ . هل الغرض من الزواج حل الاستمتاع فقط أو ملك المتعة فقط؟ الجواب على ذلك بالسلب، فهذا التعريف لا يفيد بيان ماهية الزواج من ناحية الأغراض الشرعية والاجتماعية التى ناطها الشارع بالزواج، فليست المتعة هى كل الأغراض،

ولا الغرض الأول: إنما الغرض من الزواج تكوين أسرة، وإيجاد نسل، والزواج هو تلك الرابطة الروحية التى تجمع بين الرجل والمرأة على أساس من التفاهم والود والإخلاص، والتعاون مدى الحياة. ولقد يكون من أقرب التعاريف إلى الصواب ذلك الذى يقول: إنه عقد يفيد اتحاد الرجل بالمرأة اتحاداً يترتب عليه ما يتقاضاه الطبع الإنسانى، وتربية الأطفال، وتعاون الرجل والمرأة مدى الحياة، وهذا التعريف جامع مانع يرضى المناطقة وعلماء الاجتماع ويبين غرض الشارع من هذا العقد.

حكمة الزواج: تتلخص حكمة الزواج فى أربعة أمور:

الأمر الأول: أن الزواج يحدد علاقة الرجل بالمرأة بما يتفق مع رقى الإنسان ولا ينحدر إلى دركة الحيوان؛ لأن علاقة ذكر الحيوان بأنثاه لا تتجاوز المتعة الجسدية العارضة، وهذا ما يتفق مع طبيعته. أما الإنسان فيتكون من عنصرين: عنصر حيوانى يتفق مع سائر الحيوان، وعنصر روحى اجتماعى وبه يتميز عن سائر الحيوان، والذى يتفق مع هذا العنصر الزواج الذى هو أسمى وأرقى من مجرد المتعة العرضية، والذى يقتضى الود والألفة والتعاون.

والحكمة الثانية: من حكم الزواج هو تكثير النسل وتنظيمه وترقيته. ولذلك كان المصلحون دائماً عندما يتجهون إلى إصلاح اجتماعى عمرانى يشيدون بالزواج ويدعون إليه. وقد يقول قائل: إن النسل كما يكون ثمرة للزواج يكون ثمرة للعلاقة العرضية، ولكن يرد على ذلك بأن المشاهد أن الأمم التى يقل فيها الزواج – وعندما يقل الزواج يكثر نقيضه – ينقض تعدادها سنة بعد أخرى.

والأمر الثالث: أن الرجل يكد ويكدح فى هذه الحياة فهو فى حاجة ملحة إلى سكن يسكن إليه، وجنة يستروح نعيم الراحة فيها، وذلك السكن وتلك الجنة ليست إلا البيت والمرأة هى عماد البيت، وعليها تقوم سعادته، وذلك بما حباها الله من لطف المعشر ورقة الحاشية، وبما ركبه فيها من عواطف الود والإخلاص والرحمة.

والأمر الرابع: أن الزواج هو قوام الأسرة، والأسرة هى النواة الأولى للمجتمع، فالمجتمع القوى المنتظم لا يكون إلا من أسر قوية منتظمة، وهذا ما يقرره العلماء المصلحون، ولقد قال النبى ﷺ: «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة».

وفى القديم اختلف أفلاطون مع تلميذه أرسطو، فأفلاطون كان يرى محو الأسرة وتكوين أسرة واحدة هى الوطن؛ تتجه إليه عواطف كان الأولى أن يفوز به الوطن، ولكن

تلميذه ارسطو رد عليه بقوله: إنك إن هدمت الأسرة هدمت الوطن، وليس بصحيح أن عواطف الفرد نحو وطنه تتعارض مع عواطفه نحو أسرته، إذ الولد يتعلم فى محيط أسرته ما يصح أن يكون أساسًا لكل العواطف النبيلة التى يستشعرها نحو وطنه، وأبناء وطنه جميعًا.

فمثلاً هو يتعلم من حب الأم لولدها، وتفانيها فى ذلك الحب عاطفة الفداء، والتعاون الوثيق بين افراد الاسرة هو أساس الاتحاد بين أبناء الوطن جميعًا، أما إن شب الولد فى ذلك المحيط الزاخر غير المحدود فمن المستحيل ان تنبت فيه عواطف الحب والإخلاص على وجه صحيح، إن العاطفة تستلزم التخصص اولاً ثم تنمو بعد ذلك.

قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة

جاء فى هذا الكتاب المذكور عنوانه أعلاه للإمام الراحل الشيخ محمد الغزالى رحمه الله: عن الأسرة وحماية الإسلام لها:

شكا المعنيون بسلامة المجتمع فى انجلترا من تفاحش نسبة الطلاق فقد بلغت نحو ٣٣٪. كما بلغ الأطفال الذين يفقدون رعاية الأبوين معًا ٤٠٪ وزادت قضايا طلب الحضانة زيادة كبيرة، الأب يريد الانفراد بأولاده، والأم تريد بعد الطلاق أن يحرم منهم، ومستقبل هذا الجيل التعيس ضائع فى لجة هذه الخصومات.

والطلاق شيء بغيض! لا سيما بعد أن يتحول الزوجان إلى والدين، فإن ضرر الانفصال يتجاوزهما إلى غيرهما من الأبرياء! وأرى أن الوقاية خير من العلاج، وأن استدامة الحياة الزوجية أولى من تعريضها للانقطاع ثم مواجهة الآثار السيئة للطلاق..

وهذه الاستدامة لا تتوافر! شلا مع الإيمان الحق والإخلاص الطاهر، واكتفاء الرجل بزوجته التى يسرها القدر له، وكذلك رضاء المرأة بزوجها وحياطتها له..

وهذه هى العناصر المستفادة من قوله تعالى فى صفة عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ...﴾ [الفرقان: ٧٤] إن استقرار العين على شريك الحياة أو على شريكة الحياة أمر مهم بل هو ركن فى بقاء البيت..

فهل تقاليد الحضارة الحديثة تحقق هذه الضمانات؟ الإجابة البعيدة عن التعمية والنفاق: لا..! بل إن هذه الضمانات تذوب وتستخفى فى المراقص المائجة بذكور وإناث يحتضن أحدهما الآخر، ويتواثبان فى دائرة مغلقة؛ يتنفس فيها الحيوان الرابض فى دمهما خصوصًا عندما تكون المرأة فى ملابس السهرة شبه عارية.!

إذا كان هذا لا يهدم علاقة المرأة بزوجها للفور فهو زلزال يسقطها بعد حين! ثم هناك الاختلاط المطلق الذى أبعد الوحى الإلهى عن ضبط أمكنته وأزمنته، واستعدت النساء له بفنون شتى من الزينة والتبرج! هل يبقى هذا الاختلاط على كرامة الأسرة أو استقرارها؟ كلا...

إن الإسلام بتعاليمه الدقيقة يحفظ حاضر الأسرة ومستقبلها، ويبعد شبح الطلاق المرعب عنها! لكن الطلاق أخذ يشيع فى مجتمعات إسلامية كثيرة لأن انحلال المدنية الغربية تسلل إلينا، وشرعت جراثيمه تدق بعنف الأبواب المغلقة..

والنجاح الذى صادف الحضارة الغازية يعود إلى ضعف المقاومة وإلى غباء المدافعين!

إننى عاصرت الأيام التى أدخل فيها طه حسين الفتيات فى الجامعة! لقد كان التيار الدينى يرى ذلك حرامًا!! بل إن تعليم البنات فى مدارس خاصة بدأ بعد الاحتلال البريطانى لمصر، فإن التقاليد السائدة كانت تفرض الأمية على النساء باسم الإسلام!!

ومع غزو المرأة للفضاء فى العصر الحديث فإن أناسًا عندنا يقاتلون دون أن تصلى المرأة فى المسجد! يقولون بيتها أولى بها.

ويوم تتقرر هذه المواقف فى الأرض الإسلامية فإن مجون الحضارة المنتصرة لن يجد أمامه عائقًا أبدًا.

هكذا كان قدر المرأة المسلمة

كلما رجعت إلى السيرة النبوية ازددت معرفة بما كان للمرأة من مكانة، وبما كفله الإسلام لها من حقوق، لقد كانت لها شخصية مقدورة وأثر يحسب! يقول المحدثون:

لما نزل قول الله تعالى لنبيه ﷺ: «وأنذر عشيرتك الأقربين». صعد رسول الله ﷺ الصفا ونادى: «يابنى عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله، ياصفية عمة رسول الله، ويافاطمة بنت رسول الله اشتريا أنفسكما من الله فإنى لا أغنى عنكما من الله شيئًا، سلانى من مالى ما شئتما».

إن نداء المرأة بهذا الصوت الجهير شىء مستنكر فى عصرنا الأخير، كنا نعد اسمها كشخصها عورة لا يجوز أن يعرف! ونقول: ما للمرأة وهذه الشئون؟ يكفى أن يحضر رجل من أسرتها ليبلغها، أما أن تنادى على رءوس الأشهاد فذلك عيب!.

لكن المرأة فى صدر الإسلام عرفت قدرها، ولما سمعت مناد يدعو إلى الإيمان؛ سارعت إلى تلبيته، ويحكى المؤرخون أن أخت عمر بن الخطاب كانت أسبق منه إلى الإسلام، لقد أدمى وجهها عندما علم بإسلامها وهاجمها بقسوة فقالت له: يا عمر إن الحق فى غير دينك، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله...! ثم أسلم عمر بعد!!.

ودخل الرجال والنساء فى دين الله، وأعطوا المواثيق على اعتناق الحق والعمل به، والذود عنه، وانتظمت الصفوف فى المسجد النبوى تستوعب الرجال والنساء على سواء. روى مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: «ما أخذت ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① ﴾ [ق: ١] إلا من لسان رسول الله ﷺ يوم الجمعة يقرأ بها على المنبر فى كل جمعة».

أى أنها حفظت السورة كلها عن ظهر قلب من شدة انتباهها وهى تسمع الخطبة! وكانت سنة رسول الله ﷺ فى الخطابة أن يتلو القرآن الكريم وحسب.

وهى سنة مهجورة الآن، كما أن من السنن المهجورة حضور النساء الجمع والجماعات ويثير ذلك شيئا من التساؤل والدهشة؟.

ومن الطرائف أن امرأة كريمة موسرة كانت تصنع وليمة بعد الجمعة يحضرها من شاء، روى البخارى عن سهل بن سعد قال: كانت منا امرأة تجعل فى مزرعة لها «سلقًا»، فكانت إذا جاء يوم الجمعة تنزع أصول السلق فتجعله فى قدر ثم تجعل عليه قبضة من شعير بعد أن تطحنه، فتكون أصول السلق عرقه - مرقه - قال سهل: كنا ننصرف إليها من صلاة الجمعة فنسلم عليها، فتقرب ذلك الطعام إلينا، فكنا نتمنى يوم الجمعة لطعامها ذلك، ولم يكن فى الطعام لحم ولا دهن...».

هذه امرأة مؤمنة سمحة تدخل السرور على الناس بما أتاها الله من فضله! ولو فعلت ذلك فى عصرنا لأنكر المتزمتون عليها! ولقال كل جرىء على الفتوى: كيف يلقى عليها السلام؟ وكيف ترده؟ وكيف تلقى الضيوف؟ إلخ، إن تقاليد المسلمين فى معاملة النساء لا تستند إلى كتاب أو سنة، وقد نشأ عن ذلك أن المثقفات فى العصر الحديث تجهمن للتراث الدينى كله يحسبنه السبب فى تجهيل المرأة وهضم مكانتها، وإنكار حقوقها المادية والأدبية التى قررتها الفطرة وأكدها الوحى وبرزت أيام حضارتنا، واستخفت مع انتشار القصور وغلبة الأهواء.

الأسرة امتداد للحياة والفضيلة معًا وامتداد للإيمان والعمران على السواء ومن هنا كان الزواج عبادة

من تعاليم الإسلام الخالدة؛ المحافظة على الحياة، وطلب امتدادها إلى قيام الساعة.

وقد رغب الإسلام في الزواج لهذا الغرض، ورحب بالأبوة، وأن يكون لهؤلاء الآباء بعد الأولاد أحفاد: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: ٧٢].

ورفض الإسلام للرهبانية مبنى على سببه، وهو انقطاع حبل الحياة عند الراهب والراهبة ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]. فبها يلوح شبح الفناء، فإذا شاعت الرهبانية المبتدعة فمعنى ذلك أن الإنسانية تنتحر، والعالم يتفانى!.

فلا يستغربن أحد أن يجعل الإسلام الزواج عبادة، وأن يجعل قضاء الوطر في ظله قربى يؤجر المرء عليها، وفي الحديث «من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر» وفي الحديث أيضاً: «أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة، قلب شاكر، ولسان ذاكر، وبدن على البلاء صابر، وزوجة لا تبغيه حوباً في نفسها وماله» والحوب هو الإثم.

أما البدن الصابر على البلاء فهو البدن القوى الناهض بالأعباء والواجبات، لا يكل ولا ينهزم، وهل الرجولة إلا هذا التجلد؟.

ونحب أن نسأل: من التي يتزوجها المسلم؟. يجب أن نعرف أن الزواج ليس التقاء المزيد من الانتاج الحيواني، ولكنه امتداد للحياة والفضيلة معًا، امتداد للإيمان والعمران على السواء.

كما أن الغاية ليست إيجاد أجيال تحسن الأكل والشرب والمتاع، إنما الغاية إيجاد أجيال تحقق رسالة الوجود، ويتعاون الآباء فيها على تربية ذرية سليمة الفكر والقلب، شريفة السلوك والغاية.

ولنتدبر موقف أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام بعدما أنعم الله عليه بالأولاد يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم: ٣٩، ٤٠].

إنه يريد أولاداً يركعون لله ويسجدون!. وما أقبح أن ينسل رجل فساقًا وملاحدة، وفي الأرض الآن أمم لاتبالى ما تلد! أيحيا أولادها كفاراً أم يحيون مؤمنين؟ المهم رفع مستوى المعيشة، وليكونوا بعد ذلك حصب جهنم.

ونحن المسلمين نرفض هذا التفكير، ونعد أصحابه دواباً مهما كانت سماتهم الظاهرة

ومن دعاء عباد الرحمن عندما يختارون أزواجهم، ويؤسسون بيوتهم: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٤].

إن العين المتنقلة بين شتى الوجوه عين خائنة، تقود صاحبها إلى الضياع، وينبغى أن يكون كلا الزوجين قرة عين لصاحبه، وأن يوطن نفسه على هذا الاستقرار وأن يتعاونا بعد ذلك على تربية الأولاد وصيانة حاضرهم ومستقبلهم.

وإذا كان باب التنافس فى الخيرات مفتوحاً، فليكن المسلم بعيد الهمة، واسع الطموح، ليكن إماماً يقتدى به، ولا يتكاسل حتى يجيئ فى المرتبة التالية التابعة. إن علو الهمة من الإيمان، وإن الله يحب من يطلب الفردوس الأعلى، وإقامة البيت المسلم يحتاج إلى جهد كبير، ولتكن صورة الزوجين وحقيقتهما من خلال هذه البنود:

إخوة عقيدة، وصحبة حياة، وشركة أعباء، والتقاء فكر، وتقارب ثقافة، ووحدة غاية، فى ظل أبوة الإسلام.

أبى الإسلام لا أب لى سواه   إذا افتخروا بقيس أو تميم

وظيفة الأسرة وأثرها البعيد

للأسرة أثر بعيد في تنشئة الأولاد، وإحكام سيرتهم، ولا نغالي إذا قلنا إن الأسرة هي الأصل الأول في وراثة اللغة والدين، وقد أثبت العلماء الأخلاقيون أن الحاكم في التربية والسلوك هما: الوراثة والبيئة مع اختلافهم في قوة أحدهما وما أجمل قول الشاعر العربي:

وينشأ ناشئ الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه!

ونظلم الحقيقة والواقع إذا قلنا إن الأب وحده هو الذي يبث هذه العادات في نفوس الأبناء، فللأم أثرها الخطير في المواريث الجسيمة والمعنوية.

وعندما جاءت مريم - عليها السلام - بوليدها النبي العظيم عيسى - عليه الصلاة والسلام - من غير أب، قيل لها: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم: ٢٨] إن أثر الأبوين معا يرتقب في ذريتهما، ويلتمس في الأبناء؛ بل في الأحفاد كذلك، ومن ثم فنحن نعد البيت مسئولاً عن نتاجه، ونطلب من الأب والأم معاً العناية التامة بحاضر الأبناء ومستقبلهم، ويستحيل بناء مجتمع صالح على بيوت خربة، إن فقدان التربية نذير بالأمة لا مستقبل لها.

وقد طلب الإسلام من الأب أن يصلي النوافل في بيته حتى يألف أبناؤه الركوع والسجود لله رب العالمين، كما طلب أن يتلو القرآن في البيت ليتعطر جوه بمعاني الوحي، وفي الحديث: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبوراً» أي أن البيت الذي لا يصلى فيه كالقبر الموحش، وقد قال رسول الله ﷺ: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت»، وقال أيضاً: «أما صلاة الرجل في بيته فنور، فنوروا بيوتكم....» وجاء الأمر بتعليم الأولاد الصغار منذ نعومة أظفارهم وتعويدهم أنواع المكارم حتى يشبوا شرفاء صالحين، وقد لاحظ المربون أولو الغيرة أن الاستعمار الثقافي حريص على إنشاء أجيال فارغة لا تنطلق من مبدأ، ولا تنتهي إلى غاية؛ يكفي أن تحركها الغرائز كالحيوان، مع قليل أو كثير من المعارف النظرية التي لا تعلو بها همة، ولا يتنضَّر بها جبين، وأغلب شعوب العالم الثالث من هذا الصنف الهابط... الطفولة في بلادنا مهددة بالضياع القومي، والاغتراب الوطني، والاحتواء المذهبي، بحيث إننا لا نعرف فضائل قومنا،

ولا عظمة تاريخنا، ولا قيمة رسالتنا، ولا جمال لغتنا وروعة بيانها، ومنذ ان يتحرك بالفم نحو النطق والتعبير يبدد شبح اللغات الأجنبية، أو الألفاظ السوقية وتتعرض النفوس الفضة لغزو مشبع بالفكر الأجنبى، ولصور تنقل إلينا ملامح غيرنا، وكتب ومجلات متخصصة فى تشويه شخصيتنا، وإبعادنا عن منابتنا وتجهيلنا فى ديننا، وتعريفنا بالسلوك الأوربى وحده.

وما هى المثل العليا التى ترتسم فى نفوس أطفالنا، وهم يدرجون نحو اليفاعة والشباب؟ صورة لاعب كرة يتالق والجماهير تحيي قدمه اللبقة وهو يصول ويجول! او نجمة مسرح وهى تمثل دورها باكية او ضاحكة مقبلة أو مدبرة.

إن خريجى هذه المدارس او هذه المناظر لن يدركوا مجداً، ولن يصعدوا قمة، وهيهات ان تسترد بهم امتنا شيئاً من خسائرنا الحضارية، وتخلفنا الاقتصادى والاجتماعى.

ونرى ان دور البيت فى تربية البنين والبنات لابد ان توضع له سياسة علمية وأدبية جديدة، وإلا فنحن نسير إلى الهاوية..!!

إذا لم يتعلم الأبناء الصدق فى أسرتهم وبين جدران بيتهم فأين يتعلمون؟ وإذا لم يتدربوا على الوفاء والأمانة والرقة بين احضان الآباء والأمهات فأين يتدربون؟

هل وظيفة الأسرة توفير العلف لسكانه وحسب؟ الم نسمع قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]؟!

الشباب القوى الذكى ثمرة طفولة نجت من الإهمال والضياع وتعهدتها امرأة واعية وأب يقظ.

فوظيفة ربة البيت ليست وظيفة هينة، إنها منصب آخر فوق مآرب اللذة، ومطالب الشهوات الجنسية.

من لى بتربية البنات فإنها ... فى الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق!!

والغارة الاستعمارية على الأمة الإسلامية لها هدفان قاتلان: أحدهما استبقاء المرأة جاهلة لا تدرى شيئاً عن نفسها او عن العالم، والآخر تعلقها - إذا تعلمت - بمحافر الأمور وانواع الزينة وأشكال المدنية الحديثة، والبعد بها عن اللباب والجد والارتقاء الفردى والجماعى.

وإذا قرأت الصحف اليومية الكبيرة والصغيرة وجدت ما يسوء، وإذا قرأت فأسماء الأفلام

التى يقضى معها الناس أمسياتهم غلبتك الدهشة والحيرة حين تطالع العناوين المعلن عنها فى مساء يوم واحد: لهيب الشيطان، السفلة المحترفون، ثورة كنج تونغ، الرجل المدمر، ميراث الغضب، النمر والانثى، رجل فى عيون امرأة، جرى الوحوش، عزبة الصفيح، الملعوب، الانتقام الدامى، سيف الشيطان، بنات من نار.. هذه الروايات كلها تعرض فى مساء أسود، ولو كان مضاءً بالكهرباء، مساء واحد يضم هذا الفكر الخسيس كله، ويتدبره النظار المسوقون بسياط الدعاية، يقضون معه الساعات الطوال، ويترك فى النفوس أسوأ الآثار.

هل يخرج أحدنا بانطباع عال؟ أو بطموح كريم؟ هل هذه العروض تعيش على تربية سليمة أو تدعم خلقاً زاكياً؟ إن الجيل الذى يخرج من هذه الدور لا يخرج فارغ العقل والقلب وحسب، ولكنه يخرج مليئاً بالصغائر والكبائر على السواء.

إن سموم الحشيش والهيروين ليست أكبر ضرراً من سموم هذه المهالك المجلوبة من الخارج، وإن الأمة التى تشهد هذه القصص تضل الطريق إلى مستقبل معقول! فادعوا معى: «اللهم اجعل مساءنا هذا مساء صالحاً لا مخزياً ولا فاضحاً».. اللهم آمين.

دعائم البيت المسلم السعيد

مازلنا نتتبع مواصفات الأسرة الصالحة من خلال أقوال وآراء المفكرين والعلماء وقادة الرأى الإسلاميين ودعاة وداعيات العمل الإسلامى، وتحت العنوان المبين عاليه نرى ما تقوله الداعية المسلمة السيدة الفاضلة الحاجة زينب الغزالى الجبيلى، تقول: يحرص الإسلام أشد الحرص على بناء الأسرة المسلمة بناءً قوياً متيناً، ويوفر لها من أسباب الاستقرار والطمأنينة ما يجعلها فى أمن وتوازن وتقدم وسعادة؛ كيف لا وهى أساس المجتمع، فبصلاحها يصلح المجتمع، فهى التى تمده بالعناصر الصالحة الذين - بعد أن تزودهم بالقدر الكافى من القيم والسلوك والآداب السليمة - يكوِّنون هذا المجتمع، من هنا كان الحرص على هذا الاستقرار والبحث عن وسائل تدعيمه وتقويته ورعايته يأخذ جانباً عظيماً من توجيهات الإسلام وتعاليمه؛ أمراً ونهياً وسلوكاً وواقعاً؛ حتى يقوى المجتمع، وبهذه المجتمعات الصالحة تقوى الأمة ويعز جانبها.

وأول ملامح الأسرة المسلمة هو وضوح الهدف الذى تعيش من أجله، وينشأ الجيل الفتى لتحقيقه، تجعله الأسرة أكبر همها، حتى يكون الربح الناتج هو رضا الله تبارك وتعالى وحسن الصلة به، وسبيل ذلك هو عمارة الكون وفعل الخير وتطبيق شرع الله تطبيقاً سليماً كاملاً؛

فالإسلام كل لا يتجزأ ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، وبذلك يقوى الحق ويسيطر ويسود العدل بين الناس، ومن مقومات الهدف الأسمى كذلك: البصيرة الواعية والإرادة القوية والعزيمة الصادقة، والتضحية الكاملة بالنفس والمال والولد.

ويحتاج هذا الهدف العظيم، وتلك الغاية النبيلة للأسرة الصالحة إلى دعائم واضحة ومعالم محددة يتربى عليها أفراد الأسرة، ومن هذه الدعائم: أن يسود التفاهم والتكامل والتوازن والانسجام بين أفراد البيت المسلم، وألا يشغلوا أنفسهم بتوافه الأمور وهوامش المشكلات.

والتفاهم والتوازن أساسهما الحوار والنقاش والإقناع بعيداً عن التسلط والأنانية والتعصب للرأى، حتى يتربى الأبناء على هذا السلوك السليم، لأن الرأى يقابله رأى آخر، ولا يقوى أحدهما ويثبت إلا بالحجة والدليل ليكون بعد ذلك الاقتناع، ومن مستلزمات الحوار وآدابه: خفض الصوت واحترام الآخرين، والاتجاه إلى الرأى الصائب.

ومن الدعائم الضرورية للبيت المسلم تربية أبنائه على الاعتزاز بالدين والثقة فيما عند الله، وسرعة اللجوء إليه، والاعتراف بالخطأ، والتوبة والاستغفار والندم، ويحتاج أفراد الأسرة المسلمة للوصول إلى هذا المستوى الرفيع، الأخذ بأسباب العلم الشرعى، والتطبيق السليم لهذا العلم، ودراسة التاريخ الإسلامى للتعرف على مراحل القوة ومراحل الضعف وكيفية الاستفادة بالقوة والتخلص من أسباب الضعف، ولابد من توجيه الأبناء إلى دراسة التاريخ الإسلامى من مصادره الصحيحة، لا من كتب الاستشراق والتدليس والتزييف والتزوير، وما أكثر ما دس أعداء الإسلام فى تاريخنا.

ومن دعائم البيت المسلم كذلك أن نبث فى أبنائنا الطموح وعلو الهمة والتعرف على معالى الأمور، وحب الوصول إلى القمة وبذل الجهد لذلك فى عزة المسلم ووقار المؤمن، فالإنسان خائر الهمة – فاتر العزيمة، ضعيف الإرادة– لا تصلح به أسرة، بل يكون من أسباب هدمها، ولا ينتفع به دين ولا ينصلح به مجتمع، ومن درجات الطموح أن يتعود الأبناء على حب النظام والموازنة بين الأولويات، والتفكير فى المستقبل، ليس مستقبله وحده، بل مستقبل أمته، وأن يكون الجهد والعرق فى الاتجاه الصحيح لمستقبل الأسرة ومستقبل المجتمع ومستقبل الأمة الإسلامية.

وهناك ميزان ومواصفات يجب أن تتوافر فى الأبناء من الجنسين يقيس الأب والأم بها الأولاد ومحاولة طبعهم بها وهى:

١ – سلامة العقيدة.

٢ - صحة العبادة.

٣ - قوة الجسم.

٤ - متانة الخلق.

٥ - ثقافة الفكر.

٦ - تنظيم الشئون.

٧ - القدرة على الكسب عندما يكبر.

٨ - جهاد النفس، وتهذيب رغائبها.

٩ - الحرص على الوقت، فلا يصرف إلا فيما يفيد.

١٠ - النفع للغير، وحب الخير للجميع.

والأم المسلمة يجب أن تحرص على تقوية دعائم أسرتها، وتربية أبنائها على الفهم الصحيح للأمور، والعزيمة الصادقة؛ لتغيير واقع الأمة المسلمة إلى الأفضل، وهذا واجب لا ينبغي التفريط فيه، أو التقصير في تنفيذه؛ لأن الأولاد من أول لحظة في الحمل إلى سن التكليف لبنة لينة في يد الأم تشكلها كيفما تشاء، فليكن هذا التشكيل بفهم ووعي وإحساس بالمسئولية التي سيسألك الله عنها يوم القيامة، فبقدر الخير الذي تغرسينه في أبنائك يكون الجزاء العظيم من الله، والعكس صحيح والعياذ بالله، فالأمة الإسلامية اليوم في أشد حالات الاحتياج إلى عنصر مؤمن يهتم بأمر أمته في محنتها الأليمة التي تمر بها اليوم، فجزى الله الأخت الكريمة الحاجة زينب خير الجزاء.

رأي المرحوم الدكتور إبراهيم سلامة - عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة سابقاً

يقول عليه رحمة الله:

يرى الإسلام أن الأسرة بمعناها المعروف «في علم الحياة» و«علم الاجتماع» هي الخلية الأولى في جسم الأمة الحية، تعمل على تجمع كل الخلايا حولها وتشرع لها بما يكفل نظامها وبقاءها واستمرارها، فباستمرارها سليمة صحيحة تستمر الحياة، فالوالدان أصل الأسرة، لهما مكانتهما في الاحترام الذي يبلغ حد القداسة، والآيات القرآنية تقرن ذكرهما مع عبادة الله وتوحيده: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

ومن هنا فهم المسلمون أن طاعة الوالدين من طاعة الله، وأن عقوقهما من معصية الله، وهو فهم صحيح، إلا أنه فى حاجة إلى شىء من التوضيح:

إن التطور فى الخلق من آيات الله، ومن خاصيته، ويقابله التطور فى التربية، فهى مما كلف الله به الوالدين، ولا يستطيع القيام عليه غيرهما.

ومن ناحية أخرى فإن العبادة التى تطالب بها الأديان لا تخرج عن هاتين الكلمتين: «الحب» و«الخشية»، فالعبادة قرب العابد من المعبود بالقربى والتوسل، والعبادة إقبال المعبود على العابد بالقبول والاستجابة، والعبادة أيضاً هى خوف العابد من المعبود وخشيته ومراقبته والاعتقاد أنك تراه «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، كما جاء فى معنى الإحسان.

وهذا الحب يُتعلم على صدر الأم، وهذه الخشية تتربى من تأديب الأب، وحياطته وسعيه فى استجابة مطالب الحياة، ومن كونه عوناً على الحاجة، وأماناً من الحرمان، فالوالدان مصدران للحب والخشية، وهما الدافعان النفسيان والاجتماعيان للصلات القريبة والبعيدة الممثلة فى العبادة.

فالعبادة كما تكون بمنتهى القرب عن طريق المحبة تكون بمنتهى البعد عن طريق الخشية، وهذا المفهوم واضح عرفته الإنسانية ولاتزال تشعر به: فحب الأم ولدها يكون بمنتهى القرب، فهى تضمه إلى صدرها، وتحاول أن تدخله فى نفسها، وفى كل حواسها، ويكون أحياناً بمنتهى البعد احتراماً وطاعة واستحضاراً للهيبة، وهى صفات تكاد تكون من أخص ما يتمتع به الأب، وحتى الصوفية يحبون هذا الحب المزدوج، فمنهم من يعتقد فى القرب إلى درجة بعيدة، ومنهم من يقوم ليله ويصوم نهاره عابداً متقبلاً، معتقداً أنه لايزال بعيداً عن الرضى الذى ينشده.

على هدى هذه الظواهر النفسية والاجتماعية نستطيع أن نفهم مكانة الأسرة فى الدين الإسلامى، وقداسة الروابط، لا بين الوالدين والمولودين وحدهم، ولكن هذا الإشعاع الرحيم يمتد إلى ذوى القربى من الجيران وذوى الأرحام، وإذا كان الرسول ﷺ حريصاً على العناية بالجار حتى ظن الرسول نفسه - من شدة وصية جبريل - عليه السلام - أنه سيورثه، فليس لهذا من معنى إلا أنه يريد أن يلحقه بالأسرة الملتحمة بالدم والعصب، المرتبطة بأواصر الحب والرعاية والمودة والرحمة.

من الأسرة تتشعع إذن حرارة الارتباط، إلى أن تصبح مواطنة قريبة من الجار وذوى القربى، ومواطنة بعيدة فى الفقراء والمساكين وابن السبيل والسائلين والمعوزين والمدينين.

وهكذا تكون الأسرة حلية المجتمع، ونقطة الابتداء فى التوزيع الاجتماعى إلى الجماعات الصغيرة، ومنها تكون الجماعة الكبيرة التى هى الأمة.

المرأة المسلمة : أمس واليوم

للدكتورة بنت الشاطئ «عائشة عبد الرحمن - جامعة عين شمس»

إذا سأل سائل: أهناك ما يدعو الآن إلى الاشتغال بهذا الموضوع، وإنفاق جهد فيه، والدنيا من حولنا قائمة قاعدة، وثابة طائرة، تفكر فيما بعد عصر الذرة، وتبحث عن غزو جديد للعقل البشرى؟

فالجواب عندى: نعم! أقولها غير محجمة ولا مترددة، بل إنى لأمضى إلى أبعد من هذا فأقرر أننا لم نكن فى حاجة إلى فهم هذه القضية ومثلها، كما نحن الآن، إذ يعوزنا - لكى نعرف حقيقة مكاننا فى العالم، ونميز دورنا فيه - أن نستكمل وعينا لذواتنا، وأن نفهم مقومات وجودنا، وجوهر شخصيتنا، ومحال أن يتحقق لنا شىء من ذلك، إذا نثرنا من ماض لنا بعيد طويل، وجهلنا ما تأصل فى أعماقنا من تراث لنا فكرى وروحى ومادى، ظل يتناقل فينا جيلاً بعد جيل، وخلفاً عن سلف، متغلغلاً فى كياننا، محتكماً فى سلوكنا الفردى والجماعى، موجهاً أساليب تناولنا للحياة وفهمنا لها ومسيرنا فيها.

يقال هذا بوجه عام فى كل القضايا العربية والإسلامية التى ماتزال بحاجة إلى أن تفهم حق الفهم، ويقال بصفة خاصة فى قضية المرأة: **أصل الوجود، وصانعة الحياة، وقوام المجتمع.**

وإذا كان للقضايا الاجتماعية شأن فى دنيانا هذه، فالمرأة بلا ريب هى محور القضية الكبرى، بحكم اختصاصها بالدور الأول فى بناء المجتمع، واستئثارها بحمل أجنة البشرية،

وإرضاعها وحضانتها.

وبهذا التقدير لحيوية الموضوع، والإدراك لحاجتنا إلى فهم جديد لمكانة المرأة فى الإسلام أستطيع أن أتحدث اليوم، وأنا لا أخشى أن يظن بى البعد عن مجال ما يجب أن يشغلنا فى حياتنا الحاضرة التى نحياها.

وأبدأ بالقول: إن فهمنا للمرأة العربية فى المجتمع الإسلامى قد داخله غير قليل من الزيف والخطأ، انحراف به عن الحق التاريخى، وأساء إلى حياة الجماعة الإسلامية فى مختلف عصورها وشتى أقطارها إساءة بالغة، لا أغلو إذا قلت إنها عوقت سيرنا، وأخرت مكاننا فى الركب الإنسانى الفذ فى سيره، الجاد فى تقدمه.

ولا سبيل لى إلى بيان هذا؛ قبل أن التفت إلى ماض لنا أبعد؛ لألمح صورة أمهات وجدات، ليس فينا من لا يمت إليهن بسبب، وأرى إلى أى حد مسخها الفهم الضال لموضع المرأة العربية قبل الإسلام.

وبين يدىّ الساعة كتب عصرية يقرر مؤلفوها أن تلك المرأة - أم العرب - كانت متاعاً يورث ويقسم تقسيم السوائم بين الوارثين، وكانت وصمة تدفن فى مهدها؛ فراراً من عار وجودها، وعبئاً توأد فى مهدها فراراً من نفقة وجودها!

«كانت فى درك انحطاط المنزلة الحيوانية، بل أقل، فكانت كسقط المتاع، تباع وتشترى فى الأسواق، وامرأة هذه منزلتها لابد أن تكون فى أحط درجات الأخلاق».

ومثل هذه الأحكام العامة المطلقة تسجل وتكتب وتذاع بعد منتصف القرن العشرين، فتصوروا - يا معشر العرب والمسلمين - شعب هؤلاء هن أمهاته الأوليات.

أنى له أن يرفع رأسه، وهو ينزع بوراثات أصيلة محتكمة إلى إماء دون السائمة، وينتمى إلى مخلوقات سافلة، لفظهن المجتمع إلى أحط من درجات البهائم!!

أنى له أن يغلب نوازع العرق الدساس، ويقهر دوافع الوراثة المحتكمة، ويواجه العالم متحرراً من عقدة الشعور بضيعة الأصل، وهوان الأم؟!

وأكثر ما نقرأ هذا ومثله فى الكتب التى ألفت لتمجيد الإسلام، وغفل هؤلاء أنه ما من مطعن يمكن أن يؤخذ على المسلمين أفدح من هذا المطعن ولا أبشع.

فمقتضى القول بهوان المرأة العربية قبل الإسلام وانحطاطها إلى ما دون السائمة وتدهورها

إلى أحط درجات الأخلاق، أن الصحابة جميعاً - رضى الله عنهم - قد تسلمتهم أمهات من ذلك الصنف المشئوم؛ وأن أبطال الإسلام الأولين، الذين استطاعوا فى أقل من نصف قرن فحسب أن يغلبوا أباطرة الروم، وأكاسرة الفرس، ويجعلوا راية التوحيد من أقصى المشرق إلى المغرب قد انحدروا من أمهات هذا حالها، ويأبى التاريخ هذا الزعم الباطل، وتأباه سنة الحياة، ويأباه الإسلام ونبيه ﷺ.

يأباه ما وعاه التاريخ من أمجاد المرأة العربية الأولى، وما سجلت ذاكرة الزمان من حرص العرب فى جاهليتهم على كرم النسب، وطهارة الأرحام، وما حفظت أذن الدنيا من قصص أشبه بالأساطير، عن عزة الأمومة عند العرب، وصيانتها بالمهج والأرواح، وما شهدت الجزيرة العربية من مآثر للعقائل المنجبات، اللوائى اعتز بشرف الانتساب إليهن ملوك وقبائل وأبطال وشعراء.

يأباه ما أعيا الدهر أن يطويه من أصداء ما رددته الجزيرة وحفلت به مسامرها من حديث عن عزة الأنوثة عند العرب، وما ثار من معارك دامية حفاظاً على الحريم الذى يفتدى بالحياة: وقد قال شاعرهم:

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
إذا لم نحمهن فلا بقينا لشىء بعدهن ولا حيينا

وكذلك تأباه سنة الحياة، وناموس الاجتماع فما كان لقوم هذه أمهاتهم أن يرثوا عروش أعرق الدول، ولا كان لأمة حملت أجنتها مخلوقات كهؤلاء أن تفرض نفسها على الدنيا، وتحتكم فى التاريخ.

وكذلك يأباه دين الإسلام، دين الفطرة الذى سما بالأمومة إلى أعز موضع، وسجل كتابه الكريم حديث أمهات الأنبياء اللواتى آثرتهن السماء بالمهمة الكبرى، حين عهدت بهم فى طفولتهم إليهن وحدهن دون مشاركة الآباء، فكان الموكب التاريخى الباهر لهاجر أم إسماعيل ساعية بين الصفا والمروة، وأم موسى التى أوحى الله إليها ما أوحى لتنجو بوليدها من المذبحة، ومريم أم المسيح - عليه الصلاة والسلام - التى اصطفاها الله وجعلها وابنها آية، ثم آمنة بنت وهب، أم اليتيم المبعوث بآخر رسالات السماء إلى الأرض - ﷺ.

وكذلك يأباه نبى الإسلام الذى اعتز بأنه ابن العواتك من سليم، وتحدث بنعمة ربه أن ظل ينقله من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، مصفى مهذباً لا تتشعب شعبتان إلا كان

فى خيرهما.

وفى الحق انه قدكان بين نساء العرب مستضعفات ومظلومات، وكان هناك وأد سجله القرآن الكريم، ووضع حداً لمآساته البشعة، لكن وجود قلة مستضعفة لا يهدد الكثرة الكريمة العزيزة، ولم يكن الوأد عاماً فى القبائل كلها، ولا كان يمارس فى نطاق واسع، وإلا صار إلى ضرب من الانتحار الجماعى، والاستسلام المخبول للفناء والانقراض.

وأوجز ما يمكن ان يقال هنا؛ إن حال المرأة العربية فى الجاهلية كانت كحال قومها جميعاً، قبل ان يبزغ نور الفجر الصادق، مبشراً بصبح جديد.

بل لو آثرت الدقة لقلت: إن حال المجتمع البشرى كله كان قد آذن - قبيل المبعث- بالانتقال إلى مرحلة جديدة، وبدت حاجته إلى رسول هاد، يعصمه مما ارتكس فيه من فوضى وضلال، ويقوده بوحى من السماء إلى ما هو افضل وأكرم.

فما صنع الإسلام لنا معشر المسلمات:؟

المفسرون الفقهاء، والمؤرخون، والكتاب افاضوا القول فى اعتراف الإسلام بالمرأة وتكريمه إياها، وتقرير اهليتها لممارسة كل ما للرجال من حقوق شرعية ومدنية، وما اراني هنا فى سحاجة إلى إعادة ما قالوا فى هذا كله، وكتاب الإسلام الخالد بين ايدينا، يكفى ان نتلو فيه مثلاً ما جاء فى سور: البقرة، والنساء، والنور، والأحزاب، والفتح، والمجادلة، والممتحنة، والطلاق، وغيرها لكى نشهد مبلغ عناية القرآن بوضع تشريع مفصل دقيق، يحدد مكان المرأة فى المجتمع الإسلامى ويؤمن حقوقها الإنسانية والشرعية، وينظم حياتها فى مختلف حالاتها وأدوارها، تنظيماً لا مجال فيه لظلمها أو التجنى عليها.

ولست مع ذلك - أملك أن أدع هذا الموقف دون أن أتمه عند آيات بعينها، لعلها لم تدخل فى حساب الدارسين لحقوق النساء فى الإسلام، ولم تثر فيهم مثل الذى أثارت فىّ - أنا الكاتبة المسلمة - من انفعال رائع، بما حظينا به من رعاية ذى الجلال والإكرام.

لقد أصغى فى علاه - إلى شاكية منا راحت تجادل الرسول ﷺ فى زوجها، فكانت كلمة السماء أن ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن

لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ [المجادلة: ١ – ٦].

ذكروا فى السير أن عمر بن الخطاب خرج يومًا فى جمع من الناس، فمر بعجوز استوقفته فوقف؛ وطال حديثهما حتى قال رجل: «يا أمير المؤمنين، حبست الناس على هذه العجوز؟» فقال عمر رضى الله عنه: «ويلك أتدرى من هى؟ هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات. هذه خولة بنت مالك بن ثعلبة التى أنزل الله فيها: ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ﴾». من كتاب الإصابة فى تمييز الصحابة، ج ٨ ص ٦٩.

أجل، سمع الله شكوى شاكية منا، وغضب – سبحانه وتعالى – لواحدة أخرى افترى عليها ظلمًا وبهتانًا، فجعل براءتها آيات تتلى، وقرآنًا يتقيد به من يؤمنون بالله واليوم الآخر! جاء فيها:

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النور: ٤].

ثم قال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النور: ١١ – ١٧].

ولو لم يصنع لنا الإسلام غير هذا، لكان حسبنا نحن المسلمات، ولو لم يكن لنا من

القرآن الكريم سوى هذه الآيات من سورتى المجادلة والنور لرضينا بها حظًا ونصيباً.

وأى مطمع لنا وراء أن يسمع الله من تشتكى من، ويغضب للمفترى عليها؟ أى صنيع يمكن للإنسانية الكريمة أن تطمع فيه للأنثى أسمى من صون حصانتها وحماية سمعتها من أراجيف المبطلين؟.

إن كل ما يتشدق به عصرنا من حقوق للمرأة فى الحرية والمساواة لا يمكن أن يعدل عندنا بعض ذاك الذى صنعه لنا الإسلام فى هذا الموقف وحده!

وإذا ذكرت حقوق النساء، أستعيد هنا ذكرى مواقف تاريخية لرسول الإسلام ﷺ تشهد بعراقة أصلنا - نحن المسلمات - فى التحرر، وقديم عهدنا بما يحسبه العصر الحاضر من مفاخرة، ويعده بين المآثر المجلوبة من الغرب فى القرن العشرين.

حدثت السيدة عائشة رضى الله عنها: أن فتاة دخلت عليها فقالت وهى بادية الغضب والانفعال: إن أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسته، وأنا كارهة، فدعتها أم المؤمنين لتجلس حتى جاء الرسول ﷺ وسمع الشكوى، فدعا والد الفتاة، وجعل أمرها إليها. وإذ ذاك قالت - وقد زال عنها ما كانت تشعر به من غضاضة -: «قد أجزت ما صنع أبى، ولكنى أردت أن أعلم النساء أن ليس إلى الآباء شيء» رواه ابن ماجة، ورجاله رجال الصحيح.

ولقد أجازت زينب بنت رسول الله ﷺ، أبا العاص بن الربيع عندما أيسر بالمدينة قبل أن يسلم. الإصابة: ٨ / ٩١.

واستأمنت «أم حكيم بنت الحارث بن هشام» - عام الفتح - لعكرمة بن أبى جهل فأمنه الرسول ﷺ - مع أنه كان ضمن الذين أمر بقتلهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة». السيرة: الجزء الرابع.

وفى صبيحة يوم الفتح.، لاذ رجلان من بنى مخزوم ببيت أم هانى بنت أبى طالب، فدخل أخوها على - كرم الله وجهه - سفى أثرهما وهو يقسم بالله ليقتلنهما، فأغلقت السيدة عليهما الباب، ثم سعت إلى رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة، فأخبرته خبر الرجلين من بنى مخزوم وإصرار أخيها على على قتلهما، فقال النبى ﷺ:

«قد أجرنا من أجرت يا أم هانى، وأمنا من أمنت، فلا يقتلهما» السيرة ج ٤ ص ٦٠.

وفى صحيح البخارى ومسند أحمد أن السيدة عائشة رضى الله عنها اشترت «بريرة»

وكانت أمة، فأعتقها، فكان لها بمقتضى الشرع الخيار بين البقاء عند زوجها «مغيث» أو تركه، فلما خيرها رسول الله ﷺ اختارت أن تترك مغيثا؛ فهام على وجهه وراءها فى طرقات المدينة باكيًا يترضاها وهى كارهة، وبلغ ذلك الرسول ﷺ، فرق لحاله، وقال لبريرة مستشفعًا: «لو راجعته؟»، فسألت: «أتأمرنى أو ذاك شيء واجب على؟» فأجاب ﷺ: «إنما أنا شافع»، فما كان منها إلا أن قالت: «لا حاجة لى فيه»! صحيح مسلم، كتاب العتق حديث ١٢ م٢.

وفى السيرة أن عمر بن الخطاب كان يتحدث فى أمر له، فقالت له امرأته:

«لو صنعت كذا وكذا؟ قال: ومالك أنت ولما ها هنا؟ وما تكلفك فى أمر أريده؟ أجابت: «عجبًا لك يا ابن الخطاب، أما تريد أن تراجع أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟.

يقول عمر: فأخذت ردائى ثم انطلقت حتى دخلت على حفصة فقلت لها: يا بنية، إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟.

فأجابت: إنا والله لنراجعه».

«ثم خرجت حتى دخلت على «أم سلمة» لقرابتى منها، فكلمتها فقالت لى: عجبًا يا ابن الخطاب! قد دخلت فى كل شيء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه» صحيح مسلم. م/ ٢ حديث ٣١.

أفاحتاج بعد هذا إلى إطالة الوقوف عند الذى زعموه مجحفًا بينا، من إباحة تعدد الزوجات، والطلاق، واحتساب نصيب الأنثيين فى الميراث كنصيب الذكر الواحد، وشهادة الأنثيين مكان شهادة الرجل؟

كلا.. فحكمة الإسلام فى كل مسألة من هذه المسائل تبدو واضحة لا يجحدها إلا جاهل أو مكابر. وقد أفاضت كتب التفسير والفقه والسيرة فى إيضاح الغامض من هذه الأمور، فمن أراد المزيد فليرجع إليها.

فعلى سبيل المثال:

تعدد الزوجات تقضى به أحيانًا ضرورة قاهرة، ويضبطه الإسلام بحدود مادية وأدبية، والطلاق لا محيد عنه إذا لم تعد الحياة الزوجية مستطاعة ولا محتملة، وهو مع ذلك أبغض الحلال عند الله، وإعطاء الأنثى نصف الذكر من الميراث، يقابله إعفاؤها من أعباء النفقة، دون

استثناء نفقتها الشخصية، ونفقة أولادها حتى مع ثرائها وفقر الأب، وشهادة الأنثيتين بدلاً من شاهدٍ رجل، منظور فيها إلى عاطفية المرأة التى هى جوهر أنوثتها.

إنما الذى يحتاج إلى إطالة البيان، هو موقف الإسلام من الحجاب الذى اتخذ صورة القيد المعطل للحرية، وموقفه من تعليم الأنثى، بعد إذ رأينا الدول الإسلامية تحرمه على نسائها إلى عهد قريب باسم الدين الحنيف!.

وما كان لى ولا لسواى أن يزعم أن الحجاب لم يفرضه الإسلام على المؤمنات، لكن أى حجاب هو؟ وماذا فهم المسلمون الأولون من فرضه على نسائهم؟ ثم ما الذى صار إليه الحجاب فى العصور المتأخرة؟.

الذى أعرفه أن الإسلام لم يأمر أهله بسجن المرأة، ولا أوصاهم بأن يوصدوا الأبواب والمنافذ بينها وبين الدنيا، ولا حكم عليها بألا تخرج من بيتها إلا إلى القبر، كما قال آباؤنا وأجدادنا الأقربون، وكما لا يزال منا من يقول فى بعض أقطار هذا الشرق الإسلامى. إنما كان مفهوم الحجاب الإسلامى، هو التصون والعفة والاحتشام (سورة النور: الآية ٣١). وقد عرفه المسلمون الأولون مرادفًا لكرامة الصون وعزة الحياء، إذ رأوه يفرض أول ما يفرض على نساء النبى أمهات المؤمنين:

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾

[الأحزاب: ٣٢، ٣٣].

ثم تلتها هذه الآية الكريمة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ويذكرون فى سبب نزول الآية: أن رسول الله ﷺ حين تزوج السيدة «زينب بنت

جحش» دعا الناس إلى وليمة، فترادفوا أفواجًا يأكل فوج فيخرج ثم يدخل فوج، حتى إذا رفع الطعام تفرق الناس إلا ثلاثة نفر لبثوا يتحدثون فأطالوا، فقام رسول الله ﷺ ليخرجوا، فطاف بحجرات نسائه ثم رجع، فإذا الثلاثة مازالوا جلوسًا يتحدثون مستأنسين للحديث، وكان عليه الصلاة والسلام شديد الحياء، فتولى حتى خرجوا ودخل هو على زوجته. «تفسير الكشاف للزمخشرى ج٣ ص ٢٤٤».

كما يروون عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن الرسول ﷺ جلس مرة إلى طعام ومعه بعض أصحابه، فمست يد رجل منهم يد عائشة، فكره النبى ﷺ ذلك فنزلت آية الحجاب. «المرجع السابق ج٣ ص ٢٤٥».

ومن بعدها فرض الحجاب - المقصود بالحجاب هنا زى المرأة المسلمة - كذلك على أزواج النبى وبناته، ونساء المؤمنين:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١].

وبهذا صار الحجاب سمة للحرائر، وزيًا للعقائل الكريمات من بيت النبوة ونساء المؤمنين، يعرفن به فلا يشتبهن بالإماء المبتذلات، ولا يتعرضن لأذى من كلمة جارحة يلفظ بها فاجر أو سفيه.

ولم يحل الحجاب - مع ذلك - دون خروج المؤمنات - وفيهن أمهات المؤمنين - حين تدعو الحاجة.

ولم يحل الحجاب دون خروجهن فى المغازى، ونيلهن حظهن من العلم.

وإذا كان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه، قد آثر للمؤمنات ألا يخرجن من بيوتهن وزجرهن قائلاً: «لأردنكن حرائرا» فما ذاك إلا لأنه أراد أن يوفر لهن مزيداً من التصون، وينفى عنهن شبهة الابتذال.

وظلت المسلمات الأوليات مع ذلك يخرجن لحاجتهن، ويشاركن فى الحياة العامة ويسعين فيما يعنيهن من شئون الدين والدنيا، ويلقين الأئمة والخلفاء، ويروين الحديث، ويرويه عنهن الصحابة والتابعون.

ولم ينكر الخليفة عمر نفسه على المسلمة حقها في أن تلقاه وتناقشه، وتستدرك عليه، فقد ذكر «ابن الجوزى» في سيرة عمر، أنه رضى الله عنه وقف مرة في الناس خطيبًا يقول: «لا تزيدوا في مهور النساء على أربعمائة درهم فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال» ثم غادر المنبر، فانبرت إليه امرأة من صف النساء تقول: «ما ذلك لك» فسألها: «ولم؟» فأجابت: «لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠)﴾ [النساء: ٢٠]».

فقال عمر رضى الله عنه: «أصابت امرأة وأخطأ عمر». ثم رجع إلى المنبر فقال: «يا أيها الناس: كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب وطابت نفسه به فليفعل».

وقد ذكر الحافظ السيوطى أنه شهد في زمانه مجالس حافلة لرواية الحديث، تصدرتها سيدات حافظات فقيهات، يحدثن فيها أو يقرأ عليهن، ويجزن نفرًا من شيوخ العصر.

منهن: أم الضياء بنت عبد الرازق، وكمالية بنت محمد، وأمة الخالق بنت عبد اللطيف العقبى، وأمة العزيز بنت محمد الأنباسى، وفاطمة بنت على بن اليسير، وخديجة بنت أبى الحسن بن الملقن.

ومما جاء في أسانيده: «المنتقى من أحاديث النحاة»:

قرأت على الأصيلة نشوان بنت عبد الله الكنانى.

قرأت على الأصيلة الثقة، الخيرة الفاضلة الكاتبة، أم هانئ بنت أبى الحسن الهورينى. أخبرتنى الشيختان المسندتان، أم هانئ بنت أبى الحسن سماعًا عليها، وأم الفضل بنت محمد المقدسى بقراءتى عليها قالتا: أنبأتنا مريم بنت أحمد الأذرعى إجازة.

أخبرتنى هاجر بنت محمد المصرية، قراءة عليها.

إن المحنة التى ابتلى بها الشرق الإسلامى قد ضربت بين المرأة المسلمة القدوة، وبين ماضيها الأغر بسور أصم.

وهكذا فسخ الحجاب الذى أراد الرسلام به عزة المرأة وتمييزها عن الإماء، وصارت الحرية في دنيا المسلمات إلى نقيض معناها الأول الذى عرفه المجتمع المسلم في عهد الرسول ﷺ، وخلفائه الراشدين.

وباسم الإسلام حيل بين المرأة وبين العلم الشرعى الذى هو فريضة على كل مسلم ومسلمة.

وأباحوا بل سهلوا للمرأة أن تغشى الملاهى والمراقص، ومنحوها شهادت رسمية من الدولة بهذا المنكر، ولم يطيقوا أن يروها بزيها الإسلامى الكريم، وحالوا بينها وبين تربية النشء على الإسلام الصحيح.

ولسنا يائسين من غدنا مادام كتاب الإسلام الخالد «القرآن الكريم» فينا، لكننا أردت – كما قلت فى مطلع الحديث – أن أحرر فهمنا لموضع المرأة فى الإسلام وأن أنفى عنه ما شابه من خطأ انحرف عن الحق التاريخى، وأساء إلى حياة الجماعة الإسلامية.

«إن المرأة التى تهز المهد بيمينها تهز العالم بيسارها».

المرأة ركن أساسى، وعماد أصيل من عمد الأسرة المسلمة، وقد قيل: «لا أسرة لا أمة».

ونأمل ألا يطول علينا الأمد فى انتظار اليوم الذى نرى فيه المرأة المسلمة فى أسرتها الصالحة؛ تستعيد مكانها الأول، وتسترد زيها الإسلامى الأصيل للحرية التى عرفتها أمهاتنا فى أزهى عصور الإسلام – مرادفة للكرامة والوعى، ورمز ترفع وتصوّن واعتزاز.

الأسرة طبيعة وشريعة للأستاذ أحمد محمد جمال

أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

إن أول فكرة عن الأسرة يلهمها القرآن الكريم للرجل المسلم هى قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم: ٢١].

فالسكن والمودة والرحمة: هو ما ينشده كل من الرجل والمرأة فى رفيقه.. بدافع من الطبيعة الداعية الهادية التى فُطرا عليها، ولن يهدأ لأحدهما بال، ولن يستقر حال حتى يلتقى بالآخر،.. يسكن إليه ويَوَادُّه ويتراحم معه.

فالرجل والمرأة ملتقيان من بدء الخليقة، وإنما جاءت الأديان لتنظيم هذا الالتقاء ليكون شركة متعادلة متعاونة بينهما، فيها حقوق يجب أن تراعى، وواجبات يجب أن تؤدى، وثمرات يجب أن تصان.

ذلك بأن هذا الالتقاء الطبيعى بين الرجل والمرأة الذى جاءت الأديان فنظمته، وسمته

(زواجًا) هو نواة لشيء آخر نظمته الأديان أيضًا وسمته « الأسرة » والأسرة هى الأخرى نواة لشيء أكبر منها نظمته الأديان وأسمته « المجتمع » .

وتأكيداً لما قلنا آنفًا من أن الرجل والمرأة لن يهدأ لهما بال، ولن يستقر حال حتى يلتقيا، ويسكن كل منهما إلى رفيقه (صديقه)، وشريك حياته - نجد القرآن الكريم يشير مرة أخرى إلى هذه الفطرة الزوجية في قول الله عز وجل:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ...﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقد قيل فى الأسرة: إنها الأمة الصغيرة، وإنها مدرسة النوع الإنسانى....! التى تعلم فيها أفضل أخلاقه الاجتماعية، وهى الغيرة والعزة والوفاء ورعاية الحرمات، كما قيل إنه لا بقاء لما كسبه الإنسان من فضائل المروءة والإيثار إذا هجر الأسرة وأهمل روابطها وعطل مسئولياتها.

وهذا ما يحرص عليه الإسلام ويدعو إليه ويحث عليه، بينما أضاعته الحضارة الغربية باتجاهاتها المادية الآلية وأمسى الغربيون يشكون من حرمانهم منه.

وقد قيل أيضًا: ليس العالم كله إلا رجلاً وامرأة.. بيد كل منهما سلام العالم ووئامه؛ إذا ساد أسرتهما السلام والوئام.

وقيل كذلك: إن معظم مصائب العالم من اثنين:

١ - رجل أعزب.

٢ - وامرأة لا تعرف كيف تلزم بيتها.

فالأعزب لا يحمل إلا قلبًا فارغًا إلا من الغرام باللذائذ الزائلة التى تنصرم أيامه ولياليه فى طلبها واحدة تلو الأخرى، أما الاهتمامات الوطنية والقومية فلا يحس بها، ولا يتحمس لها؛ لأنه لم يتعود من قبل الاهتمام بمسئولية أسرة.

وأما المرأة الطوافة المتسكعة: ما يزال كل همها أن تغرى الرجال ويغرونها باللهو والانصراف عن مهمتها كزوجة، ورسالتها كأم.

وقيل فى الأسرة: إن الرجل إذا عاش فى حرمها المقدس، وغرامها المباح، ومسئولياتها العذبة كان شجاعًا فى كده وسعيه وإنتاجه وتحصيله، ومقدامًا فى الطموح إلى مزيد من التفوق والنجاح.. من أجل إسعاد زوجته وأولاده حيًا وبعد أن يموت. وصدق من قال: « لا أسرة لا أمة ».

هذه كلمة موجزة عن الزواج وعن الأسرة كما تريدها نواميس الكون.

أما الإسلام كشريعة حاكمة حكيمة، فحديثه عن الزواج والأسرة معجب مطرب لم يسبقه إليه، ولم يلحق به دين قديم، ولا حضارة حديثة..

وقبل أن نخوض فى تفاصيل (الأسرة) كما يشرعها الإسلام نوطئ بالغاية التى يرمى إليها من وراء إغرائه بالزواج من جهة، ومنعه أولياء النسوة الراغبات فى الزواج أن يعضلوهن من جهة ثانية.

إن الإسلام يرمى من وراء ذلك إلى استقرار الرجال والنساء فى أسر متعاطفة متحابة، وبالتالى إلى استقرار المجتمع كله بعيداً عن فوضى الغرائز وعبث الشهوات.

فالزواج - فى منهاج الإسلام - استقرار وسكن، وشعور بالمسئولية، وإرواء لغريزة الأمومة والأبوة، وللرغبات الجنسية فى ظل الحلال الطيب، ومن هنا جاءت حديثًا نشرات الإحصاء العالمية، وتقارير علماء الاجتماع والقانون مؤيدة وجهة النظر الإسلامية بإثباتها أن نسبة الإجرام بين المتزوجين أقل منها بكثير بين العزاب والمطلقين الجنسين.

ولشىء آخر يجب أن نوطئ به قبل أن نفصل منهاج الأسرة فى الإسلام هو أن الزواج فى الشرع الإسلامى ليس أمرًا دنيويًا فحسب، بل هو رباط مقدس بين الرجل والمرأة ينتفعان به فى حياتهما انتفاعًا خليطًا بين دين ودنيا.. فكما أنه استمتاع جنسى وارتياح نفسى، وتعاون فى البيت والسوق بين رجل وامرأة، فهو كذلك تعفف وتصون عن الشهوات الحرام، وهو كذلك سبب للتناسل الشرعى ومحفظة للأنساب بينهما وبين الآخرين.

ومن هنا رتب الإسلام الجزاء - ثوابًا وعقاباً - على إحسان المحسن، وإساءة المسيىء من كلا الزوجين.. حتى فيما يبدو شيئًا طبيعيًا وبسيطًا، فقد قال نبى الإسلام ﷺ: «فى بضع أحدكم صدقة» وحين تعجب الصحابة رضى الله عنهم من أن يثاب الرجل على شهوته التى يضعها فى زوجته؟ أذهب عنهم العجب فقال: «أرأيت إذا وضعها فى حرام يكون عليه وزر؟؟!».

ومن هنا كان تدخل الإسلام وتسلطه على شئون الأسرة كافة التى يأتى الزواج أول لبنة فى بنيانها تدخلاً وتسلطًا يرعيان جانب الحق والخير والعدل فى مصلحة كل طرف من أطراف «الأسرة» أيًا كان أبًا أو أمًا أو زوجًا أو ولداً.

قبل الزواج وبعده

وقبل الزواج: يريد الإسلام للرجل والمرأة حين يرغبان فى أن يرتبطا برباط الزوجية؛ أن

يكون هذا العقد المقدس بينهما صريحًا واضحًا معلومًا ملزمًا لكل طرف منهما بواجبه نحو الآخر، وأن يكون - من ناحية أخرى - بعيداً عن الظنون والفتن.. لا تحوم حوله شبهة فى صهر، ولا تهمه فى نسب، وألا تكون المرأة - من ناحية ثالثة - مجرد وسيلة للاستمتاع وحده.

لذلك يشترط الإسلام - لمصلحة الزواج - خلو المرأة من موانع عديدة مؤبدة ومؤقتة، فقد حرم أبداً الزوج بالأمهات وإن علون، وبالبنات مهما نزلن، وبالأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت، وحرم الجمع بين الأختين، ونكاح امرأة الأب، وامرأة الابن، وقد شمل التحريم القريبات بالرضاع مثل أولئك القريبات بالنسب على سواء.

وحرم الإسلام - مؤقتًا - نكاح الحامل حتى تضع، والمعتدة حتى تستبرئ.. والجمع بين الأختين حتى تطلق الزوجة أو تموت.

ويشترط الإسلام - لصحة الزواج - أن يعرض ولى المرأة زواجها على الرجل قولاً، وأن يقبلها الزوج قولاً كذلك، وأن يشهد على الزواج شاهدان، وأن يؤدى الرجل إلى المرأة مهراً عاجلاً أو آجلاً. جاء فى الحديث النبوى: «أعلنوا هذا الزواج واجعلوه فى المساجد» وذلك ليعلم الناس - عيانًا وسماعًا - أن فلانة زوجة لفلان، وليعلموا كذلك ما ينسل منهما من أولاد.

وينظر الإسلام بعين الاعتبار إلى ما قد يشترطه أحد الزوجين أو كلاهما من التكافؤ والتقارب فى النسب والعلم والدين والحرية والصلاح والمال والعمر، لكى يقوم الزواج بينهما على أساس من الرضا والصفاء، كما يعطى للمرأة حق اختيار الزوج. إن شاءت تولته بنفسها وإن اءت تركته لاوليائها. قال ﷺ: «الثيب أحق بنفسها من وليها، والبكر تستأمر وإذنها سكوتها»؛ على أن الخير كله ألا تنفرد المرأة برأيها فى هذا الاختيار.

لكن الإسلام - وهو يمنح المرأة حق التزوج بمن تريد، ويضيف إلى ذلك إجبار وليها على تزويجها به إذا ثبت انه عاضل لها بغير وجه مشروع - يلاحظ بعين الاعتبار أن المرأة تمتاز بعاطفة جامحة، ورأى مستعجل.

فإذا اشتطت المرأة - «أى تجاوزت وابتعدت عن الصواب» - عن ما يبذل لها من رأى حسن فى أمر زواجها، وخشى فسادها وكسادها - كان من حق وليها ان يجبرها على الزواج..

والإسلام – فى منهاجه الفاضل – يلاحظ : أن المرأة فى المفهوم العام للزواج تابعة للرجل، فيتيح لها فرصة الاشتراط على زوجها – فى عقد الزوجية – إذا شاءت : ألا ينقلها من بلدها وألا يتزوج عليها بأخرى، أو تكون عصمتها بيدها؛ تطلق منه متى أرادت، وغير ذلك من اشتراطات لا تتعارض ومقاصد الزواج، فإذا نكث الزوج عما عاهد عليه الزوجة كان لها الخيار بين أن تفسخ نكاحه منه أو تبقى معه.

بعد الزواج

أما بعد الزواج، فإن لكل من الزوجين تجاه الآخر حقوقًا وعليه واجبات. . فالمرأة مسئولة فى بيتها عن رعاية شئون زوجها وأولادها، وحفظ عرضها وعرضه، وتدبير أعمال المنزل بحكمة واقتصاد، وعليها أن تسمع وتطيع فى كل ما يبديه الزوج ما لم يكن معصية لله، وما لم يكن فى ذلك جور عليها، وعلى الرجل أن يتبادل معها النصح والرأى والمشورة فى كل ما ينتج عنه خير الأسرة وسلامها ودوامها.

وقد مُنح الرجل – فى هذه الشركة الزوجية التعاونية – درجة واحدة زيادة على ما أعطيته المرأة من حقوق وواجبات، وهى درجة القوامة والإدارة؛ فهو حامى حمى البيت، والراعى لشئونه، والمنفق على تدبيره، وقد أسلفنا فى حديثنا عن القوامة : أنه من البداهة التى لا تحتاج إلى بحث أو جدل أن لكل شركة مديرًا واحدًا مسئولاً عن تدبيرها وتطويرها . .

ومن هذه البداهة أيضًا أن الرجل أكثر تمرسًا بالعمل فى معترك الحياة، وأعظم مسئولية طبيعية وقانونية عن رعاية الأسرة وحمايتها . .ولا يعنى كون الرجل سيد الأسرة أن يتحكم ويتسلط فى شئونها، دون تشاور وتعاون مع شريكته فيها، ودون أن يلتزم مراعاة العدالة والمسامحة فى معاملتها ومعاشرتها . . كما لا يعنى ذلك أيضًا أن يكون الرجل وليًا على المرأة فى أموالها الخاصة، فهى حرة التصرف فيها بالبيع والشراء والهبة والوصية، ولها شخصيتها القانونية المستقلة الكاملة.

وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. ويقول أيضًا : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤].

وحسبنا دليلاً على أن الرجل – فى الإسلام – ملزم برعاية حقوق المرأة كاملة :

أن الإسلام تدخل فى أدق الأسرار الزوجية التى يترتب عليها وفاق الزوجين أو فراقهما،

كما أثبتت ذلك الدراسات الجنسية الحديثة..

فقد قال نبي الإسلام ﷺ: «إذا أتى أحدكم أهله، فلا يعجلها، فإنها تستحي أن تطلب منه ما يطلبه منها»، كما قال ﷺ في سلسلة ما قاله عن كرامة المرأة وحقوقها: «أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب البعير»؟!

مسئولية الأسرة إنفاقًا وأخلاقًا

إن المتأمل في نظام النفقات الإسلامي يجد أنه نظام رائع.. بما فيه من إلزام وأحكام.. يشعران بأن الإسلام يهدف من تشريعه إشعار سيد الأسرة بمسئوليته تجاه أعضاء أسرته، وإشعارهم - بالتالي - بأنهم في مأمن من الاحتياج والضياع؛ فقد أوجب الإسلام على الرجل الإنفاق على زوجته وأولاده وحفدته، وعلى أبويه وأجداده منهما، وعلى إخوته، على تفصيل في كتب النفقة لا يتسع مجالنا له - من حيث الاحتياج منهم، ومن حيث القدرة فيه، ماعدا الزوجة؛ فإنفاق الزوج عليها واجب لا محيص عنه ولو كان فقيرًا أو مريضًا أو صغيرًا أو لا دراية له فيها، ولو كانت هي غنية أو غير مسلمة.

والإنفاق على الزوجة - باعتبارها العماد الثاني في بنيان الأسرة - يعني الغذاء والكساء، والمأوى، ثم الخادم في حالة عجز المرأة عن خدمة أولادها؛ إذا كان الزوج قادراً على استئجاره.. ومن حق الزوجة أن تشترط سكناً خاصاً مستقلا عن أهل زوجها أو عن زوجاته الأخريات.

أما الإنفاق على الأولاد - بمعنى إطعامهم وإيوائهم وتعليمهم حتى يكتسبوا - فهو أمر مقرر طبعاً ومعين شرعاً.. شأنه في طبيعته وشرعيته شأن الإنفاق على الآباء والأمهات.

والوصايا في القرآن الكريم والحديث - علاوة على ذلك - كثيرة، تفجر أقسى القلوب عطفاً وإحساناً على الوالدين.

إن الإسلام يريد وئام الأسرة وامتدادها.. لذلك أكد واجب البر بالآباء والأمهات على أولادهم تأكيداً جعله قرين الإيمان بالله وتوحيد عبادته سبحانه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣)﴾ [الإسراء: ٢٣].

وزيادة فى تقوية رباط الأسرة يعتبر الإسلام الاجداد والجدات بمنزلة الآباء والامهات من حيث الرعاية والإنفاق.. وحتى إذا افتقد «المحتاج من ينفق عليه من أب وإن علا أو ابن وإن نزل، فإن إخوته وأعمامه وأبناءهم مطالبون. فى التشريع الإسلامى للأسرة - بأن يسدوا خلته، ويصونوا كرامته، ويكفوا وجهه عن مذلة السؤال.

ولا يفوتنا - هنا - أن الامم غير الإسلامية، لافتقارها إلى تشريع عقلى وجدنى كالتشريع الإسلامى للأسرة، تجعل فى عامها يومًا، تسميه «يوم الأم» لتذكر الابناء من ذكور وإناث بفضل أمهاتهم عليهم، وتستهديهم لهن الهدايا والعطيات دون الآباء. فإن فضلهن عند هذه الامم غير منكر.. أما الإسلام فإنه - بتشريعيه العقلى الوجدانى معًا - يشعر المسلم كل يوم أنه مدعو إلى بر أمه وأبيه ويذكره بمتاعبها فى حمله ورضاعه وتربيته والإنفاق عليه:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤].

أما التوجيه النبوى الكريم فيقول ﷺ: «هما جنتك ونارك» رواه ابن ماجه - والحديث سببه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: ما حق الوالدين على ولدهما، فقال: «هما جنتك ونارك».

ومما لا جدال فيه أن الامومة بالنسبة للمرأة؛ غايتها القصوى، خلافًا للرجل.. فالابوة بالنسبة إليه ليست إلا وسلية إلى غاية أخرى، هى العمل والكدح فى سبيل حياة أفضل للأسرة، وبالتالى للمجتمع كله.

والإسلام قد سبق علم الاجتماع الحديث فيما قرره من تقسيم العمل بين الذكر والأنثى فى نظريته المشهورة: «الناس يتضامنون بتقسيم المسئوليات بينهم.. على اختلاف مواهبهم الطبيعية، فيقوم كل منهم بخدمة المجتمع حسب مواهبه الفطرية».

فقد جعل الإسلام تربية الأولاد الأولية، وهى الرضاعة والحضانة، من اختصاص المرأة، ومن حقها الذى لا تغلب عليه، يقول تبارك وتعالى:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقد جاء أسلوب القرآن الكريم فى هذا التوجيه إخباريًا، وهو فى حقيقة الامر إنشائى باعتباره حقًا طبيعيًا للولد على أمه، وحقًا طبيعيًا أيضًا للأم على الزوج لئلا يحرمها إياه فى حالة الطلاق. لقد أعطى الإسلام الأم حق حضانة أولادها رضاعًا وتربية حتى فى حالة

افتراقها عن الزوج – إلى أن يبلغوا سنًا يستطيعون معها خدمة أنفسهم بلا معين، وألزم الرجل بالإنفاق عليها وعليهم، وعندما تتزوج بآخر جعل حضانتهم لأمها ثم لأم الأب، على ترتيب مفصل فى كتب الفقه الإسلامى، وقد راعى التشريع – هنا – وجوب تنشئة الطفل فى أطواره الأولى فى أحضان نسائية عاطفة راحمة قريبة منه، لا غريبة عنه... تغذية وترضية منه لشعور الأمومة عند المرأة من جهة، ومن جهة أخرى تربية وتنمية لقصور الطفولة وعجزها – فى محضنها الطبيعى؛ إذ إن مرحلة الطفولة لا يملأ فراغها بالرحمة والعطف والحنان والتوجيه شخص آخر عند الأم.

ولا حاجة بنا هنا إلى بسط القول عن الخطأ الذى تجترحه الأسر غير الإسلامية، وسرت عداوة إلى الأسر الإسلامية – مع الأسف الشديد – وهو انصراف الأمهات طوعًا إلى إرضاع أولادهن صناعيًا بغير ألبانهن الطبيعية، أو تسليمهم إلى المحاضن العائمة والمربيات الأجنبيات مما أوهن علائق الأسرة، وأضعف ارتباط الأبناء بأمهاتهم وآبائهم، كما اعترف بذلك علماء التربية والباحثون فى شئون النساء والأطفال.

على أن التشريع الإسلامى الذى اختص المرأة بتربية الأولاد الأولية –لحكمة بالغة– اختص الآباء بتنشئتهم بعد بلوغهم سن التمييز – لحكمة بالغة أيضًا: فهم –كرجال – أقدر على الحزم فى رعايتهم والعناية بمستقبلهم، وفتح عيونهم على مطالب الحياة من علم وعمل واكتساب، وفى التوجيه التربوى النبوى الكريم للآباء:

«الزموا أولادكم، وأحسنوا أدبهم» عن اللباب شرح الشهاب للقضائى.

«لعن الله من استعق ولده».. أى حمله بإهماله على عقوقه.

من آداب الأسرة الصالحة

وتأكيدًا لأهمية «الأسرة» وحفاظًا لكيانها من أن يهدم: نثبت هن بعض الآداب التى أدب بها الإسلام كلاً من الرجل والمرأة فى نطاق الزوجية، ليبقى ظل الأسرة بارد كريمًا عليهما معًا، وليبقى حماها مصونًا وبنيانها قويًا، وليرى الأبناء القدوة الصالحة التى تغرس فيهم أسمى العادات، وأنبل المشاعر، وأوثق الروابط، فنقول:

١ – على الزوجين – فى الأدب الإسلامى للأسرة – أن يتشاورا ويتراضيا فى أمور أطفالهما رضاعة وحضانة وتأديبًا.

٢ – وعلى الزوج ألا يتيح الفرص لامرأته لمجالسة غير المحارم من أهلها وأهله، منعًا للافتتان

الذى وقعت فيه اليوم أسر كثيرة بسبب مصادقة بعضها بعضًا، وتكشُّف نساء هذه الأسر لرجال تلك، وتبادل الأسمار، وأحاديث اللهو بينهم وبينهن.. فكانت النتيجة: حب امرأة لغير زوجها وإعجاب رجل بغير امرأته، ثم إغراء بالطلاق، ووعد بالزواج.. على أنقاض بيوت تنهدم، وأطفال يشردون..

٣ - بل ذهب الإسلام أبعد من ذلك فوضع سياجًا بين الزوجين - فى فترات الاختلاء ونزع الرداء - وبين الذين يعيشون معهما تحت سقف واحد؛ من أولاد وخدم وأتباع؛ لئلا يطلعوا على ما بينهما من عورات وأسرار قد تغرى بالفتنة والعبث بين خادم ومخدومته أو بين مخدوم وخادمته، لذلك قال القرآن الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ﴾

[النور: ٥٨].

٤ - ولما كانت المرأة بطبيعتها المغرمة بالإغراء، عاملة جاهدة فى التطيب والتزين للرجل؛ فقد أوصى الأدب الإسلامى للأسرة أن يتطيب الرجل ويتزين كما تفعل المرأة له. قال ابن عباس رضى الله عنهما: «إنى أحب أن أتزين لامرأتى كما تتزين لى».

وذلك أن الإسلام حريص على أن يقتصر إغراء الزوجة وجاذبيتها على زوجها، وأن يعاملها هو نفس المعاملة، ليمتنع تطلع كل منهما إلى غير رفيقه.. ومن هنا أنكر الإسلام على المرأة أن تتطيب لغير زوجها، وقد سمى حديث نبوى شريف المرأة التى تخرج إلى الناس ليشموا رائحتها: «زانية».

ولنفس الحكمة البالغة التى أرادها الإسلام من وراء ذلك الأدب أوصى الرجل إذا عاد من سفر ألا يطرق أهله ليلاً؛ حتى يلقاها وهى عالمة به متهيئة له ممشوطة الشعر نظيفة الثغر. جاء ذلك فى حديث رواه الإمام أحمد.

٥ - وقريب من هذا الأدب الذى شرعه الإسلام للأسرة ليقوى رباطها، ويبقى ودادها: أن الرجل إذا رأى من امرأة أخرى لا تحل له ما يعجبه، ويكاد يفتتن بها.. عليه أن يفزع من فوره إلى أهله ليلتمس عندها ما تمناه من تلك، وإنه لواجد نفس المبتغى.. وصدق نبى الإسلام ﷺ: «فإن معها مثل الذى معها»، وفى رواية أخرى: «فإن البضع وحد».

وبهذا الأدب الإسلامى تحتمى الأسر الإسلامية من الخيانات الزوجية التى تهدم البيوت،

وتلوث الاعراض، وتشرد الابناء..

٦ - ومن آداب الأسرة المسلمة ان يقول الرجل لامرأته إذا فعلت خيراً: احسنت، كما كان النبي ﷺ يقول لزوجته: «أحسنت يا عائشة».. وأن يتبادل الزوجان التعاون على البر والتقوى.

ففي الحديث الشريف: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلي وأيقظ امرأته فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وايقظت زوجها فإن ابى الماء في وجهه نضحت. (وليس الضرب بالعصا).

٧ - ولكي تتوثق الاواصر بين الاسر المتزاوجة أوصى الإسلام بصلة الارحام.. بمعنى التزاور، والتعاطف والبر؛ يقوم به الزوج تجاه أهله وأهل زوجته، وتقوم الزوجة به حيال أهلها وأهل زوجها، وما أوفر الثمرت التي تأتي بها صلة الرحم، فإنها كما جاء في الحديث الشريف - «محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر».

٨ - ومن آداب الأسرة امسلمة القدوة: الا تأذن المرأة لأحد في بيت زوجها وهو كاره، والا تتحدث عند الناس، ولا يتحدث الرجل كذلك؛ عما يفضى كل منهما إلى رفيقه من عورات.

٩ - وحسبنا ختامًا - لآداب الزوجين - أن نذكر قول النبي ﷺ:

«خياركم خياركم لأهله»، وقوله: «من افسد امرأة على زوجها فليس منا»؛ لنعلم مدى حرص الإسلام على حماية الأسرة مما يتهددها من أخطار - داخلها وخارجها على سواء.

حقوق الآباء على أبنائهم وحقــوق الأبنــاء على آبائهــم

في الحديث الشريف: «أن رجلاً جاء يستأذن الرسول ﷺ في الجهاد، فسأله: «أحى والداك؟» قال: نعم. فقال ﷺ: «ففيهما جاهد».

وفي رواية أخرى: «ارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما» وقال ﷺ لابن لآخر: «ارجع إليهما، فإن اذناك فجاهد وإلا فبرهما». وقال لثالث: «هل لك أم»؟ قال: نعم، قال ﷺ: «فالزمها، فإن الجنة تحت رجلها».

وقال لفتاة - أخبرته بوفاة أمها وعليها صوم وحج-: «صومى عنها وحجى».

وأوصى ﷺ الاولاد بالاستغفار للوالدين بعد موتهم، وإنفاذ عهدهم وصلة رحمهم التى

لا توصل إلا بهم، وبإكرام أصدقائهم.

وفى مقابل ذلك أمر ﷺ الوالدين بإحسان أدب أولادهم، والعطف عليهم، وخاصة البنات، فقد وعد على تربيتهن وتعليمهن بالجنة، وجعل الولد الصالح عملاً متصلاً وذكرى طيبة لوالديه، وعزّى القلوب الثكلى بموت صغارها فقال: «إن الطفل يجرى بوالديه إلى الجنة» وقال أيضًا: «من ابتلى من هذه البنات بشيء، فأحسن تربيتهن كن له سترًا من النار»، وقال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو إليه».

وقد اتفقت فيما كتبت فى كتابى «الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية» مع ما سبق من آراء المفكرين والعلماء

وهناك بعض المعانى أضيفها زيادة فى الوضوح، وإتمامًا للفائدة، فأقول والله المستعان، ومنه التوفيق:

أسس تكوين الأسرة القرآنية

ليس هناك فى نظام المجتمع الإسلامى غير مجال واحد - يملك فيه الناس أن يلبوا دوافعهم الفطرية - هو الزواج العلنى الذى تتخصص فيه امرأة بعينها لرجل بعينه.

وهى الطريقة التى أوجب الله أن يلتقى بها أفراد الجنسين لتكوين البيوت، وإقامة مؤسسات الأسرة الصالحة القدوة، والمتاع بهذا الالتقاء فى نظافة وطهر وجد يليق بهذا الأمر العظيم، صيانة للمجتمع من كل تلوث أو اختلاط فى الأنساب، ينشأ من «شيوعية» الاتصال الجنسى، أو من انتشار الفاحشة.

والزواج الذى اختاره الإسلام وحث عليه: هو أن يخطب الرجل من الرجل ابنته أو أخته؛ فيعطيها صداقًا، ثم يتزوجها بإيجاب وقبول، على مشهد من الناس.

وهذا هو النكاح الذى كان منه أصول النبى ﷺ من أبويه إلى آدم عليه السلام ويقول فيه: «خلقت من نكاح، ولم أخلق من سفاح، ومن لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى، لم يصبنى من سفاح الجاهلية شيء».

فيما عدا ذلك من الأنكحة، هو خارج عن الوضع الفطرى الصحيح فى علاقة الرجل بالمرأة، ويعد زنا وسفاحًا فى نظر الإسلام.

والنكاح الذى شرعه الإسلام يجب أن تتوفر فيه شروط هى:

١ - العلانية والإشهار: ويستحسن أن يدعى إليه وجوه القوم، ويستحب من أجل ذلك قبول الدعوة لحضور وليمة العرس.

٢ - استئذان ولى أمر المرأة؛ لحمايتها من أخطار التغرير، والاندفاع وراء رغبة جامحة ولتكريمها وإعزازها، ولكى تتحقق صلات النسب والمصاهرة كهدف من أهداف الزواج.

٣ - وإتمام القبول والإيجاب منهما عن رضا واختيار بينهما لا يكره أحدهما أو كلاهما، ولا يقبل من أحدهما أو كليهما رأى لم تتوفر له ظروف الحرية الشخصية العادية.

٤ - وإصداق المرأة صداقًا؛ لتشعر بأنها مطلوبة من الرجل، وليست طالبة له.. صونًا لكرامتها، وحيائها الطبيعي، وهو أغلى ما تملكه الأنثى.

٥ - استصحاب نية التأبيد والاستمرار لا التوقيت، لكى لا يفسد عقد الزواج، ولا تدخل فيه أى شبهة من شبهات الزواج المؤقت أو المتعة أو ما يقال عنه الزواج المنقطع الذى حرمه الإسلام حرصًا منه على استقرار الأسرة وحفظًا لكرامة المرأة وطهرتها.

ومن واقع الحياة فى عصر النبوة نقف أمام حقائق نقية وأوضاع نابعة من فهم دقيق وعمل سليم وإيمان لا تشوبه شائبة.

جاء فى تفسير ابن كثير للآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦)﴾ [الأحزاب:٣٦] عدة أوجه نختار منها:

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ثابت البنانى عن أنس رضى الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ على جلبيت امرأة من الأنصار إلى أبيها فقال حتى استأمر أمها، فقال النبى ﷺ: «نعم إذا» قال فانطلق الرجل إلى امرأته فذكر ذلك لها فقالت: إذن ما وجد رسول الله ﷺ إلا جليبيبًا، وقد منعناها من فلان وفلان قال والجارية تسمع فى سترها، قال فانطلق الرجل يريد أن يخبر رسول الله ﷺ بذلك. فقالت الجارية: أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره، إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه قال فكأنها جلت عن أبويها وقالا: صدقت، فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: إن كنت قد رضيته فقد رضيناه، قال ﷺ: «فإنى قد رضيته»، قال فزوجها ثم فزع أهل المدينة للحرب، فركب جليبيب واشترك

في المعركة فوجدوه قد قتل وحوله ناس من المشركين قد قتلهم.

وفي رواية أخرى أن جليبيبا كان من الموالي ويعرفه معظم الأنصار. وكان من عادتهم إذا كان لأحد أيم (يعني امرأة لا زوج لها) لم يزوجها حتى يعلم هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا. فقال النبي ﷺ لرجل من الأنصار: «زوجني ابنتك» قال نعم وكرامة يارسول الله ونعمة عين، فقال ﷺ: «إني لست أريدها لنفسي»، قال: فلمن يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لجليبيب» فقال يارسول الله أشاور أمها، فأتى أمها فقال رسول الله ﷺ يخطب ابنتك قالت نعم ونعمة عين فقال إنه ليس يخطبها لنفسه إنما يخطبها لجليبيب فقالت: أجليبيب، ابنة أجليبيب ابنة؟ ألا لعمر الله لا نزوجه، فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها، قالت الجارية: من خطبني إليكم، فأخبرتها أمها قالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره، ادفعوني إليه فإنه لن يضيعني، فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال شأنك بها فزوجها جليبيبًا. قال فخرج رسول الله ﷺ في غزوة له فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه رضي الله عنهم: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا نفقد فلانًا ونفقد فلانًا. قال ﷺ: «انظروا هل تفقدون من أحد؟» قالوا: لا. فقال ﷺ: «لكني أفقد جليبيبًا»، قال ﷺ: «فاطلبوه في القتلى» فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فقالوا يا رسول الله ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فأتاه رسول الله ﷺ فقام عليه فقال: «قتل سبعة وقتلاه هذا مني وأنا منه» مرتين أو ثلاثًا ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحفر له ماله سرير إلا ساعد النبي ﷺ ثم وضعه في قبره، ولم يذكر أنه غسله رضي الله ﷺ. قال ثابت رضي الله عنه فما كان في الأنصار أيم (أرملة جليبيب) أنفق منها: أي أنها كانت كثيرة الصدقات.

وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتًا: هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ فقال: قال: دعا لها رسول الله ﷺ: «اللهم صب عليها صبًا، ولا تجعل عيشها كدًا». وكذا كان فما كان في الأنصار أيم أنفق منها. وهكذا أورده الإمام أحمد بطوله، وأخرج منه مسلم والنسائي في الفضائل قصة قتله. وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب أن الجارية لما قالت في خدرها أتردون على رسول الله ﷺ أمره نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا ولا رأي ولا قول كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]،

وفى الحديث: «والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لم جئت به».

وللزواج مدلولات عديدة وذات أثر عميق نجتزئ منها:

إن الزوجين إذ يجتمعان على إيحاء عميق بالتلازم، والرغبة المتبادلة فى حب وسعادة، والتعاون المشترك الذى لا يلبث - على الظروف المختلفة وإنجاب الأولاد - أن يؤازره مزيد من الود والإيثار والتراحم...

ومن مدلولات الزواج أن الزوجين إذ يجتمعان على هذا الإيحاء العميق، وتلك المشاعر الودودة قد انحلت من كل منهما عقدة من أنانيته، فاتسع بها مجال عاطفته تبعًا لذلك، وتراجع نطاقها عن حدوده الضيقة إلى ما وراءها - حتى شمل آخرين سواه: هم أبناؤه، فهو يعاطفهم وهم يعاطفونه على نحو لم يعرفه من قبل، إذ كانت عاطفته دائرة مغلقة عليه وحده. وتلك خطوة كبيرة تعالج أنانيته، وتدعم وجوده الأدبى فى ميدان الصلاحية الاجتماعية.

فحقيقة الزواج أنه اقتران إنسان بإنسانة؛ اقتران جسديهما وحقيقتيهما الإنسانية.

واقتران الجسدين ثماره الأولاد، واستمرار بقاء النوع الإنسانى، واقتران الحقيقتين ثماره أن تربو بذور الخصائص الإنسانية الكامنة فى نفس كل منهما، وتتفتح فى الجوانح بالسكينة والألفة ومشاعر التواد والرحمة والتواصل، وهو المعنى الذى يدخل فى مدلول قوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

واجب الآباء نحو الأبناء

اهتم الإسلام كثيرًا بالأبناء، فهم ثمرة الزوجية وأمل الأمة، فوجه الآباء إلى إحسان تربيتهم، والعناية بهم، وحضهم على ذلك فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم: ٦].

وقال تعالى فى سورة لقمان: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٣ – ١٩].

فهذه الوصية الكاملة المخلصة من أب لابنه جامعة مانعة:

١ – ففيها فى المقام الأول بيان صحة العقيدة.

٢ – ثم يبين الله تعالى فى قوله جل شانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [العنكبوت: ٨] مقدار مايتحمله الأبوين فى سبيل أبنائهما وخص الام وبين مقدار ما تعانيه فى سبيل ابنائها.

٣ – الطاعة الكاملة بلا تردد، او تذمر إلا إذا كان فى الأمر معصية لله تعالى. «فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق».

■ – التوجيه إلى مراقبة الله وخشيته والخوف منه.

■ – التوجيه إلى القيام بالعبادات وفى مقدمتها الصلاة.

٦ – الإرشاد إلى فعل الخير، وإسداء النصح للغير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والصبر على ما يلاقيه فى سبيل ذلك الخير.

٧ – الإرشاد إلى الخلق الحسن فى معاملة الناس، وعدم التكبر على أحد.

٨ – عدم رفع الصوت، والتصرف السليم فى كل الأمور.

وقد قال ﷺ: «ما نحل والد ولده من نحلة أفضل من أدب حسن». والنحلة هى العطية أو الهدية.

ولما كان الأولاد هم فى الآخرة شفعاء لآبائهم وأمهاتهم إن ماتوا صغاراً، وحسناتهم يوضع مثلها فى ميزان الآباء والأمهات إن كبروا صالحين، وعاشوا مؤمنين، ولهم شفاعتهم إن ماتوا شهداء مقربين إلى رب العالمين.

فقد قرر الإسلام لهم حقوقًا: منها الواجب، ومنها المستحب وهى:

١ – النفقة والتسوية بينهم فى المعاملة، والتربية والتعليم.

الحق الأول: النفقة: نفقة الأولاد ذكوراً وإناثًا واجبة على الوالد حتى يشتد عود الذكر، ويستطيع الكسب ليعول نفسه، وحتى تتزوج الأنثى ، والأب الذى يقصر فى الإنفاق على أولاده آثم؛ لأنه يعرضهم إلى الضياع والتشرد، لقول رسول الله ﷺ : «كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت»، وقوله ﷺ : «إن الله سائل كل راع عما استرعاه، حفظ أم ضيع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»، رواه ابن حبان فى صحيحه. وهذه الأحاديث يجمعها قوله ﷺ : «كلكم راع ومسئول عن رعيته» متفق عليه.

وقد جعل الإسلام نفقة الرجل على أسرته وأهل بيته مقدمة على أى نوع آخر من أنواع النفقة فقال ﷺ : «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول». رواه الطبرانى، وهو فى الصحيحين بنحوه.

وحرصًا من الإسلام على المرأة وعفتها وحيائها ورقتها، فقد جعل ثواب الآباء فى النفقة على الإناث عظيمًا، فقال ﷺ : «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو وضم أصابعه». وفى رواية أخرى قال: «من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه: السبابة والتى تليها». رواه الترمذى.

والمراد من الحديث أن من قام برعاية بنتين أو أختين، فأنفق عليهما وأحسن أدبهما جعله الله يوم القيامة فى منزلة الجار الملاصق للنبى ﷺ فى الجنة.

الحق الثانى: التسوية فى المعاملة: إن إيثار بعض الأبناء على البعض الآخر يعود على الأولاد بأسوأ العواقب؛ لما يولد فى نفوسهم من روح الحقد والحسد، وما ينزعه من عواطف الحب والمودة فيما بينهم، وفيما بينهم وبين الآباء. هذا فوق ما تسببه التفرقة فى المعاملة من الإصابة بالعقد والأمراض النفسية التى تعرضهم للانحراف.

إن إيثار بعض الأبناء على البعض لاسيما إيثار البنين على البنات كما يحدث عادة فى مجتمعاتنا عندما حادت وبعدت عن أخلاق الإسلام وهديه، إلى أخلاق الجاهلية؛ من أقبح الفعال، وأرذل الخصال التى حاربها الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : «اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم».

والأصل فى هذا الأمر ما رواه النعمان بن بشير: قال: إن أباه أتى به رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله: إنى نحلت ابنى هذا غلامًا كان لى، فقال رسول الله ﷺ : «أكل ولدك نحلته مثل هذا؟» فقال: لا. فقال رسول الله ﷺ : «فارجعه».

غلام: المراد به عبد مملوك، نحله أبوه: أى أعطاه إياه هبة وهدية دون إخوته.

وجاء في رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال له: «افعلت هذا بولدك كلهم؟» قال: لا. قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم»، قال فرجع ابى فرد تلك الصدقة.

وفى رواية قال: «فلا تشهدنى إذاً، فإنى لا أشهد على جور».

وكثيراً ما يحدث التمزق في الأسرة والتناحر والتقاتل بأن يقتل احد الإخوة اخاه أو اخته أو أحد والديه بسبب وقوع الأبوين أو أحدهما فى خطأ التفضيل، سواء التفضيل فى العطف أو التفضيل فى العطاء المادى، وقصة إخوة يوسف مع أخيهم سيدنا يوسف عليه السلام ومع أبيهم معلومة، وهم الذين تربوا فى بيت رسول من سلالة سالأنبياء والمرسلين.

وفى واقع حياتنا اليوم من الوقائع ما يدعم ما سبق، وهذه الواقعة نشرتها الصحف القومية بعد التحقيق الرسمى للنيابة وهى كما وردت بنصها:

نشرت الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ الثلاثاء ٥ من مارس ١٩٩٦ ما يلى:

اعترافات مثيرة لقاتل شقيقيه فى طوخ

الأب أصيب بالشلل بعد الحادث والأم نقلت إلى المستشفى فى غيبوبة

أمر أشرف مرسى رئيس نيابة طوخ بحبس طالب الثانوى المتهم بقتل شقيقيه بعد اعترافه تفصيليًا بارتكاب الجريمة، وقام بتمثيلها أمام محمد الغمرى وسعد سرحان وكيلى النيابة، داخل شقة والديه بمدينة قها، كما أمرت النيابة بإشراف المستشار نبيل عبد الحق المحامى العام لنيابات شمال بنها باستعجال تقرير الطبيب الشرعى النهائى، والمعمل الجنائى، وعرض المتهم على الطب الشرعى لفحصه والتأكد من سلامة قواه العقلية وما إذا كان يتعاطى المواد المخدرة من عدمه. ومن جانب آخر تركت المأساة آثارها على هذه الأسرة المنكوبة، حيث أصيب الأب بشلل كامل ليلة أمس الأول، بينما أصيبت الأم بغيبوبة سكر، وتم نقلهما إلى المستشفى، وأدلى المتهم باعترافات مثيرة عن حياته وطريقة تفكيره فى الجريمة فقال:

اسمى: محمد عبد العزيز الشيخ. طالب بالصف الثانى الثانوى، عمرى ١٦ عامًا وبضعة شهور وقال: أنا أحب أشقائى ووالدى، والظروف السيئة هى التى وضعتنى فى ذلك الموقف منذ طفولتى، كان أبى يعاقبنى دائمًا، وكانت أمى تميز أختى «مى» لأنها كانت تساعدها فى أعمال المنزل، وأنا ولد كما يقولون «فاشل» «صايع»، ودائمًا يقارنوننى بشقيقتى «مى»

المرتبة الناجحة، حتى ونحن فى السعودية فضلوا «مى» على. كانت والدتى فى إعارة ٤ سنوات، وسافرنا معها، وكان أبى مرافقًا لنا بدون عمل، حتى تعب هناك، وطلب من والدتى إنهاء الإعارة حتى تتمكن أختى من الحصول على الثانوية العامة من السعودية والالتحاق بالجامعة فى مصر فوافقت، وعندما جاء دورى وأصبحت أنا فى الثانوية العامة فى العام الرابع من الإعارة رفض أبى وأمى أن يصبروا حتى أحصل أنا كذلك على الثانوية وأضاعا من عمرى عامًا حيث حضرت إلى القاهرة وأعدت سنة ثانية ثانوى، وكانا دائمًا يشيدون بنجاح «مى» وثقتهما فيها كانت بلا حدود، وأى حاجة تطلبها تجاب ودون تردد، حتى مفتاح الشقة، كان معها، وعندما طلبت من والدى الحصول على مفتاح مثلها لأننى أحيانًا أرجع من المدرسة مبكرًا فى غيابهم واضطر للانتظار فى الشارع بملابسى لحين حضورهم لفتح باب الشقة رفض، وكان زملائى يشاهدوننى وأنا منتظر على السلم أو فى الشارع، ويعايروننى بأنى عيل وطفل صغير بدليل عدم إعطاء أسرتى المفتاح لى مثل شقيقتى.

وعن يوم الحادث قال:

يومها ماما وبابا أيقظانى للذهاب إلى المدرسة ونبها على ألا أيقظ «مى» لأنه لا يوجد لديها محاضرات، وستجلس مع أخى الصغير «عمر» الذى اعتاد الذهاب إلى الحضانة فغافلتهما و«مى» نائمة، وسرقت مفتاح الشقة من حقيبة يدها، وذهبت إلى المدرسة، وهناك أخرجت لزملائى المفتاح مدعيًا أن والدى أعطانى مفتاحًا مثل أختى إلا أنهم لم يصدقونى وكذبونى، وقالوا إن هذا ليس مفتاح الشقة، فقلت لهم أنا سوف أؤكد لكم أنه مفتاح الشقة وذلك بذهابى لتغيير ملابسى بالرغم من أن الشقة لا يوجد بها أحد، وبالفعل بعد طابور المدرسة هربت وتوجهت إلى الشقة، وفتحت الباب بهدوء؛ فوجدت شقيقى عمر يجلس على كرسى السفرة يشاهد التليفزيون، وبمجرد أن رآنى أسرع نحوى مهللاً، فخشيت أن يوقظ «مى» وترانى وتسألنى عن حضورى مبكرًا من المدرسة، وتعرف أننى سرقت المفتاح وتقول لبابا ويضربنى فوضعت يدى فوق فمه حتى لا تستيقظ «مى»، ولم يكن فى نيتى ارتكاب أى جريمة، فأنا أحب أخى عمر جداً إلا أننى فوجئت بارتخاء جسده الصغير بين يدى، وتوقعت وفاته، وقبل أن تدمع عينى لما حدث فوجئت بخروج «مى» من الحمام لتجد عمر على الأرض قاطع النفس، وقبل أن تنتهى من استفسارها أسرعت إلى المطبخ، وعزمت على قتلها وأخذت سكينة وهددتها بها وطلبت منها دخول غرفتها دون كلام أو

استغاثة، وحاولت انتزاع السكين فجرحتها عدة جروح فى وجهها فخافت منى، ودخلت الغرفة، وجلست على السرير تستعطفنى وتتوسل إلى، فطلبت منها أن أقيدها بالحبل فوافقت، وأخذت حبلاً كان موجوداً بغرفة نومها وأعطتنى يدها لتوثيقها أملاً فى تركها موثقة. إلا أننى أسرعت إلى غرفة نوم أبى وأحضرت من الدولاب كوفية أبى، وقمت بتكميمها حتى لا تصرخ، ثم انهلت عليها طعناً بالسكين فى رقبتها حتى غرقت فى الدماء التى كانت تندفع منها بشدة، ولم أتركها إلا بعد أن تأكدت من وفاتها، وخرجت أبكى على شقيقى الصغير الذى لا ذنب له، إلا أننى سرعان ما فكرت فى ذبحه بالسكين حتى يتصور الجميع أن شخصا غريبا هو مرتكب الحادث، وأمسكت بنفس السكين وذبحته من رقبته حتى انكسر نصل السكين فيها وتركته، وقبل الخروج من الشقة غسلت يدى، وغيرت ملابسى، ووضعت الملابس التى كنت ارتديتها والتى كانت ملوثة بالدماء داخل حقيبة بلاستك ثم فى حقيبة سفر بها ملابس الصيف، وخرجت متسللا دون أن يرانى أحد، وعندما قابلنى زملائى بالمدرسة وسألونى عن الجروح الموجودة فى وجهى أخبرتهم أن أحد أصدقائى كان يمزح معى ولم أحس بما ارتكبته إلا أثناء لعبى مع زملائى فى الفسحة وبدأت أبكى بشدة، وأخبرت زملائى بأن أعصابى تعبانة من السهر من أجل المذاكرة.

وعن هواياته قال الطالب المتهم:

أمتلك مجموعة قصص بوليسية لاحصر لها كانت أمى تشتريها لى دائما أملا فى أن أصبح ضابط شرطة، كما أننى أعشق أفلام الرعب، والأفلام البوليسية ولدى أفلام من الخارج لايوجد مثلها فى مصر أحضرتها معى من السعودية.

كان من العجيب أن الصبى المتهم متماسك، ويحكى باسترسال شديد كما لو كان قد أصابته حالة من اللامبالاة لما فعله من جريمة شنعاء فى حق أشقائه ووالديه وحق نفسه.

وفى تحليل لجريمة الطالب قال الدكتور يسرى عبد المحسن أستاذ العلاج النفسى: إن هذا الصبى المتهم فى أخطر مرحلة من عمره، وهى مرحلة المراهقة، وهو يعانى من تراكمات قديمة مترسبة فى نفسه أدت إلى الإحساس البين بالظلم والتفرقة فى المعاملة، وقسوة الوالدين، وخاصة الأب بصورة جعلته يفتقد الحنان والحب، وقد تبلورت شخصية هذا الصبى على الحرمان والعنف والخوف الذى ولّد فيه الشعور بالانتقام، وفقد الثقة فى نفسه وفي من حوله، وجعلت مشاعره وأحاسيسه فى حالة تبلد شديد، وفقد بذلك التواصل العاطفى مع أفراد أسرته، وامتد ليصل إلى زملائه بالمدرسة الذين اعتادوا إهانته، والتشكيك

في رجولته. واعتبر بذلك أن إخوته أعداء له، خاصة شقيقته الكبرى التي تنافسه، وكسبت حب واحترام والدته ووالده على حسابه، وأضاف الطبيب: إننا لانستطيع أن نقول إنه مجرم بطبيعته، وإنما ارتكب هذه الجريمة منذ البداية في غياب عقلي، وعدم وعي وتميز وإدراك تحت ضغوط نفسية صادرة من والديه وأشقائه وزملائه بالمدرسة، وأكمل الجريمة بصورة تلقائية حتى النهاية.

أما المستشار محمود خليل رئيس محكمة الجنايات فيقول: إن هذه الجريمة جريمة أب وأم، قبل أن تكون جريمة ابن، ونظرا لأن الجاني لم يصل إلى سن ١٨ سنة فإنه يحول إلى محكمة الجنح، ويطبق عليه قانون الأحداث بحيث يقضي مدة العقوبة وأقصاها ١٥ سنة يقضيها بأكملها داخل مؤسسة الأحداث.

وتحميل الأبوين دفع الابن ارتكاب هذه الجريمة البشعة نظرا لما تقدم من سوء معاملتهم للجاني هو عين الحقيقة، فقد انحرفا هما الآخران وسلكا مسلكا شائناً في تربية الأولاد. وجناية الآباء هذه أنتجت ضياع الأسرة بأكملها في الدنيا والآخرة.

وفي غياب القيم والمثل الأعلى والقدوة الصالحة في الأسرة كما علمنا هو النتيجة الحتمية للآثار السيئة على الأسرة والمجتمع.

وصورة أخرى

والصورة الأخرى التي ضاعت فيها الأسرة خلقا ودينا ما يأتي:

محمد أصبح ميشيل

نشرت جريدة الشعب في عددها الصادر يوم الجمعة ٢٢ من ذي الحجة ١٤١٦ الموافق ١٠ من مايو ١٩٩٦ تحت العنوان الموضح عاليه، ولم يرد على ماجاء بها أحد سلبا أو تكذيبا حتى المسئول الرسمي: وهي كما رواها د. محمد عباس، والعهدة على الراوي كما يقولون - في ذلك الصباح الذي كان لون الدم يحيط بشمسه، ودخان عناقيد الغضب يخنق نهاره جاءني صوتها عبر التليفون كما تعودت أن يجيئني منذ سنوات ثلاث أو أربع دون أن أراها، معلقة على مقالة، مجاملة؛ باكية مستحثة مستنجدة، وكنت قد ألممت بطرف من حياة أسرتها وحياة ابنها المتدين الحالم، وكيف اعتقل منذ عامين، وعذب، فخرج من مباحث أمن الدولة وقد انفرطت حبات روحه، وعزف عن كل شيء حتى الصلاة، وكمحاولة من الأسرة لرفع حالته المعنوية، اقتطعوا من لحمهم الحي كي يطبعوا له ديوانا

يتضمن أشعاره. وفي ذلك الصياح المختنق بالدخان والدم شمسه راحت تعاتبني لأنني لم اكتب قط عن محاولات الغرب والصهاينة لتدمير الخلية الأساسية في المجتمع الإسلامي عن طريق جماعات التبشير، وقلت لها: إنني قرات شيئا من ذلك أو سمعت عنه، وإن كنت دائما أعتقد أن الدخان فيه أكثر من النار، وأن الشائعات أكثر من الحقيقة، لكنها راحت تلح عليّ أنها تعرف كنائس محددة تقوم بالتنصير، وأنها تعرف أسماء محددة، وقلت لها إنني لا استطيع الكتابة في هذا الموضوع لأسباب شتى: أهمها انني غير مقتنع، ثم إنني ادرك مدى قوة العقيدة في قلب أي مسلم، وإنني في هذا الصدد لا استشعر خطرا على الإطلاق، لكنني بالرغم من ذلك استطيع مساعدتها في الوصول إلى المسئولين في «الشعب» «ليعتولوه»، وراحت تبرهن لي على خطورة الامر، وعن نجاحهم في بلاد اخرى، حيث نجحوا في إندونيسيا في تنصير اثنى عشر مليونا - لا اظن الرقم صحيحا، وليت المسئولين في الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف، والخارجية يتكرمون بتصحيح الرقم المفزع المبكي... ثم عن قيامها باستكشاف الامر بنفسها في بعض الكنائس، وبحواراتها مع بعض من تنصروا بالفعل وارتدوا عن الإسلام وفجأة قالت: لكن لو كتبت الشعب ولو كتبت أنت، فماذا سيحدث؟ ماذا حدث عندما كتبتم عن التعذيب والتزوير والفساد، وعشرات الموضوعات الاخرى؟ لم يبق إلا سبيل العنف والقصاص المباشر، وسأقوم به بنفسي سأحرق كنيسة او سأقتل قسيسا، وقلت لها غاضبا: إن الإسلام ليس ذلك، وإنها بذلك تسيء إلى قضيتها، وتؤذى رسول الله ﷺ ، وأن السبيل مهما طال هو سبيل الكلمة، فتساءلت: إذا نشرت الشعب هل سيصيب أولئك الذين تنصروا أذى؟، وطمأنتها، فليس مهما على الإطلاق أن تذكر أي أسماء، وراحت تبدى التردد والخوف على ما يمكن أن يصيبهم، فقلت لها: إنهم لايستحقون كل هذا القدر من التعاطف والقلق، فإذا بها تصرخ باكية: هل تعرف عمن أحادثك؟ قلت: لا.. وليس مهما أن أعرف.. فإذا هي تواصل منتحبة:

إنه إبني ....

انطلقت مني الصرخة المفزوعة من قلب مصدوع بخيانة من لايتوقع منه خيانة.. لا.. المتدين الحالم الشاعر ... لا

لم تنطلق الصرخة من حلقي، ولا من لساني، وما اهتزت أحبال صوتي بأكثر مما تهتز في لغو الحديث، لكن كل خلية في جسدي تزلزلت، وصرخت صرختها الخاصة بفزعها الخاص.
لا... المتدين. الحالم. الشاعر...

فواصلت: نعم هو ابنى، ولقد غيروا اسمه من محمد إلى ميشيل. لم تعلم المرأة ما حدث لى فى هذه اللحظات وأنا أردد فى ذهول وألم لا حد له: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، فأفاجأ أن صوتى ليس هو صوتى، وأن العالم ليس العالم، ولا التاريخ هو التاريخ وأن ما ظننته كابوسا لم يكن إلا محض حلم جميل إزاء ما سيليه. أصابنى الدوار، وراحت المرأة تحكى باكية عن طعن ابنها فى الطاغية والحديث وفى الإسلام: دين الإرهاب، وأنهم فى الغرب هناك على دين الحقيقة والسلام، ورحت أغوص فى بحار من الألم ليس لها قرار، إننى أتوقع الغزو الغربى والإسرائيلى بعد خمسين عاما أو مائة عام، لم أتوقعه قبل ذلك الآن، كان هناك من يصرخ فى الدبابات الأمريكية فى ميدان التحرير، أما الإسرائيلية ففى صحن الأزهر ينادى فى عالمى من داخلى مناد: يحاصر القاهرة الآن الهكسوس والمغول، والصليبيون ونابليون وموشى ديان فى نفس الوقت، لا اختيار، الاستسلام الكامل أو الكفر أو الموت، تجسدت الرؤى والمخاوف، المسيح الدجال، بروتوكولات حكماء صهيون، ذلك ما كنت منه تحيد، لقد كنت فى غفلة يا أزهر بمن فيك: النار فى دارك.

وقلت لنفسى إن هذا سيكون عنوان مقالى القادم، امتلأت بالحقد والغيظ على مباحث أمن الدولة؛ هذه ثمار غرسكم، حطمتم الإسلام والمسلمين، كفرتموهم. مهما كانت اعتراضاتى على الرئيس، واختلافاتى معه، وإدانتى لسياسته، فإنه لاريب سيذهل مثلى عندما أكتب له هذه الحكاية، وهى فى حقيقتها ليست حكاية؛ إنها مأساة مروعة، وإن الأمور قد تدهورت إلى هذا الحد، وقد تلومه نفسه، قد يدرك أنه كالأب القاسى الذى لم يقدر مدى فظاعة قسوته، وأنها تحطم أبناءه، تدفعهم إلى الانتحار موتا أو كفرا، أو انحلالا، وأن من زايدوا، وسوغوا له إرهاب الدولة؛ قد أصابوا الإسلام لا الإرهاب، وقلت لنفسى: إنه ربما يفعل مثلما فعلت حين راحت الدموع تنهمل من عينى وأنا أجاهد ألا تكتشف أم المرتد على الهاتف أننى أبكى، أكرر المرة تلو المرة لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، احضرى فورا أو أرسلى أباه، أرسلى معه كل ما يمكن أن أكتبه عنه.

كنت أظن النهاية بعيدة، وأن أعمارنا أقصر من بداياتها، تراءت لى ملايين وملايين فى الأندلس يصلبون ويحرقون حتى يتركوا الإسلام وقد فعلوا، هاذى محاكم التفتيش وإذاعة التفتيش، وتليفزيون التفتيش، ومباحث التفتيش، صحف التجهيل. وهاهم أولئك صفوف، ملايين خلفت ملايين يبدلون دينهم تحت وطأة النار ووسائل الإعلام والقهر.

عندما جاء الرجل يحمل دواوين شعر ابنه كنت أجاهد كى أخرج من ذلك الزخم

الوجدانى العنيف الذى انتابنى. لكن ... ما وراء الرجل كان أقسى مما سمعت، لم يكن الأمر كما روته لى زوجته طيلة أعوام ثلاثة؛ الأمر مختلف تماما، وقد بدأ بُعيد حرب الخليج. إذ كان ابنه المتدين يتابع إذاعة مونت كارل،و بدأ فى مراسلتهم، وبدأوا بعد أن اطمأنوا إليه فى إرسال الهدايا والنقود إليه، واتفق الابن مع أبيه - إزاء اعتراض صامت من الأم على انتهاز الفرصة واستغلالهم بإيهامهم انه يوشك ان يقتنع بآرائهم، وأرسلوا له صلبانا ذهبية - باعها - وفتاة هولندية قضت معه أياما فى القاهرة، وفى هذه الأثناء اعتقلته مباحث أمن الدولة، ليس لأنه من الجماعات كما كانت أمه قد أوهمتنى، وأنهم هناك أتوه بعلماء دين كى يثنوه عن ردته، قال الرجل باكيا: إنه لم يدرك إلا منذ أسابيع قليلة أن محمدا قد ارتد فعلا، وغير اسمه إلى ميشيل بعد عمليات مكثفة استمرت سنوات ثلاث فى إحدى الكنائس.

كنت أسمع مذهولا غير مصدق، فهاتفت امرأته كى أستوثق مما يقول، فأكدت لى ماذكر الأب وانفجرت فيهما معا: أنهما أسرة فاشلة، وياويلهم على ما فرطوا فى جنب الله، وأنهما بكل الانتهازية دخلا لعبة أكبر منهما خسرا فيها الدنيا والآخرة، طلبت منهما ألا يتصلا مرة أخرى بى.

لم تكن الخيانة مجرد ثمرة حرام للقهر أو التلوث الإعلامى وغسيل المخ، ولا لتعذيب مباحث أمن الدولة، لم تعد استسلاما وانهيارا، بل أصبحت تطوعا واختيارا وإصرارا.

الخلايا الأولية فى الأمة تتصدع وتنهار والقلاع تستسلم دون قتال، والحصون تفتح أبوابها بالغواية دونما مقاومة، هنيئا لكم ياوزراء الثقافة والأوقاف والإعلام العربى جهودكم، وهنيئا لكم يا وزراء الداخلية العرب قهركم وبطشكم، هنيئا لك يارئيس مجلس الشعب ووزير التعليم تطويركم التعليم.

ورحت أردد لنفسى: لم يرغم أحد «محمداً» أن يتحول إلى ميشيل، لم يرغمه أحد وإن كانت سياسات حكامه وأداء أمته غطاء لما فعل... وأنهم هناك فى تل أبيب وواشنطن ولندن وبون وغيرها قد خططوا منذ زمن لاستعمال حكامنا لاختراق حدودنا، بل وللتسلل إلى خلايانا.. لتدميرها ... أليس هذا حال نخبة حكامنا؟ ذهبوا إليهم ليدافعوا عنا، وظنوا أنهم «بالفهلوة» مخادعوهم فانخدعوا بهم، تبنوا وجهة نظرهم فينا، وانضموا إليهم علينا، دو ن قهر، دون قسر، ودون مبرر.

تُرى هل غيروا هم الآخرون أسماءهم، ترى أى مسبحة تختفى خلفها ميشيل.. وأى

دشداشة تستر بيريز ورابين، وأى عباءة تضم كلينتون وكيسنجر، وأى أصباغ للشعر والوجه تنكرت فيها ملامح الصليبيين واليهود خلف ملامحنا.

وبعد: فإذا تتبعنا مثل هذه الأحداث التى تنخر فى جسم الأمة الإسلامية كالسوس فى الخشب الهش لوجدنا الكثير، ولكن نكتفى بما ذكرنا كمثل لما يكتنف الأسرة المسلمة من أخطار نتيجة ضياع القدوة الصالحة فى الأسرة من الأب والأم.

ثم نعود إلى إتمام باقى حقوق الأبناء، ونتبعها إن شاء الله بحقوق الآباء، والله الموفق والمستعان.

ولا زلنا فى أهمية العدل بين الأبناء.

إذا رجعنا إلى الأحاديث الواردة فى الموضوع لأدركنا أن الرسول ﷺ قد لمس جانبا خطيرا فى علاج المفاضلة بين الأولاد، حيث بين أن الأب فى حاجة إلى برهم جميعا، وأن المفاضلة نوع من الجور الذى يسبب البغضاء بين الأولاد، كما أنه يسبب قطيعة الرحم، وقد يسبب عقوق الأب، ومعلوم أن الإسلام حرص حرصاً كبيراً على توفير أسباب الوئام فى الأسرة الواحدة. فحض على صلة الرحم، وجعل القطيعة من الكبائر، وحض على بر الوالدين، وجعل العقوق من الكبائر. فكل شيء يؤدى إلى القطيعة والعقوق يأخذ حكمهما، لذلك لايشك إنسان فى أن تفضيل أحد الأولاد إذا كان سيؤدى إلى القطيعة أو العقوق، أو إليهما حرام وظلم، وخروج عن أصول الواجب نحو الأسرة الواحدة، وكثيرا ما يحدث التمزق فى الأسرة والتناحر والتقاتل أحيانا - كما بينا فى القصة آنفة الذكر - بسبب وقوع الأبوين أو أحدهما فى جريمة التفضيل، سواء التفضيل فى العطف أو فى العطاء المادى، وقصة إخوة يوسف مع سيدنا يوسف عليه السلام ومع أبيهم معلومة وهم الذين تربوا فى بيت رسول من سلالة الأنبياء والمرسلين.

الحق الثالث: التربية و التعليم: إن تربية الأولاد دون تعليمهم فى مرحلة مبكرة تربية صحيحة صالحة من أهم واجبات الآباء، أو واجبات الأسرة عموما نحو الأولاد والمجتمع باعتبار أن البيت هو مدرسة الأطفال الأولى، فإذا لم يقم بوظيفته فلا تعوضها أية مدرسة أو مؤسسة أخرى، فليست المهارة كل المهارة فى إنجاب الأطفال، بل المهارة كل المهارة فى تربيتهم، وتكوينهم رجالا تنتظرهم أمتهم. وإذا كانت كثرة النسل من المطالب الحيوية

للأمة، فإن صناعة الرجال من هذه الكثرة من أشد هذه المطالب إلحاحاً على أمة تريد استئناف رسالتها كخير أمة أخرجت للناس.

وإذا كان التربويون قد تواضعوا على أن الطفل يتقبل من آبائه أكثر مما يتقبل من معلمه، وأن ما تربى عليه، واكتسبه من عادات فى صغره من الصعب إزالته عنه فى كبره.. ويقول الشاعر العربى:

وينشأ ناشيء الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه

ولذلك يجب الاعتناء به، والحرص على تعليمه بحيث لايلقن إلا العقائد والأفكار الصحيحة ولايفعل والداه بمرأى منه ما يخالف الدين والأخلاق الكريمة، وآداب المعاشرة السليمة. إذا كان التربويون قد تواضعوا على ذلك؛ فإن الإسلام قد سبق وجعل من التربية السليمة حقا للطفل على والديه، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم: ٦] وقال جل شأنه: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور: ٢١].

والتربية الحسنة كما يعنيها الإسلام هى التربية المتفقة مع المنهج القرآنى وأهدافه فى صياغة الشخصية المسلمة، وهى أمانة فى عنق الوالدين، إن قصّرا فيها ووقع الأبناء فى المعاصى وانحرفوا عن طريق الله، فإنهم يعذبون على ذلك يوم القيامة.

فعلى الوالدين أن يعرفا أبناءهم بربهم ونبيهم، وبكتاب الله، واليوم الآخر وما فيه، وبرسل الله وكتبه، ليؤمنوا بذلك، وعليهم أن يغرسوا فى أنفسهم تقديس وتعظيم شعائر الله تعالى، وكل ما جاء به الإسلام، من عبادات وأخلاق ومعاملات، وعليهم أن يعلموهم التطهر من النجاسات والوضوء والصلاة، و يأمروهم بها وهم أبناء سبع، ويضربوهم عليها وهم أبناء عشر. فقد قال رسول الله ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم فى المضاجع» رواه أبو داود وعليهم أن يغرسوا فى نفوسهم حب الله وحب رسول الله ﷺ، وحب الصالحين، فعن أبى حفص عمر بن أبى سلمة ربيب رسول الله ﷺ «ربيب: ابن زوجة رسول الله أم سلمة رضى الله عنها» قال: كنت غلاما فى حجر رسول الله ﷺ – يعنى فى كنفه وحمايته – وكانت يدى تطيش فى الصفحة – يعنى لاياكل من موضع واحد من إناء الطعام – فقال لى رسول الله ﷺ: «ياغلام سَمِّ الله تعالى، وكل بيمينك، وكل مما يليك» فمازالت تلك طِعمتى بعد، أى

صفة أكلى وهيئته بعد ذلك.

وعلى الآباء أن يوجهوا أبناءهم إلى تخير أصدقائهم، و لايدعوهم يصاحبون الأشرار، والفاسدين والعصاة، وقد ورد: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل» وورد أيضا: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب المسك وكير الحداد، فصاحب المسك إما أن تشترى منه أو يحذيك أو تجد منه ريحا طيبا، وصاحب الكير إما أن يحرق ثوبك أو تجد منه ريحا خبيثة» وقد قيل في الحكم: «الوقاية خير من العلاج».

جاء رجل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يشكوا إليه عقوق ابنه، فأحضر عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – ابنه وأنبه على عقوقه لأبيه، فقال الابن: يا أمير المؤمنين، أليس للولد حقوق على أبيه؟ قال: بلى، قال: فما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: أن ينتقى أمة؛ أى يحسن اختيارها، ويحسن اسمه، ويعلمه الكتاب (القرآن الكريم). فقال الابن: يا أمير المؤمنين إنه لم يفعل شيئا من ذلك، أما أمى فإنها زنجية كانت لمجوسى، وقد سمانى جُعلا (جعرانا)، ولم يعلمنى من الكتاب حرفا واحداً. فالتفت أمير المؤمنين إلى الرجل، وقال له: أجئت إلىّ تشكو عقوق ابنك، وقد عققته قبل أن يَعقِك، وأسات إليه قبل أن يسيىء إليك؟.

ومن بين ثنايا هذا النص المحكم نستطيع أن ننصح الشباب حين يريدون الزواج أن يفكروا كثيرا ليحسنوا اختيار الزوجة، فهى نصفه الثانى ورفيقة حياته وصانعة الرجال. لقوله ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك» رواه البخارى ومسلم.

وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلا، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقرا، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره، ويُحصّن فرجه، أو يصل رحمه بارك الله له فيها، وبارك لها فيه».

وعن معقل بن يسار رضى الله عنه، قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يارسول الله: إنى أصبت امرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لاتلد أفأتزوجها؟ فنهاه، ثم أتاه الثانية، فقال له: مثل ذلك، ثم أتاه الثالثة، فقال له: «تزوجوا الودود الولود، فإنى مكاثر بكم الأمم». رواه أبو داود والحاكم. صحيح الإسناد، وفى حديث عُويم بن ساعدة الأنصارى، قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالأبكار، فإنهن أعذب أفواها، وأنتق أرحاما وأرضى

باليسير». هذا بالإضافة إلى أن النسل حين يتعهده الآباء بالتربية الإسلامية الصحيحة يمكن أن يكون امتدادا لعملهم إذا لحقوا بالرفيق الأعلى.

روى مسلم، والترمذى، والنسائى، وأبو داود حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات بن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

يقول أحد الحكماء لأبنائه:

وأول إحساني إليكم تَخَيُّرى ... لماجدة الأعراق بادٍ عفافها

وحفظا للأولاد من مشاركة الشيطان فيهم؛ يروى البخارى ومسلم، عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ، قال: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله، قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقُضى بينهما ولد لم يضره». ومعنى أتى أهله أى: جامع زوجته.

ومن حقوق الأبناء:

الحق الرابع: أن يُؤَذَّن فى أذنه بعد ولادته.

وذلك حتى تكون كلمة «الله أكبر» أول ما تسمعها روح المولود، وشهادة الإسلام أول ما يقرع سمعه، والأمر بالصلاة أول ما يُسكب فى أذنيه.

وفى سنن أبى داود والترمذى وغيرهما عن أبى رافع رضى الله عنه مولى رسو ل الله ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ، أذن فى أُذُن الحسن بن على حين ولدته فاطمة بالصلاة رضى الله عنهم» حديث صحيح.

ويستحب أن يؤذن فى أذنه اليمنى ويقيم الصلاة فى أذنه اليسرى.

وفى كتاب بن السنى عن الحسين بن على رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «من ولد له مولود فأذن فى أذنه اليمنى، وأقام فى أذنه اليسرى لم تضره أم الصبيان» وأم الصبيان المراد بها القرينة من الجن، والله أعلم.

وفى صحيح البخارى ومسلم، عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما، قالت: «حملت بعبد الله بن الزبير بمكة، فأتيت المدينة، فنزلت قباء، فولدت بقباء، ثم أتيت به النبى ﷺ فوضعته فى حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل فى فمه فكان أول شيء دخل

جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بالتمرة، ثم دعا له وبارك عليه.

الحق الخامس: من حقوق الأبناء هو:

أن تتخير له اسما حسنا ذكرا كان أو أنثى.

ففي الحديث الشريف الذي رواه أبو داود بإسناد جيد، يقول الرسول ﷺ: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم، فأحسنوا أسمائكم».

وعن بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب أسماءكم إلى الله عز وجل: عبد الله، وعبد الرحمن».

ونهى النبي ﷺ عن الوشم، روى سفيان عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر عن عبيدة بن رفاعة أن أسماء بنت عُميس، قالت: يارسول الله إن بني جعفر تصبهم العين، أفنسترقى لهم؟ قال: «نعم، فلو كان شيء سبق القضاء لسبقته العين».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن أبي سعيد، قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان، وعين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلتا أخذهما وترك ما سواهما».

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه بقُل هو الله أحد والمعوذتين: ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده».

وفي الحديث الصحيح عن أبي سعيد أن جبريل عليه السلام رقى النبي ﷺ بالرقية الآتية: «بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك».

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ كان يُعَوِّذ الحسن والحسين رضي الله عنهما بالتعويذة الآتية: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامّة، ثم يقول: «هكذا كان أبي إبراهيم ﷺ يُعَوِّذ إسماعيل وإسحاق».

وفي سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة بالأسانيد الصحيحة عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «كل غلام رهين بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويحلق ويسمى».

وقال ابن النحوي في التخريج الصغير لأحاديث الشرح الكبير حديث: «سموا السقط» ويستحب تهنئة المولود له ويستحب بما جاء عن الحسين رضي الله عنه أنه علم إنسانا، فقال: قل: «بارك الله لك في الموهوب، وشكرت الواهب، وبلغ أشده، ورزقت بره».

عن أحمد والترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما، أن النبى ﷺ عَقّ عن الحسن بشاة وقال: «يا فاطمة، احلقى رأسه وتصدقى بوزنه فضة على المسلمين».

الحق السادس: هو: «أن يختنه ذكراً كان أو أنثى»، والختان من سنن الفطرة. فعن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الفطرة خمس: الاستحداد «حلق العانة» والختان، وقص الشارب، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر».

وهو واجب كما ورد فى الدين الخالص عند الشافعية، وكثير من العلماء فى حق الرجال والنساء، والختان واجب عند الإمام أحمد، على الرجال، ومكرمة للنساء؛ لحديث النبى ﷺ الذى رواه شداد بن أوس قال ﷺ: «الختان سنة للرجال، مكرمة للنساء».

ويخوف الابن من السرقة وأكل الحرام، ومن الخيانة والكذب والفحش، وكل ما يغلب على الصبيان: قال شاعر حكيم:

خير ما ورّث الرجال بنيهم ... أدب صالح وحسن ثناء
فهو خير من الدنانير والأو ... راق فى يوم شدة ورخاء

الحق السابع: هو: «أن يعلمه القرآن الكريم».

فقد ورد فى حديث شريف رواه البيهقى عن رسول الله ﷺ قال:

«حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتاب، والسباحة، وألا يرزقه إلا طيبًا» - الجامع الصغير ج١ ص ٢٥٥.

وعلى رأس تعليم الأبناء؛ تعليم القرآن الكريم، ففيه علوم الدنيا والآخرة.

فلولا العلم ما سعدت نفوس ... ولا عُرف الحلال من الحرام
فبالعلم النجاة من المخازى ... وبالجهل المذلة والرَّغَام

أما القرآن الكريم فيقول فيه الشاعر:

هذا هو القرآن نبراس الهدى ... دستورك الأسمى المنبر المشرق
آياته نبع العلوم جميعها ... من قال لا. فهو الغبى الأخرق
علم الطبيعة والحياة وحكمة الـ ... إيجاد من بنيانه تتدفق
وسياسة الدنيا بأقوم شرعة ... بين ذالورى بسواه لا تتحقق
فيه القضاء لحل كل قضية ... عن حلها أهل السياسة أخفقوا

ومن أجل ذلك:

نحن نبغي القرآن علمًا وفهمًا يخلقان الكمال في الشبان
نحن نبغي القرآن دينًا ودنيا يتجلى في هديه الحسنيان
نحن نبغي القرآن في معهد الدرس وفي كل منزل ومكان

وفي قوله تبارك وتعالى القول الفصل والحكم العدل:

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) ﴾ [الإسراء: ٩].

وقد قال الدكتور موريس الفرنسي – يصف القرآن الكريم:

(إنه بمثابة ندوة علمية للعلماء، ومعجم لغة للغويين، ومعلم نحو لمن أراد تقويم لسانه، وكتاب عَروض لمحب الشعر، وتهذيب العواطف، ودائرة معارف للشرائع والقوانين؛ وكل كتاب سماوى جاء قبله لا يساوى أدنى سورة من سوره فى حسن المعانى، وانسجام الألفاظ، ومن أجل ذلك نرى رجال الطبقة الراقية فى الأمة الإسلامية يزدادون تمسكًا بهذا الكتاب، واقتباسًا لآياته؛ يدعمون بها كلامهم، ويبنون عليها آراءهم كلما ازدادوا رفعة فى القدر ونباهة فى الفكر).

والحق الثامن: وأن يعلمه السباحة،

وفى الحديث الذى وقفنا عليه فى الحق السابق قوله ﷺ:

«حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتاب والسباحة، وألا يرزقه إلا طيبًا».

والنبى ﷺ يريد منا نحن الآباء؛ أن ندرب أبناءنا على الرياضة حتى يكونوا أقوياء، وحتى يستطيعوا بقوتهم الجسمانية مواجهة أعدائهم، والسير فى مناكب الأرض طلبًا للرزق.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ... ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ على المنبر يومًا قول الله تعالى: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ثم قال: «ألا إن القوة الرمى.. ألا إن القوة الرمى.. ألا إن القوة الرمى». رواه مسلم.

- وقال ﷺ : « كل شئ غير ذكر الله فهو لهو أو سهو، إلا أربع خصال: مشى الرجل بين الفرضين (إصابة الهدف)، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، وتعليم السباحة ». رواه الطبراني.

والحق التاسع: «ألا يرزقه إلا طيباً»

والمراد بالرزق الطيب، أى الكسب الحلال، والمراد أن يتحرى الحلال فى تجارته وصناعته وزراعته وفى كل مهنة يؤديها؛ حتى يبارك الله تعالى له فى ماله وولده وصحته وعافيته، وفى زوجته وكل ما يملك. حسبه هذا الحديث الشريف الذى يقول فيه النبى ﷺ : « من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد فى سبيل الله، ومن طلب الدنيا حلالاً فى عفاف كان فى درجة الشهداء ». رواه الطبرانى فى الأوسط.

وفى الخبر: أنه مكتوب فى التوراة:

«. من لم يبال من أين مطعمه، لم يبال الله من أى أبواب النار أدخله ».

وكانت الأمهات والأبناء فى العصر الأول يقولون لأبيهم عندما كان يخرج للسعى على الرزق: « اتق الله فينا، ولا ترزقنا إلا حلالاً؛ فإننا نصبر على الجوع أيامًا ولكننا لا نصبر على عذاب الله لحظة ».

والحق العاشر:

حسبنا أن يزود الآباء أبناءهم بوصية رسول الله ﷺ الجامعة المانعة التى أوصى بها رسول الله ﷺ ابن عباس رضى الله عنهما فيقول:

« كنت خلف النبى ﷺ يومًا فقال: يا غلام إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت عى أن ينفعوك، لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف ».

والحق الحادى عشر: «أن يعلمه أدب الاستئذان»

لأن الله تبارك وتعالى يقول:

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .... ﴾ [النور: ٥٩].

ذكر الإمام القرطبى فى تفسيره لهذه الآية: « بعث رسول الله ﷺ غلامًا من الأنصار يقال له « مدلج » إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه، فوجده نائمًا قد أغلق

عليه الباب، فدق عليه الغلام الباب فناداه ودخل، فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شيء، فقال عمر: وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا، وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعات إلا بإذن! ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ فوجد هذه الآية قد نزلت.

والحق الثاني عشر: «أن يعوله حتى يبلغ سن الرشد ويستطيع الكسب»

فعن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال:

«أفضل دينار ينفقه الرجل على عياله، ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله» الفتح الرباني.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت» رواه أبو داود.

واجب الأبناء نحو الآباء

شرع الله واجب الإحسان إلى الآباء والأمهات والبر بهما بعد واجب توحيده وعبادته وجعل الإحسان إليهما قضاء وإلزامًا فقال تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

وفي وصية لقمان لابنه وعظه فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾ [لقمان: ١٣ - ١٥].

وقال جل شانه: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) ﴾ [النساء: ٣٦].

لقد جعل الله مرتبة الإحسان إلى الوالدين بعد توحيده وعبادته، ولم يقدم على الوالدين

مخلوقًا.

ولذلك قال الإمام النيسابورى فى تفسيره: وإنما جعل الإحسان إلى الوالدين تابعًا لعبادة الله تعالى لوجوه منها:

١ - أنهما سبب وجود الولد، كما أنهما القائمان بالتربية، فلا إنعام بعد إنعام الله تعالى أعظم من الوالدين.

٢ - ومنها: أن إنعامهما يشبه إنعام الله عليهما من أنهما لا يطلبان بذلك ثناءً ولا ثوابًا.

٣ - ومنها: أن الله تعالى لا يمل من إنعامه على العبد، وإن أتى بأعظم الجرائم، وكذا الوالدان لا يقطعان عنه مواد كرمهما وإن كان غير بار بهما.

٤ - ومنها: أنه لا كمال للولد إلا ويطلبه الوالد لأجله، ويريده عليه، كما أنه تعالى لا يرضى بعباده إلا الخير، ومن غاية شفقة الوالدين: أنهما لا يحسدان ولدهما إذا كان خيراً منهما، بخلاف غيرهما، فإنه لا يرضى أن يكون غيره خيراً منه.

ولذلك حكم رسول الله ﷺ بأن الولد وماله ملك لأبيه. فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال:

يارسول الله، إن لى مالاً وولداً، وإن أبى يريد أن يجتاح مالى، فدعا أباه فهبط جبريل عليه السلام فقال: «إن الشيخ قد قال فى نفسه شيئًا لم تسمعه أذناه».

فلما قدم، فإذا هو شيخ يتوكأ على عصا، فسأله النبى ﷺ عما ادعى ولده.

فقال: سله يارسول الله، هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو إحدى خالاته؟

فقال رسول الله ﷺ دعنا من هذا، وأخبرنى عن شيء قلته فى نفسك ولم تسمعه أذناك!.

قال الرجل: لا يزال الله يزيدنا بك بصيرة ويقينًا، نعم.

قال ﷺ: «هات».. فأنشأ الرجل فى خطاب ولده:

غذوتك مولوداً وعُلْتك يافعًا	تقل بما أحنو عليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالسقم لم أبت	لسقمك إلا ساهراً أتململ
تخاف الردى نفسى عليك وأنها	لتعلم أن الموت حتم مؤجل
كأنى أنا المطرود دونك بالذى	طُرقت به دونى فعينى تهمل
فلما بلغت السن والغاية التى	إليها مدى ما كنت فيك أؤمل

جـعلت جـزائى غلظة وفظاظة كـأنك أنت المنعم المتـفـضل

فليـتك إن لم تَرْعَ حق أبوتى فـعلت كـمـا الجار المجاور يفـعل

فـأوليـتنى حق الجـوار ولم تكن عَلـىّ بمال دون ذلك تبـخـل

فبكى رسول الله ﷺ وقال: «ما سمع بهذا حجر ولا مدر إلا بكى» واخذ بتلابيب الولد أى بمجامع ثيابه وقال: «أنت ومالك لأبيك».

من معانى البر

قال الإمام القرطبى: بر الوالدين: موافقتهما على اغراضهما، وعلى هذا إذا امر احدهما ولده بامر وجبت طاعته فيه؛ إذا لم يكن ذلك الامر معصية فقد ورد: «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق».

وعن سعيد بن ابى بردة قال: سمعت أبى يحدث انه شهد رجلاً يمانيًا يطوف البيت وقد حمل امه وراء ظهره ويقول:

أنا لهـا بعـيـرها المذلل إن أذعـرت ركـابهـا لم أذعـر

ثم قال لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما: أترانى جزيتها؟ قال ابن عمر: لا، ولا بزفرة واحدة!!.

وروى أن أبا هريرة رضى الله عنه أبصر رجلين، فقال لاحدهما: «ما هذا منك؟ فقال: أبى. فقال أبو هريرة: لا تُسَمّه باسمه، ولا تمش أمامه، ولا تجلس قبله».

وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين، فقال: الا تقوم إلى خدمتهما وأنت كسلان، وقيل: الا ترفع صوتك عليهما، ولا تنظر إليهما شزراً «أى احتقاراً»، ولا يريا منك مخالفة فى ظاهر أو باطن، وأن تدعو لهما ما عاشا، وتترحم عليهما إذا ماتا، فالله يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢٤)﴾ [الإسراء: ٢٤].

ومن البر الإنفاق عليهما إذا احتاجا إلى نفقة، والتوسعة عليهما إن كانت حالتهما اقل من حال ابنهما أو بنتهما، وأن يرحم أباه وأمه من الأعمال الوضيعة، ويكفيهما النفقة.

حق الأم فى البر أكبر من حق الأب:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يارسول الله» من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال أمك. «قال ثم من؟ قال أمك. قال ثم من؟ قال أمك، قال ثم من؟ قال أبوك».

قال الإمام القرطبى: فهذا الحديث يدل على أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغى أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب، وذلك أن صعوبة الحمل، وصعوبة الوضع، وصعوبة الرضاع، والتربية تنفرد بها الأم دون الأب، فهذه ثلاث مشقات تختص بها الأم دون الأب.

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فاستأذنه فى الجهاد. فقال رسول الله ﷺ له: «أحي والداك؟» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد».

وعن أبى سعيد رضى الله عنه أن رجلاً من أهل اليمن هاجر إلى رسول الله ﷺ، فقال له الرسول ﷺ: «هل لك أحد فى اليمن؟» قال الرجل: أبواى. قال «أذنا لك؟» قال الرجل: لا. قال له رسول الله ﷺ: «فارجع فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد، وإلا فبرهما». وقد نهى القرآن الكريم عن الضجر منهما، ولو بأقل كلمة فى اللغة (أف) ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

بر الوالدين بعد وفاتهما

ولا يقتصر البر بالوالدين على حياتهما، بل لهما هذا الحق على أولادهما بعد موتهما أيضاً، وذلك بالاستغفار لهما، والدعاء لهما بالرحمة والمغفرة ودخول الجنة، والنجاة من النار ومن عذاب القبر.

وقد ورد فى حديث رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

كذلك يصل الوالدين بعد الموت ثواب صدقة الأبناء عنهما. فقد جاء رجل إلى النبى ﷺ يسأله: «إن أبى مات ولم يوصِ، أفينفعه أن أتصدق عنه؟ قال: «نعم». كما ينفعهما الصلاة لهما، وقراءة القرآن، والصيام، وجميع الطاعات عند أهل السنة، وقد ذهب إلى ذلك الإمام أحمد بن حنبل، وجماعة من العلماء، وجماعة من أصحاب الشافعى.

كذلك من البر بهما وجوب سداد ديونهما بعد موتهما..

ومن البر بالوالدين بعد موتهما صلة أقربائهما وأصدقائهما.

فعن أبى بردة رضى الله عنه قال: قدمت المدينة فأتانى عبد الله بن عمر، فقال أتدرى لم أتيتك؟ قال: قلت: لا. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يصل أباه فى قبره، فليصل إخوان أبيه بعده». وإنه كان بين أبى عمر وبين أبيك إخاء وود، فأحببت أن

أصل ذلك». . وعن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن أبر البر صلة الوالد أهل ود أبيه». أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى.

وعن أبى أسيد بن مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من بنى سلمة فقال: يارسول الله هل بقى من بر أبواى شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال ﷺ: «نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما». رواه أبو داود.

والمراد بالصلاة عليهما: الدعاء لهما بالرحمة.

والاستغفار لهما: طلب المغفرة من الله لهما.

وإنفاذ عهدهما: العمل بوصيتهما.

صلة الرحم: مثل الاعمام والعمات والاخوال والخالات والأجداد والجدات وأولادهما.

ومن العقوق:

إهمال حقوقهما، والخروج عن طاعتهما، وفعل ما لا يرضيهما، وإيذائهما ولو بكلمة مرة، أو نظرة احتقار، فمن فعل شيئًا من ذلك استحق سخط الله تعالى وغضبه، وحرم تأييده وتوفيقه، وفعل به أبناؤه، مثل ما فعل بأبويه. بالإضافة إلى أنه ارتكب إثمًا من أكبر الكبائر، قال رسول الله ﷺ: «الا أخبركم بأكبر الكبائر؟! قالوا: بلى يارسول الله. قال ﷺ: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وشهادة الزور، والزنا»، وقال ﷺ: «من الكبائر ان يسب الرجل والديه، قالوا: وهل يسب الرجل والديه، فقال: نعم، يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه ويسب أمه».

ومن اللطائف أن أبا طالب المكى جميع الكبائر فيما يلى فقال - رحمه الله:

أربعة فى القلب وهى: الشرك بالله تعالى، والإصرار على معصية الله تعالى، والقنوط من رحمة الله تعالى، والأمن من مكر الله تعالى.

وأربعة فى اللسان: وهى: شهادة الزور، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، واليمين الغموس والسحر - «اليمين الغموس هى التى يحلف صاحبها بالله كاذبًا متعمداً».

وثلاثة فى البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا وهم يعلم.

واثنتان فى اليدين، وهما: القتل والسرقة.

واثنتان فى الفرج وهما: الزنا واللواط.

وواحدة فى الرِّجْل وهى: الفرار من الزحف.

وواحدة فى جميع البدن وهى: عقوق الوالدين.

وقد روى البخارى وغيره هذا الحديث الجامع:

«إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعًا وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله ﷺ قال:

«ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان عطاءه، وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث، والرجلة» رواه النسائى والبزار.

الديوث: هو الذى يقر أهله على الزنا مع علمه بهم، وهو الذى لا يبالى من دخل على أهله.

الرُّجلة: هى المترجلة المتشبهة بالرجال فى الملبس والهيئة والمعاملات.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ان رسول الله ﷺ قال:

«ثلاثة حرم الله تبارك وتعالى عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق، والديوث الذى يقر الخبث فى أهله» رواه أحمد والنسائى والبزار والحاكم، وقال صحيح الإسناد.

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثة لا يقبل الله عز وجل منهم صرفًا ولا عدلاً: عاق، ومنان، ومكذب بقدر».

صرفًا: أى نافلة – عدلاً: أى فريضة، وقيل: صرفًا: أى توبة – وعدلاً: أى فداءً.

وعن ثوبان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«ثلاثة لا ينفع معهن عمل: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف». رواه الطبرانى فى الكبير.

روى الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «كانت تحتى امرأة أحبها، وكان أبى يكرهها، فأمرنى أن أطلقها، فأبيت، فذكرت ذلك للنبى ﷺ، فقال:

«يا عبد الله بن عمر: طلق امرأتك». قال: هذا حديث صحيح.

وروى ابن حبان فى صحيحه: ان رجلاً أتى أبا الدرداء، فقال: إن أبى لم يزل بى حتى زوجنى، وإنه الآن يأمرنى بطلاقها، قال أبو الدرداء: ما أنا بالذى آمرك أن تعق والديك، ولا بالذى آمرك أن تطلق امرأتك، غير أنك إن شئت حدثتك بما سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت يقول:

«الوالد أوسط أبواب الجنة، فحافظ على ذلك الباب، إن شئت أو دع» قال: فأحسب عطاءً قال: فطلقها.

وعن أبى الدرداء كذلك أن رجلاً أتاه فقال: لى امرأة، وإن أمى تأمرنى بطلاقها؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فاضع هذا الباب أو احفظه».

روى البخارى فى الأدب المفرد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

«ما من مسلم له والدان مسلمان يصبح إليهما محتسبًا، إلا فتح الله له بابين - يعنى من الجنة - وإن كان واحد - فواحد، وإن أغضب أحدهما م يرض الله عنه حتى يرضى عنه، قيل: وإن ظلماه؟ قال: وإن ظلماه».

ولأحد الصالحين شعر فى حق الأم يقول -رحمه الله- فيه:

لأمك حق لو علمت كبير	كثيرك يا هذا لديه يسير
فكم ليلة باتت بثقلك تشتكي	لها من جواها أنة وزفير
وفي الوضع لو تدري عليها مشقة	فمن غصص منها الفؤاد يطير
فكم غسلت عنك الأذى بيمينها	وما حجرها إلا لديك سرير
وتفديك مما تشتكيه بنفسها	ومن ثديها شرب لديك نمير
وكم مرة جاعت وأعطتك قوتها	حنواً وإشفاقًا وأنت صغير
فآه لذي عقل ويتبع الهوى	وآه لأعمى القلب وهو بصير
فدونك فارغب في عميم دعائها	فأنت لما تدعو إليه فقير

وفى كتاب نيل الأوطار للشوكانى فى الفقه ورد أن عبد الله بن عمرو بن العاص قل:

«إن امرأة قالت يا رسول الله إن ابنى مهذا كان بطنى له وعاء، وحجرى له حواء، وثديى

له سقاء، وزعم أبوه أنه ينزعه منى، فقال ﷺ : «انت احق به مالم تنكحى» رواه احمد وابو داود، وفى لفظه: «وإن أباه طلقنى وزعم انه ينزعه منى».

وقد روى البخارى فى الأدب المفرد عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : «بكاء الوالدين من العقوق».

واخرج البخارى كذلك فى الادب المفرد عن على كرم الله وجهه قال: قال رسول الله ﷺ : «من احزن والديه، فقد عقهما». رواه الخطيب.

وقد نظم الشيخ عبد الباقى الحليلى المحدث ثلاث عشرة، وأصلها للحافظ السيوطى- رحمه الله قال:

إذا مات ابن آدم جاء يجري	عليه الأجر عند ثلاث عشر
علوم ودعاء نجل	وغرس النخل، والصدقات تجري
وراثة مصحف ورباط ثغر	وحفر البئر أو إجراء نهر
وبيت للغريب بناه ياوى	إليه، أو بناء محل ذكر
وتعليم لقرآن كريم	فخذها من احاديث بشعر

وعن أبى هريرة رضى الله عنه فى استغفار الولد لوالديه قال: قال رسول الله ﷺ :

«إن الرجل لترفع درجته فى الجنة، فيقول: يارب أنى لى هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك».

وعن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ؛ فأتاه آت فقال: شاب يجود بنفسه «اى حضره الموت» فقيل له: قل: لا إله إلا الله: فلم يستطع، فقال ﷺ :

«كان يصلى؟ فقال: نعم. فنهض رسول الله ﷺ، ونهضنا معه فدخل على الشاب فقال له: «قل: لا إله إلا الله». فقال: لا أستطيع - قال: لِمَ؟ قالوا: كان يعق والدته، فقال النبى ﷺ : «أحيَّة أمه»؟ قالوا: نعم. قال رسول الله ﷺ : «ادعوها» فدعوها فجاءت، فقال لها رسول الله ﷺ : «هذا ابنك؟» قالت: نعم: فقال لها رسول الله ﷺ : «أرأيت - أخبرينى - لو أججت ناراً ضخمة فقيل لك: إن شفعت له خلينا عنه، وإلا حرقناه بهذه النار أكنت تشفعين له»؟ قالت: يارسول الله إذن أشفع. قال ﷺ : «فاشهدى الله وأشهدينى أنك قد رضيت عنه». قالت: اللهم إنى أشهدك، وأشهد رسولك أنى قد رضيت عن ابنى. فقال له

رسول الله ﷺ : «يا غلام، قل: لا إله الا الله وحده لا شريك له، واشهد ان محمداً عبده ورسوله»، فقالها، فقال رسول الله ﷺ : «الحمد لله الذى انقذه بى من النار». وكان هذا الشاب - كما ورد فى كتب الحديث - يؤذى امه ويؤثر عليها زوجته.

وعن عمرو بن مرة الجهنى رضى الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، شهدت ان لا إله إلا الله وانك رسول الله ﷺ، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالى، وصمت رمضان.. فقال النبى ﷺ :

«من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا - ونصب أصبعيه - ما لم يعق والديه»، رواه الإمام أحمد والطبرانى بإسنادين أحدهما صحيح.

ورواه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ :

«ما بر أباه من حد إليه الطرف» الطرف: النظر - أى من نظر إليه بغضب وحد نظره فيه. رواه البيهقى وابن مردويه، ورواه الطبرانى، بلفظ:

«ما بر أباه من شد إليه الطرف بالغضب».

اى من ينظر إليهما: الأب والأم، وإن لم يتكلم.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ :

«لم يتل القرآن من لم يعمل به، ولم يبر والديه من أحد النظر إليهما فى حال العقوق، أولئك براء منى وأنا منهم برىء». رواه الدارقطنى.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: أتى رجل النبى ﷺ ومعه شيخ، فقال النبى ﷺ : «من معك؟ قال: أبى قال ﷺ : «لا تمش أمامه، ولا تقعد قبله، ولا تدعه باسمه، ولا تستسب له».

لا تستستب له: اى لا تكن سببًا فى سبه.

وفى قصة حديث أصحاب الغار الثلاثة -التى نذكرها- ما يكفى، وهو حديث صحيح متفق عليه:

عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت بهم صخرة من فوق الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا: إنه ابن ينجيكم من هذه

الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً «والغبوق: الشراب آخر النهار»، فنأى بى طلب الشجر يومًا، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمى «يصيحون من الجوع» فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج منه. وقال الثانى: اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلى، فأردتها على نفسها فامتنعت منى حتى ألمت بها سِنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار؛ على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرت عليها، قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج. وقال الثالث: اللهم إنى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب، فثمرت له أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءنى بعد حين، فقال: يا عبد الله أد لى أجرى فقلت: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق «العبيد» فقال: يا عبد الله.. لا تستهزئ بى، فقلت: لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه ولم يترك منه شيئًا. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون» رواه البخارى ومسلم.

إن الرسول ﷺ قد ذكرنا بهذا الحديث الجامع بنتائج الأعمال الصالحة التى من أهمها -وعلى رأسها- البر بالوالدين، الذى كان من أهم أسباب النجاة من هذا المأزق الذى كاد أن يكون سببًا فى هلاكهم.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاث دعوات مستجاب لهن لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالدين على الولد».

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يمد له فى عمره ويزاد فى رزقه، فليبر والديه وليصل رحمه».

وعن محمد بن النعمان يرفع الحديث إلى النبى ﷺ: «من زار قبر والديه أو أحدهما فى كل جمعة غفر له وكتب بارًا»، أخرجه البيهقى فى الشُعب وابن أبى الدنيا فى كتاب القبور.

وقد امتدح الله تعالى بعض رسله لبرهم بآبائهم وأمهاتهم، فقال تعالى عن يحيى عليه السلام: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) ﴾ [مريم: ١٤].

وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) ﴾ [مريم: ٣٢].

وعن إسماعيل عليه السلام: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وإلى هذا يشير الله سبحانه وتعالى فى قوله:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات: ١٠٢ - ١٠٧].

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بار، لو أقسم على الله لأبره: فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل » - وفى رواية - « إن خير التابعين رجل يقال له أويس وله والدة وكان به بياض، فمروه فليستغفر لكم » أخرجه مسلم.

قيل لعلى بن الحسين: أنت من أبر الناس ولا نراك تؤاكل أمك؟ قال: أخاف أن تسير يدى إلى ما قد سبقت عينها إليه، فأكون قد عققتها.

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا كله ومؤكداً له حيث قال:

« بروا آباءكم تبركم أبناؤكم، وعفوا تعف نساؤكم ».

وقد جاء فى الأثر:

« البر لا يبلى والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، اعمل ما شئت، فكما تدين تدان ».

خاتمة فى هذا الباب

مما يجعل هذه الخاتمة خاتمة حسنة؛ أن يكون ختامها بكلمة موجزة للإمام الشهيد حسن البنا، يلقى فيها الضوء على المكانة العالية للبيت فى الإسلام، وما يضمه فيه من أسرة مسلمة هى القدوة الصالحة: الزوج والزوجة اللذان يقتدى بهما الأبناء ويحدد فيها أدوار الأفراد

المقيمين فى هذا البيت، وما لهم من حقوق، وما عليهم من واجبات نحو بعضهم البعض، يقول رضى الله عنه:

قيمة البيت: إذا كان الإسلام قد أصلح القلوب، ونظم الأوقات، وطهر الأموال، فإنه تعرض للبيت بالإصلاح، ونفذ إليه بالتنظيم، ورفرف عليه بالسعادة، فجاء يرغب المسلمين فى حياة الأسرة، ويحضهم على الاستقرار، ويحببهم فى البيت ومن فيه، ويصفه بأنه نعمة كبرى من نعم الله.

جاء سيدنا معاذ رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ وطلب منه أن يوصيه، فقال ﷺ: «يا معاذ.. أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك».

وليسعك بيتك: هذا المكان الطيب الآمن الذى فيه الزوجة والأبناء والأمهات والآباء، فيه الراحة بعد التعب، والسكون بعد الإجهاد. وإن متاعب الحياة لتزول فى البيت المنتظم السعيد، وإن جراح الأحداث لتمر عليها يد المواساة الرحيمة فى البيت المسلم الذى هو عُش الهناءة ومنبت الطهر، ومكان الوفاء، ومهد العطف والتراحم. وقد تناول الإسلام تنظيم البيت بتنظيم الصلة بين أهله.

الزوج: يقول الرسول ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهل بيته ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، فكلكم راع ومسئول عن رعيته» متفق عليه.

فمسئولية الزوج، كراعٍ فى أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، تلقى عليه تبعات مادية وأدبية داخل البيت وخارجه.

ففى خارج البيت: السعى على كسب ما يسد احتياجات البيت عن طريق شريف حلال، وبقدر يضمن الحياة الكريمة لمن فى البيت.

وفى داخل البيت: التوجيه والنصح، والتقويم والإشراف الكامل؛ بحيث يلتزم جميع من فيه تعاليم الإسلام بكل جدية وصدق، وبهذا الالتزام وحده يسعد كل من فى البيت، ولا تتم هذه السعادة دون «القدوة الحسنة» من الأب والأم، ففاقد الشىء لا يعطيه.

الزوجة: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ [الروم: ٢١].

ويقول النبي ﷺ: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة» رواه ابن ماجة. فالزوجة الصالحة روح البيت، إليها تسكن النفس، وبها تنتظم الحياة، تقوم بتنظيم البيت، وتربية الأبناء، وتنشئتهم على الفضيلة والحق والخير، وإن في أمانتها استقرار الحياة، وفي عنقها طمأنينة الزوج، وفي فضيلتها نجابة الأولاد وصلاحهم، وفي جمالها ونظافتها زينة الحياة، والمتاع الحلال.

فرض عليها الإسلام من الواجبات ما لا يثقل النفس الكريمة، ولا يبهظ الطبيعة المعتدلة، وسوى بينها وبين الزوج في أمور الدين، فهي مطالبة بسلامة العقيدة، وطهارة الذيل، وأداء الفرائض، وأبدلها خيراً من السعي والعمل خارج البيت مملكة هي أساس كل ملك، ودعامة كل مجتمع، «وإن المرأة التي تهز مهد الطفل بيمينها، لتهز العالم بيسارها»، وكفل لها من الحقوق ما خلصها من العبودية، وانتشلها من الجور، فهي إنسان حر كريم، لا يهضم له حق، ولا تهدر له كرامة، وإن ما حققه الإسلام للمرأة ليزري بهذه الاباطيل التي يتشدق بها أولئك الفسقة الذين يدسون لها السم في الدسم، ويلبسون الحق بالباطل.

وإن هذه النداءات المغرضة لصادرة من وحوش هم أعداء المرأة في الحقيقة، إنها أصوات تدعو المرأة للعمل، واحتمال تبعات الحياة في الخارج؛ فتفقد بذلك الحياء والخجل، وهما رأس مالها، وتتعرض عفتها وكرامتها للانهيار، فالرجل الذي يدعو لذلك عدو للمرأة، حليف للشيطان، والمرأة التي تصدق ذلك وتعمل له، لهي عدوة لنفسها ومنساقة وراء الشهوات.

فكرامة المرأة في صيانتها، وعزتها في خدرها، ومكانها اللائق بها، والذي خلقت من أجله هو البيت، ومهمتها الحقيقية التي هيأها الله لها تربية الأبناء، وتكوين الرجال، وما أعظمها مهمة لو فطنت لها المرأة ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. ومن طاعة الله ورسوله أن تفهم المرأة مهمتها، وتقوم بها خير القيام، كما يريد الله ورسوله.

الأبناء: وفي البيت أبناء هم ثمرة الحياة، ومعقل الآمال، كفل لهم الإسلام عطف الوالدين في أنبل الصور، وأقوى الحالات، وأمر الأم أن تحسن الحضانة، وتكمل الرعاية، وأمر الوالد أن يحسن التربية، وكفالة السعادة.

دخل رجل على سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فوجد أبناءه يركبون ظهره،

ويلعبون معه، فقال يا أمير المؤمنين: أنت سيد الناس، ويهابك الملوك، فكيف بك وأنت فى هذه الحال؟! وإن لى عشرة من الأبناء، إذا دخلت البيت، جلس قائمهم، ووقف قاعدهم، وسكت متكلمهم. وكان الخليفة قد ولاه عملاً، فقال له رضى الله عنه:

«إنك غير رحيم بأبنائك، فكيف ترحم المسلمين؟» وجرده من عمله.

هذا هو الإسلام: يجعل الأبوة رحمة وعطفًا على الأبناء، ويجعل السعى عليهم؛ من خير أنواع الجهاد.

وكان الرسول ﷺ فى جماعة من أصحابه فأشاروا إلى شاب قوى جلد، فقالوا: حبذا لو كان هذا الجلد القوى فى سبيل الله؟ فأجاب ﷺ ما معناه: «إن كان خرج يسعى على ضعفيه - «الأب والأم» - فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها عن السؤال فهو فى سبيل الله».

- ومن تمام الفائدة أن نلم بإيجاز عن حياة الإمام الشهيد حسن البنا؛ لنرى فى هذه الحياة القصيرة بعدد السنين - فقد استشهد وعمره (٤٣) عامًا - ولكنها الطويلة العريضة لما أنجز فيها من الأعمال، وعلى رأسها: بعث هذه الأمة الإسلامية من جديد، وتربية جيل يواصل هذا البعث من بعده، وتجديد الفكر الإسلامي، وتنقية الثقافة الإسلامية مما دخلها من الزيف بفعل الاستشراق وأذنابه، ثم تخليص العقيدة الإسلامية مما شابها من أخطاء الجاهلية، وفتاوى المنتفعين، ثم ثباته وتضحيته فى سبيل ذلك بكل ما يملك، وبأعز ما يملك وهو النفس الزكية الطاهرة.

حسن البنا .. الزوج

يقول الإمام البنا رحمه الله: إذا وجد الرجل المؤمن؛ وجدت معه عوامل النجاح .. ويعلق ابنه الأستاذ أحمد سيف الإسلام على هذه العبارة بقوله: إن أشد ما تنطبق هذه الجملة على الإمام نفسه؛ لأن وقته -رضى الله عنه- كان فيه بركة كبيرة، إن العمل الذى يستغرق ساعات، كان الله ييسره له فى دقائق، ومع توفر الإخلاص يستطيع كل أخ أن يقوم بأعمال جمة فى وقت يسير.

كان -رحمه الله- مثلاً أعلى فيما يصدر عنه من تصرفات فى جميع نواحى حياته، وهذا يرجع لإتقانه وحسن دراسته للقرآن الكريم، ووضعه لآياته فى موضعها كروح ونص موحى به، ولتمسكه الشديد بسنة رسول الله ﷺ فى كل دقائق حياته، منذ نشأته الأولى

فى بيئة دينية وعلمية؛ خدمت حديث الرسول ﷺ ، وكأنما هيأه الله سبحانه وتعالى للدور الذى رسمه له فى حياته بعد ذلك.

لم تشغل الدعوة حسن البنا أو تصرفه عن واجباته كزوج مسلم يتمثل قول رسول ﷺ : « خيركم خيركم لأهله، وانا خيركم لأهلى ».

مما جاء فى مجلة لواء الإسلام:

يقول الاستاذ أحمد سيف الإسلام: لقد كان والدى -رحمه الله- يحرص على تطبيق السنة تطبيقاً متناهياً، وحينما تزوج حرص رضى الله عنه أن يعرف أقارب زوجته فردا فردا، وكل من يرتبط بزوجته بصلة رحم، وأحصاهم عددا، وزارهم جميعاً ووصلهم جميعاً رغم بعد أماكنهم أو بعد بعضهم عن البعض بسبب الظروف العائلية المتوارثة.. ولكن الوالد رحمه الله كان يفاجئ والدتى بأنه اليوم قد زار (فلاناً)، وهذا يمت لها بصلة القرابة عن طريق (فلان) لأنه ابن (فلان)، وهذا يرجع إلى دقته المتناهية فى الالتزام بسنة رسول الله ﷺ. كذلك كانت عناية حسن البنا بشئون بيته عناية كاملة غير منقوصة، كان يكتب بنفسه الطلبات، وكل أنواع المواد الاستهلاكية التى يحتاجها المنزل شهريا، ويدفعها فى أول كل شهر إلى أحد الإخوان (وهو الحاج سيد شهاب الدين) رحمه الله -صاحب محل البقالة الشهير ليوفرها كل شهر. وكان رضى الله عنه يشعر بثقل التبعات الملقاة على زوجته، فعمل على أن يكون بجوارها دائماً خادمة تساعدها فى أعمال البيت.

ويصف الأستاذ أحمد سيف الإسلام رقة والده، ورقة مشاعره، يقول:

كان يعود للمنزل دائماً فى وقت متأخر بعد انتهاء العمل مع الإخوان، وأذكر أن مفتاح المنزل كان طويلا، وكنت أسهر فى بعض الليالى للقراءة.. فكان رحمه الله يفتح الباب بالمفتاح الذى معه بمنتهى الحرص والهدوء لكى لا يزعج أحداً من النائمين، فكنت أفاجأ بدخوله.

وتقول ابنته الدكتورة ثناء: لقد كان رحمه الله هادئ الطبع، واسع الصدر، هيِّنا ليِّنا، لم أذكر أن صوته ارتفع على أحد فى البيت لأى سبب من الأسباب.. وكان يعاون والدتى فى بعض أعباء البيت رغم انشغاله بأعباء الدعوة.. لقد كان الوالد -رحمه الله- ملماً بكل صغيرة وكبيرة فى البيت» فكان يومياً يكتب مذكرة صغيرة بكل احتياجات البيت الوقتية حتى يحضرها بنفسه أو يكلف من يحضرها.. وكان يعرف كل شيء يخص البيت؛ لدرجة أنه كان يعرف موعد تخزين الأشياء كالسمن والبصل والثوم.. إلخ.

علاقات متوازنة مع الأبناء: الجانب الوجداني من أهم محددات الشخصية.. فإذا نحن أشبعنا عواطف الطفل بشكل متوازن نشأ إنساناً سويا؛ نافعاً لدينه ثم لأمته، وإذا اختل هذا الإشباع بالزيادة أو النقصان؛ أصيب بالعقد النفسية التي تؤثر في سلوكياته تأثيراً سلبيا، فالزيادة تجعله مدللاً عاجزاً عن القيام بتكاليف الحياة بجد ونشاط، والنقصان يجعله إنسانا قاسياً على كل من حوله..

لهذا كان للبناء الواجداني أهمية خاصة في تربية نفس الطفل وتكوينها، وهذا البناء يقوم فيه الوالدان بالدور الأكبر؛ إذ هما النبع الذي ترتوي منه عواطف الطفل وتتغذى، وهما الركن الركين الذي يحس عنده بالأمن، وينعم في ظله بدفء العاطفة وحنان الأبوة والأمومة.

وليس كالرحمة والحب عواطف تشيع في نفس الناشيء المسلم، فيجعلانه رجل الجهاد والدعوة، لذلك كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالصبيان والعيال:

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى عائشة رضي الله عنها، فأعطتها ثلاث تمرات، فأعطت كل صبي لها تمرة، وأمسكت لنفسها تمرة، فأكل الصبيان التمرتين ونظرا إلى أمهما، فعمدت الأم إلى التمرة فشقتها فأعطت كل صبي شطراً؛ فجاء النبي ﷺ فأخبرته السيدة عائشة، فقال ﷺ: «وما يعجبك من ذلك، لقد رحمها الله برحمتها صبييها»..

وهذا سيدنا عمر رضي الله عنه يقول: «ينبغي للرجل أن يكون في أهله كالصبي - أي في الأنس والبشر، وسهولة الخلق والمداعبة مع أولاده.

وتقول الدكتورة ثناء البنا ابنة الإمام الشهيد عن والدها: كنا لا نحس فيه الغلظة أبدا، بل كان يغمرنا بالمودة والرحمة والعطف.. وكان ينادينا بأحب الأسماء إلينا.

ويذكر الأستاذ أحمد سيف الإسلام: أن والده كان عطوفا إلى أقصى درجة؛ يراعي مشاعر الطفولة في أبنائه بشكل كبير، وكان لديه القدرة على جعلنا نطيعه دون حاجة إلى أمر، وكنا نعتبره بلا شيء؛ له هيبة، دون رغبة في مخالفته..

وكان يدخل البيت فيطمئن على غطاء كل الأبناء، وقد يتناول عشاءه الذي يكون معداً على المائدة ومغطى، دون أن يحرص على إيقاظ أمي أو أحد من أهل البيت لحضوره في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

كما كان رحمه الله كريماً مع أبنائه. يذكر الأستاذ أحمد سيف الإسلام، انه وكل واحدة من شقيقاته كان يأخذ مصروفاً فى سنة ١٩٤٣م ثلاثة قروش، وهذا مبلغ كان يعتبر كبيراً فى هذا الوقت، لان زملائى فى المدرسة لم يكن الواحد منهم يأخذ مصروفاً إلا ربع قرش أو نصف قرش.. تذكرت هذا حينما قرأت فى إحدى المجلات واسمها ومسامرات الجيب، الحديث الذى أجرته مع والدى، فقد سألته: هل تدخر شيئاً من مرتبك؟ فقال: إنى لا ادخر شيئاً؛ لأننى أنفق كل مرتبى، فسأله المحرر: كم تعطى لأبنائك من مصروف؟ فقال: ثلاثة قروش للواحد .

مع الخدم: علاقات إنسانية تقوم على المساواة

الخادم فى البيت المسلم فرد من أفراده، يتساوى مع الجميع فى الحقوق والواجبات.. يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون، ويلبس مما يلبسون، وله فراش للنوم مثلهم تماما، وله -مثلهم- حق العلاج والرعاية إذا مرض أو أصابه أذى. قالت السيدة عائشة رضى الله عنها: عثر أسامة بن زيد بعتبة الباب فشج فى وجهه، فقال لى رسول الله ﷺ: «اميطى عنه الأذى»؛ أى ازيلى عنه آثار الجرح - فتقذرته، فجعل رسول الله ﷺ يمص الدم ويمجه عن وجهه وهو يقول: «لو كان أسامة جارية لكسوته وحليته». وقال عطاء بن يسار: كان أسامة بن زيد قد أصابه الجدرى أول ما قدم المدينة وهو غلام، فكان المخاط يسيل على فمه، فتقذرته السيدة عائشة، فدخل رسول الله ﷺ فطفق يغسل وجهه ويقبله، فقالت السيدة عائشة: «أما والله بعد هذا فلا أُقصيه ابداً».

وللخادم حسن المعاملة الحسنة والتلطف فى الحديث. عن أنس رضى الله عنه، قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لى افٍّ قط، ولا قال لشىء لم فعلت كذا، وهلا فعلت كذا؟. أخرجه الإمام أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود.

يذكر الأستاذ أحمد سيف الإسلام: أنه كان بالبيت خادمة صغيرة، وكان والده رحمه الله يعاملها على قدم المساواة مع أبنائه، فكان لكل منا سرير مستقل، ودرج مستقل فى دولاب واحد. وكان للخادمة أيضاً سرير مستقل ودرج فى نفس الدولارب.. وكان أبى يكلف الشقيقة الكبرى -الأخت وفاء- بأن تعلم هذه الخادمة فى المساء القراءة والكتابة، وأن تعلمها الصلاة، كما أخبرهم الوالد ذات مرة أنه زار (فلانة) إحدى الخادمات بمنزلها بعد زواجها، وكانت قد خدمت بمنزلنا فترة من الزمن، وذلك حينما كان يزور بلدتها فى المنوفية.

وتذكر الدكتورة ثناء أنها عاملت الخادمة ذات مرة معاملة غير لائقة، فأفهمها الوالد أن ما فعلته معها خطأ؛ لأنها أختها في الإسلام، وكان عقابه لها أن أمسك بقلم رصاص، وضربها به على يدها، وكان هذا كافياً ليشعرها أنه غاضب عليها، وكان درساً لم تنسه طوال حياتها.

حسن البنا - المربى

أهمية التربية فى بناء الأفراد والأمم:

فى محاضرته التى ألقاها فى جمعية الشبان المسلمين سنة ١٩٣٠، نشرت مجلة الشبان المسلمين فى العددين الثانى والثالث سنة ١٩٣٠ عن أنجح الوسائل فى تربية النشء تربية إسلامية خالصة، يقول رحمه الله: أستهل هذه المحاضرة ببيان أهمية التربية، وأثرها فى بناء الإنسان:

«أرأيتم بقعة من أديم الأرض أهملت فأنبتت الشوك والسعدان، وصارت قفرا بورا لا تنبت زرعا، ولا تمسك ماءً، وأخرى تعهدها زارع ماهر بالإصلاح والحرث، فإذا هى جنة يانعة تنبت من كل زوج بهيج!!

ذلك مثل الأفراد والأمم؛ إذا أهملها رجال التربية ولم يُعنوا بوسائل إصلاحها ورقيها، وهذا مثلها إذا قاموا عليها بالرعاية، وساروا بها إلى غاية.

فالتربية الصحيحة تهيئ الفرد للمعيشة الكاملة، وتصل بجسمه وروحه إلى الكمال الإنسانى، وترشده إلى حقوقه وواجباته، وهى -لهذا- أكبر مؤثر فى حياة الأمم، وعليها يتوقف مستقبلها، وعنها تنتج عظمتها وسقوطها.

فى الكون كل وسائل السعادة للبشر، أودعها الله فيه يوم أبدعه، ولا ينقص الناس إلا أن يتعرفوا هذه الوسائل ويهتدوا إلى الطريق الموصل إلى استثمارها على وجهها؛ ليحيوا حياة طيبة فى الدنيا والآخرة.

علمت ذلك الأمم الحديثة؛ فكان أول ما تهتم به فى مناهجها إلا صلاحية «التربية»؛ تحدد غايتها، وتعرف أقرب الوسائل للوصول إلى هذه الغاية..

وما أبعد نظر ذلك الطبيب الذى ترك الطب، واشتغل بأمور التربية، ومعالجة مسائلها، فلما سئل عن ذلك كان جوابه: وجدت -بالاستقراء الدقيق- أن معظم أسباب العلل الإنسانية الجسمية والنفسية يرجع إلى نقص فى التربية، فآثرت أن أستأصل الداء من

جذوره؛ باستئصال سببه الاول، على أن أقضى الوقت فى علاج ما ينجم عن هذا السبب، والوقاية خير من العلاج، ولا شك أنى بذلك أقوم بخدمة أعظم للإنسانية بقدر ما بين طب الأمم وطب الأفراد.

وقديما قال الإمام الغزالى: «وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية، وتهذيب الاخلاق، والتغذية بالعلم.. والصبى إذا أهمل فى ابتداء نشوئه خرج فى الأغلب ردىء الأخلاق كذابا حسوداً سارقاً نمّاما لجوجا ذا فضول ومجّانا، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التاديب» من مجلة الشبان المسلمين ص٨٩، ٩٠، ٩١ العدد الثانى - نوفمبر ١٩٣٠.

غاية التربية التى نرجوها لأمتنا «مجلة الشبان المسلمين العدد الثانى سنة ١٩٣٠».

يجب أن نحدد غايتنا من تربية النشىء تحديداً دقيقاً واضحاً؛ حتى يمكننا معرفة الوسائل المؤدية إلى هذه الغاية، وما لم نحدد غايتنا فإننا نسير بالامة على غير هدى.

وبما أن هذا الدين يأمر بالعناية بالشئون الدنيوية، ويحث على السبق فيها مع عدم إغفال أمر الآخرة على حد قول الله تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص: ٧٧]، وعلى حد قوله تعالى: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

فليست التربية الإسلامية تربية دنيوية عملية، كما كانت عند اليونان مثلاً، وليست دينية محضة، كما كانت عند الإسرائيليين قديما، وإنما هى جماع بينهما، كما مدح جرير عمر بن العزيز:

فلا هو فى الدنيا ضيع نصيبه . ° . ولا عرض الد نيا عن الدين شاغله

ونزيد ذلك تفصيلاً فنقول:

غاية التربية المنشودة:

١- تحبيب الإسلام إلى النفوس، والغيرة عليه.

٢- تهيئة السبيل للنجاح فى الحياة.

٣- الدفاع عن المصلحة الدينية والدنيوية، وتنمية الشعور بالغيرة. (المصدر السابق ص ٩٢).

البيت «الأسرة» ودوره فى التربية

ويقول الإمام البنا رحمه الله عن البيت؛ مبيناً أثر البيت كوسيلة من وسائل التربية:

«الطفل أول ما يرى من الوجود منزله وذويه، فترتسم فى ذهنه أول صور الحياة مما يراه من حالهم، وطرق معيشتهم، فتتشكل نفسه المرنة القابلة لكل شىء، المنفعلة بكل أثر بشكل هذه البيئة الأولى، يقول الإمام الغزالى: «الصبى أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يُمال به إليه، فإن عُوِّد الخير وعُلمه نشأ عليه، وسعد فى الدنيا والآخرة أبواه وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك، وكان الوزر فى رقبة القيِّم عليه والوالى له».

ويقول رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه، وإلى هذا أشار أبو العلاء فى قوله:

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وما دان الفتى بحجًى ولكن يعوده التدينَ أقربوه

وإذا كان للمنزل كل هذا الأثر فى حياة الطفل وجب أن يحاط بكل ما يغرس فى نفسه روح الدين والفضيلة» مجلة الشبان المسلمين عدد نوفمبر ١٩٣٠ ص ٩٣.

أساليب تربوية

مارسها الإمام البنا فى بيته

أساليب علمية:

الملاحظة العلمية التى تقوم على مراقبة السلوك، ومتابعة نمو الطفل الجسمى والنفسى والعقلى فى مختلف مراحل حياته، وتسجيل ما يحدث؛ منهج علمى مارسه الإمام البنا فى بيته مع أولاده.

ذكر الأستاذ أحمد سيف الإسلام: كان لكل منا حينما يولد (دوسيه) خاص به، يكتب فيه الوالد بخطه على وجه الدقة: تاريخ ميلاده ورقم قيده، وتواريخ تطعيمه.

ويحتفظ بجميع الشهادات «الروشتات» الطبية التى تمت معالجته بها، بحيث إذا أصيب أى منا بمرض استطاع أن يقدم للطبيب المعالج هذه الشهادات، مسلسلة بتواريخها، ويرفق

مع كل شهادة ملحوظة عامة، ثم ما أخذه من دواء ولمدة كم يوم، وكم استغرق هذا المرض، وهل أكمل الدواء أم لم يكمل.

وكذلك الشهادات الدراسية؛ كان والدى رحمه الله يضعها أولاً بأول فى هذا الدوسيه، مسجلاً عليها بعض الملاحظات مثل: سيف يحتاج إلى التقوية فى كذا، وضعيف فى كذا... وفاء تحتاج إلى المساعدة فى مادة كذا.. وهكذا.. وبالجملة كل ما يختص بأحد أبنائه.

ويقول الأستاذ سيف أيضا: ولعلى أدركت بعد مرحلة معينة من السن أنه -رضى الله عنه وأرضاه- كان يتابع كل تصرفاتى متابعة دقيقة، ولكن دون أن الحظ هذا إلا عندما كبرت، فعندما أستعرض بعض تصرفات الوالد أعرف أنه يتابع تصرفاتى..

إثابة الطفل على العمل الصالح:

مدح الطفل والثناء عليه ومكافأته على أى عمل يجيده أو أى سلوك صالح يسلكه، له أثره التربوى فى تأصيل هذا السلوك لديه وتكراره ونموه.

إن التشجيع الحسى والمعنوى أسلوب ضرورى من أساليب التربية لا غنى عنه، فالتشجيع له دور كبير فى نفس الطفل، وفى حركته الإيجابية، وفى كشف طاقاته الحيوية، كما أنه يفيد فى دفع العمل قدما نحو الأمام بنتائج ممتازة، ويفيد كذلك فى رفع همة الطفل ونشاطه.. أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن الحارث رضى الله عنه:

كان رسول الله ﷺ يصُفّ عبد الله وعبيد الله، وكثيرا بنى العباس رضى الله عنهم ثم يقول: «من سبق إلىّ فله كذا وكذا» قال: فيسبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم.. وفى مواقف أخرى أثنى رسول الله ﷺ على غلام ناشئ تعلم العربية والسريانية لخدمة النبى ﷺ، فيقول له يوم الخندق «أما إنه نعم الفلاح».

يذكر الأستاذ سيف البنا، أنه سأل والده مرة سؤالاً صريحاً: وماذا سنفعل مع الإنجليز إذا لم يخرجوا من مصر؟ فقال رحمه الله: سنرسلك مع كتيبة لإخراجهم بالقوة، وقد رددت عليه حنيئذ ببيت شعر لعنترة بعد أن غيرت فيه الضمير وقلت له:

وسيفك كان فى الهيجا طبيبا ... يداوى رأس من يشكو الصداع

وقد نلت منه فى ذلك الوقت قبلة على جبينى لازلت أتحسس موضعها حتى الآن.

الحزم فى مواجهة الأخطاء:

فى حالة تكرار الخطأ، وعدم الانصياع للتوجيه، أو كانت المخالفة من النوع الذى يحتاج

إلى موقف حاسم من المربى؛ تنشأ الحاجة إلى علاج بالتأديب أو الضرب؛ لكى يحس الطفل بأن الأمر جد لا هزل فيه، فيذوق ألم التأديب فيعرف قيمة العطف والحنان، ويشعر بضرورة الانقياد والطاعة وحسن الخلق وطيب السيرة..

يقول الإمام الكاساني في «بدائع الصنائع»: «إن الصبى يُعزر تأديبا لا عقوبة؛ لأنه من أهل التأديب، ألا ترى ما روى عنه عليه الصلاة والسلام، أنه قال: «مروا صبيانكم بالصلاة إذا بلغوا سبعا، واضربوهم عليها إذا بلغوا عشرا». وذلك بطريق التأديب والتهذيب، لا بطريق العقوبة، لأنها تستدعى الجناية، وفعل الصبى لا يوصف بكونه جناية..».

لقد مر بنا ما قالته الدكتورة ثناء البنا عن موقف والدها عندما أساءت إلى الخادمة، حيث ضربها بقلم رصاص تأديباً لكى تحس بفداحة خطئها، فلا تعود إليه، ونعلق على هذه الواقعة فنقول: إن الوالد كان يغمرهم بالمودة والرحمة، ومع ذلك فقد كان يؤمن بسياسة العقاب.

ولكن عقابه كان يتراوح بين إشاحة الوجه أو إيماءة الرأس أو إشارة اليد، وكان أقصى ما عاقبنى به أن ضربنى بالقلم الرصاص.

ويقول الأستاذ سيف: كان أقصى ما يعاقب به الواحد منا هو قرص الأذن، ففى إحدى المرات قرص أذنى، وهذا أكبر عقاب وقعه علىّ -رحمه الله، قرض أذنى فى الصباح لخطأ ارتكبته، ولكنه اتصل بى تليفونيا فى الساعة الحادية عشرة صباحاً ليطمئن على ويصالحنى، وكان لهذا أثر كبير فى نفسى.

وشد الأذن هى أول عقوبة بدنية للطفل.. إذ بهذه المرحلة يتعرف على ألم المخالفة، وعذاب الطفل الشنيع الذى ارتكبه واستحق عليه شد أذنه، فقد أورد النووى فى «الأذكار» فقال: روينا فى كتاب ابن السنى عن عبد الله بن بشر المازنى الصحابى رضى الله عنه قال: «بعثتنى أمى إلى رسول الله ﷺ بقطف من عنب، فأكلت منه قبل أن أبلغه إياه، فلما جئت أخذ بأذنى وقال: «يا غدر»، من كتاب «منهج التربية السوية للطفل» للأستاذ محمد نور سويد، ص ٣٦٦.

القدوة فى البيت «الأسرة»

مهما يكن من أمر إيجاد منهج تربوى متكامل، ورسم خطة محكمة لنمو الإنسان وتنظيم مواهبه وحياته النفسية والانفعالية والوجدانية واستنفاد طاقاته؛ فإنه لا غنى عن وجود واقع تربوى يمثله إنسان مرب يحقق -بسلوكه وأسلوبه التربوى- كل الأسس

والأساليب والأهداف التى يراد إقامة المنهج التربوى عليها.

فالطفل لابد له من قدوة فى أسرته، ووالداه هم خير قدوة له، فعن طريقهما يتشرب منذ طفولته المبادئ الإسلامية، وينهج على نهجها الرفيع.

ولعل ما أودعه الله فى طبيعة النفس الإنسانية من استعداد للتقليد، هو ما جعل علماء التربية يضعون التربية بالقدوة فى صدارة أساليب التربية، ولنا فى رسول الله أسوة حسنة ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فقد كان ﷺ مربيا عظيماً ذا أسلوب تربوى فذ، يراعى حاجات الطفولة وطبيعتها، ويأمر بمخاطبة الناس على قدر عقولهم؛ أى يراعى الفروق بينهم، كما يراعى مواهبهم واستعداداتهم وطبائعهم.. ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾

[النجم: ٣، ٤].

ويلفت الإمام البنا نظر الوالدين فى البيت إلى أن: «يكونا خير قدوة لابنهما فى احترام شعائر الدين والمسارعة إلى أداء فرائضه، وبخاصة أمامه، وعند حضوره يؤدون الصلاة، ويقصون عليه نبأ الصالحين، فأيقظُ غرائزه فى هذه السن غريزة التقليد، والمثل الأعلى أمامه أبواه ومن يحيط به من ذويه، فعليهم أن يكونوا كما كتب عمر بن عتبة لمؤدب ولده: «ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقبيح عندهم ما تركت»، مجلة الشبان المسلمين عدد نوفمبر ١٩٣٠ ص ٩٥.

لهذا كان حسن البنا يربى بالموقف داخل بيته وخارجه، ويحرص الحرص الشديد على تطبيق سنة رسول الله ﷺ، وهذا ما جعل ابنه سيفًا يقول: إن الإمام حسن البنا خُلق ليكون قدوة فى كل أمر من أموره بما أخذه على نفسه من اتباع سنة رسول الله ﷺ، ولا أتزيد ولا أبالغ أنه رضى الله عنه كان رب أسرة مثالياً. منذ أن وعيت لم أشعر يوما سواء فى طفولتى أو صباى بأنه قصر فى العناية بنا أو الاهتمام بأمورنا، بل لعلنا نعجب حينما نشعر أننا لم نصل إلى درجته فى مثل هذه العناية.

تنمية الفكر والمعرفة

تعتبر فترة الطفولة أخصب فترة فى البناء العلمى للشخصية الإنسانية، حيث يخرج

الطفل من بطن أمه جاهلاً لا يعلم شيئاً، ولكن الله -برحمته وفضله- زوده بوسائل التعليم والمعرفة، ووهبه الاستعداد الكامل لتلقى العلم عن طريق السمع والبصر والعقل والإلهام والوحى؛ حتى ينهض بمهمة الاستخلاف فى الأرض.

والقراءة كانت أول تكليف نزل به الوحى على قلب رسول الله ﷺ؛ لأنها من أهم وسائل المعرفة، ومن هنا يرى الإمام البنا رحمه الله: (ضرورة احتواء المنزل على مكتبة مهما كانت يسيرة، إلا أن كتبها تختار من كتب التاريخ الإسلامى، وتراجم السلف، وكتب الأخلاق والحكم والرحلات الإسلامية، والفتوح ونحوها). ولئن كانت صيدلية المنزل ضرورية لدواء الأجسام، فالمكتبة الإسلامية ضرورية لإصلاح العقول. وما أجمل أن أذكر هنا قول سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه: «إننا لنُرَوى أبناءنا مغازى رسول الله ﷺ ما نرويهم السورة من القرآن».

ولا يجوز للأب المسلم أن يهمل ابنه ولا يراقبه ويدعه دون توجيه لما يقرأ، لهذا: «يجب أن يحول الأبوان دون تسرب الكتب الهازلة والصحف الماجنة إلى ابنهما، لا بالمنع والتهديد؛ فإن ذلك مما يزيد شغفه بها، وإقباله عليها، ولكن بصرفه إلى كتبه نافعة مغرية، وإثارة الميل فيه إلى هذه الناحية الصالحة.

وهنا أذكر شدة حاجتنا إلى كتب فى القصص الإسلامى العام للأطفال؛ تجمع بين تشويقهم إلى المطالعة وملاءمتها لمداركهم وقواهم العقلية، وتزويدهم بالشعور الإسلامى.

والقصص الإسلامى غنى بسير الصحابة والتابعين وأمثالهم رضى الله عنهم».

يذكر الأستاذ أحمد سيف الإسلام عن والده: أنه فى إحدى السنوات نقل جزءاً من مكتبة البيت إلى مقر مجلة «الشهاب»، واشترى عدة مكتبات جديدة للمنزل، وكان نصيبى من هذا التغيير أن فزت بمكتبة صغيرة أهداها إلى الوالد، ومنحنى زيادة فى مصروفى قدرها خمسون قرشاً كل شهر لشراء الكتب بمعرفتى، وتكوين مكتبة خاصة بى.. وبحكم سنى فى هذا الوقت؛ اشتريت عدة كتب من درب الجماميز، ومنها روايات عن المغامرات البوليسية لأرسين لوبين، وشارلوك هولمز وغيرهما، وحينما جاء الوالد متأخراً بالليل وجدنى ساهراً أقرأ فى هذه الروايات باهتمام شديد.. وتركنى ولم ينهن عن قراءتها، ولكن حينما انتهيت من قراءة هذه الرويات قال: سأعطيك شيئا أحسن منها، وبدأ يغرينى ببعض الكتب منها: سيرة الأميرة ذات الهمة، وسيرة عنترة بن شداد، وسيف بن ذى يزن، وبعض روايات

البطولة الإسلامية، ثم بعد ذلك دفع إلى بكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وأرضاه، وغيره من الكتب المفيدة.. وشعرت فى هذه الأثناء أنه يتابع قراءاتى بدقة؛ رغم انشغاله بأمور الدعوة.

حلقة القرآن:

يقول الرسول ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، فينبغى لولى الطفل أن يبدأ بتعليمه القرآن الكريم منذ الصغر، حتى تسرى روح القرآن فى قلبه، وتشع أنواره فى أفكاره ومداركه وحواسه، وحتى يشب على حب القرآن والتعلق به، والانصياع لأمره، والانتهاء عند نهيه، والتخلق بأخلاقه، والسير على منهاجه..

تذكر الدكتورة ثناء البنا أن الوالد -رحمه الله- «كان يجمعنا حوله ويعطينا المصاحف ويقرأ علينا القرآن، ويطلب من وفاء وسيف الإسلام أن يتابعاه بحجة المراجعة، وكان يتعمد تقديم آية أو تلاوة آية شبيهة ليختبر مدى انتباههما إليه، لم أفهم هذا الأسلوب التربوى إلا بعد أن اشتغلت بالتدريس، فقد يتعمد المدرس الخطأ أو النسيان ليختبر مدى استيعاب طلابه وانتباههم».

ويذكر الأستاذ أحمد سيف الإسلام: «كان من عادته -رحمه الله- الاعتماد فى تربيتنا على الأسلوب غير المباشر.. أسلوب التعريض والتلميح لا التصريح..

وكان فى كثير من الأوقات إذا حضر إلى المنزل واستراح قليلاً يستيقظ قبل المغرب بساعة تقريبا، ويدعونى أنا والأخت الكبرى وفاء بدعوى أن نسمّع له القرآن الكريم.. فكنا نمسك المصحف؛ وننظر فيه ووالدى يُسمعنا.. وكان أحياناً يسهو علىّ أن أتابعه، فكان يشير إلى الصفحة التى يقرأ فيها، ويقول: أنا أقرأ هنا!» مجلة لواء الإسلام.

المؤمن المحترف:

إن اله يحب المؤمن المحترف.. المحترف لصناعة مثل أعمال الكهرباء، والاليكترونيات والسباكة والنجارة، وإصلاح السيارات.. إلخ.

وهذا مما جعل رسول الله ﷺ يمسك بيد عامل ويقول: «هذه يد يحبها الله ورسوله» نعم، إن الله يحب المؤمن المحترف.. فسواعد المحترفين هى التى تقيم الحضارات، وتبنى الأمم، وتنهض بالشعوب.

ولعلنا نتذكر أن إمامنا الشهيد قد تعلم حرفة إصلاح الساعات فى دكان أبيه ليوفر دخلا يسد به مطالبه، ويخفف بعض العبء عن والده...

ليت المسلمين ينتبهون إلى هذه الناحية التربوية الهامة التى سادت بها أمم الكفر.

ولعل هذا ما يفسر لنا سر اهتمام الإمام البنا بتعليم ابنه أحمد سيف حرفة منذ نعومة أظفاره... ويقول أحمد سيف الإسلام: أذكر وأنا صغير فى المرحلة الابتدائية أن والدى رحمه الله قال: على كل فرد أن يتقن حرفة، وكان رحمه الله يتقن إصلاح الساعات، فأخذنى فى إحدى الإجازات الصيفية، ودفع بى إلى مطبعة الإخوان المسلمين، وطلب من مديرها الأخ سيد طه أن يتولانى برعايته ويعلمنى شيئًا، وذلك لحرصه على تطبيق السنة: «الله يحب المؤمن المحترف»، ولا أتجاوز إذا قلت إن هذه الفترة القصيرة نفعتنى كثيراً فى حياتى العملية بعد ذلك.

لقد كان العمال وأصحاب الحرف فى جماعة الإخوان المسلمين من أحب الفئات إلى الإمام البنا، وكان يعول كثيراً عليهم فى دعوته، وينصح الإخوان ويقول: «عليكم بأصحاب الأيدى الخشنة».

ربط الطفل بالأندية والأنشطة الإسلامية وتجنيبه أماكن اللهو والفسق والفجور:

الأندية فى الأمة المجاهدة وسيلة من وسائل التربية لإخراج أجيال جادة عاملة مجاهدة... هذه الأندية لها أثرها العظيم فى صرف الناشئ عن كل ما يخالف الدين والخلق الحسن، كالمسارح الهازلة والمراقص الخليعة والمقاهى الموبوءة.

يذكر الأستاذ أحمد سيف الإسلام أن والده عرّض له بأن دخول السينما أمر لا يليق بالمسلم، ولذلك لم يحاول أن يدخل السينما قط، بل ظل حتى اليوم لم يدخلها، وهذا من قوة تأثير الوالد...

ولا يُترك الطفل دون شغل فراغ نفسه، ولذلك يوجه الإمام البنا رضى الله عنه أولياء الأمور، فيقول: ويجب على ولى أمر الناشئ أن يصحبه إلى الجمعيات الإسلامية، والاحتفالات البريئة، التى تتجلى فيها مشاهد جلال الإسلام وروعته كالجمعة والعيدين، وأحفال الذكريات الإسلامية.

لذلك تذكر الدكتورة ثناء أن والدها -رحمه الله- كان يصحب معه دائمًا شقيقتهم الكبرى وفاء زوجة الدكتور سعيد رمضان -رحمه الله- فى جميع المناسبات واللقاءات التى

بها نساء، وكان يأخذها معه أيضا إلى مقر الأخوات المسلمات عندما كان يلقي عليهن الدرس، وهي أول من ارتدت الحجاب وهي صغيرة السن.

التربية الاجتماعية والوطنية:

يذكر الأستاذ سيف أن الوالد رحمه الله كان يعطيهم مبالغ غير المصروف اليومي في كل يوم جمعة ويطلب منهم توزيعها على بعض الفقراء في المسجد، وفي ذلك تعويد لهم على حب العطاء والعطف على الفقراء، وأردف أحمد سيف الإسلام يقول:

لقد عاصرت والدى الإمام الشهيد لمدة عامين وأنا طالب بالمرحلة الثانوية، وكان دخول المرحلة الثانوية هو الميلاد السياسي للشاب في ذلك الوقت، لأنه يستطيع أن يشترك في المظاهرات الوطنية، وقد التحقت بقسم الطلاب في جماعة الإخوان المسلمين في هذه المرحلة، وأذكر أن الذى كان يرأسه في ذلك الوقت الأستاذ فريد عبد الخالق، وكان زملائي في القسم مجموعة من طلاب مدرسة بنياقادن الثانوية، وكان مقرها بشارع إلهامي بالحلمية، بالقرب من المركز العام للإخوان المسلمين، وكنت على وعي تام بما يجرى في هذا الوقت من أحداث من واقع النضج السياسي الذى كانت تعيشه المدرسة الثانوية آنذاك وكانت تتمثل فيها كافة طوائف الأحزاب وأبرزهم الإخوان والوفد.

في هذا القدر المحدود الذى كشف فيه النقاب عن بعض جوانب من حياة الإمام الشهيد حسن البنا في بيته؛ عرفنا أنه رضى الله عنه يوازن بين حقوق دعوته وبين حقوق بيته عليه، فقد وضع لبيته نظامًا يكفل فيه قيام العلاقة على الود والحب والرحمة، ويضمن متابعته له في كل الأوقات، وكثيرا ما كان يعود متأخرا بالليل، فيجد الأهل قد ناموا، وتكون الابنة الكبرى(وفاء) في انتظاره، فيسألها عن جميع من بالبيت، فقد كانت بمثابة سكرتيرة له في البيت؛ تعويداً لها على تحمل المسئولية...

لقد كانت عين حسن البنا التي لا تنام عن دعوته ساهرة أيضا على أسرته، لا تغفل عن أى أمر من أمورها.

الأسرة المسلمة القدوة

كتب تحت هذا العنوان الأستاذ مصطفى مشهور المرشد العام للإخوان المسلمين يقول:

مكانة الأسرة فى الإسلام

تعتبر الأسرة المسلمة أو البيت المسلم من أهم المؤسسات فى حياة المسلمين عامة وفى منهاج العمل الإسلامى بصفة خاصة، ويرجع ذلك إلى الدور الكبير المنوط بالأسرة فى تنشئة الاجيال، وصناعة الرجال الذين هم عدة المستقبل وركائز البناء، ودرع الأوطان.

والمجتمع فى أى دولة عبارة عن مجموعة من الأسر، فبقدر سلامة الأسرة وأصالتها تكون سلامة المجتمع وأصالته، وبالتالى قوة الدولة وصلابتها، وسلامة بنيانها. أما إذا انهارت الأسرة؛ انهار تبعا لها المجتمع ثم الدولة.

ومقياس سلامة الأسرة وأصالتها لا يكون بالجوانب المادية الدنيوية فقط: كالصحة ومستوى السكن، والغذاء واللباس، والمستوى الاجتماعى والثقافى إلى غير ذلك، ولكن أسباب القوة والأصالة فى الأسرة المسلمة تتمثل أول ما تتمثل فى التزام أفراد الأسرة بالإسلام عقيدة وعبادة وأخلاقا وآدابًا ومعاملات، بحيث يهيمن الإسلام على جو الأسرة تماما، فنرى الإسلام واضحا فى كل جوانب حياة الأسرة والبيت فى كل صغيرة وكبيرة، فى المخبر والمظهر فى المطعم والمشرب، فى الأثاث واللباس، فى الأفراح والأتراح، فى العادات والتقاليد، فى علاقة أفراد الأسرة مع بعضهم بعضا، فى اتباع هدى الرسول ﷺ فى أعمال اليوم والليلة، والأدعية المأثورة، فى كل تلك الأحوال، ترى الإسلام فى كل صغيرة وكبيرة فى حياتها، فى مواعيد النوم والاستيقاظ، وفى معاملة الخدم، وفى العلاقة مع الجيران، وفى حدود العلاقة مع المحارم وغيرهم من الأقرباء إلى غير ذلك من الأمور، فنرى الأب رب الأسرة يقوم بواجبه نحو زوجته وأبنائه، ويكون نعم الراعى لرعيته، وكذلك الأم تقوم بواجبها نحو زوجها وابنائها، وكذلك الأبناء يقومون بواجبهم نحو أبيهم وأمهم بما يمليه عليهم الإسلام من البر والإحسان والطاعة فى غير معصية، وهكذا يسود المناخ الإسلامى جو البيت المسلم القدوة، فتنشب فيه الذرية صالحة وتكون بحق قرة أعين للوالدين، وذخرا للأمة.

وفى المقابل يخلو جو الأسرة المسلمة القدوة من اللهو المحرم واللغو والإثم، ومن العادات الجاهلية، ومن المحرمات فى المطعم والمشرب والملبس والمقتنيات، ويخلو من الإسراف والترف، وما نهى عنه الإسلام. وبذلك يصبح الافراد المسلمون، والبيوت المسلمة فى المجتمع المسلم بمثابة القاعدة الصلبة التى يقوم عليها بناء الحكومات المسلمة مستقرة قوية، ليتم ذلك على مستوى الشعوب الإسلامية.

والفرد المسلم القدوة هو الذى يقيم البيت المسلم القدوة، كما أن البيت المسلم القدوة

هو الذى يُخرج الأفراد المسلمين القدوة، وهكذا يتم توريث الأصالة الإسلامية للأجيال بقوة واستمرارية.

وإذا حدث تقصير فى هذا التوريث تعرضت الأسرة والأفراد إلى هبوط المستوى والانهيار، خاصة وأن دعاة الشر والفساد لا يألون جهداً فى غزو أفرادنا وبيوتنا بكل ألوان فسادهم وشرورهم.

أساس بناء الأسرة المسلمة القدوة

تقوى الله هى الأساس المتين الذى يقوم عليه بناء الأسرة المسلمة القدوة فيكون اختيار الزوج لزوجته حسب توجيه الرسول ﷺ بأن تكون ذات دين، وليس لجمالها أو مالها أو حسبها، وتكون موافقة الزوجة وأهلها على الزوج لأنه ذو خلق ودين وأمانة، فيتأسس البيت المسلم هكذا على التقوى من أول يوم، وتصبح المقاييس الربانية، والآداب الإسلامية هى التى توجه وتضبط خطوات بناء هذا البيت ابتداءً من الخطبة والعقد والدخول، وما بعد ذلك، وتسيطر النظرة الإسلامية الصحيحة للزواج والحياة الزوجية، بخلاف النظرة المادية التى تقوم عليها بعض الزيجات وتصير المقاييس المادية هى أسلوب التعامل فى حياة الأسرة؛ فسرعان ما يحدث الخلاف ويتعكر جو الأسرة؛ لعدم الرجوع إلى الضوابط والمقاييس الإسلامية التى تحدد السلوك والرغبات، ويلتزم بها الزوجان.

حقيقة السعادة الزوجية

يخطىء من يظن أن السعادة الزوجية تتحقق من خلال الماديات؛ كوفرة المال، وتهيؤ المسكن الجميل والأثاث الفاخر، والمرتب المريح، والملابس المتنوعة، والأدوات الحديثة فى البيت، والطعام الشهى، وأسباب الترف، وإشباع الشهوات إلى غير ذلك من الأمور، ولسنا مغالين أو بعيدين عن الواقع إذا قلنا: إن الكثير من الفتيات يسيطر عليهن هذا التصور الخاطئ لحقيقة الأسرة السعيدة، وتكون أحلامهن الوردية لعش الزوجية من خلال هذه النظرة المادية القاصرة.

والحقيقة التى نحب أن يعلمها شبابنا المسلم وفتياتنا المسلمات؛ أن السعادة الزوجية الحقة لا تتحقق من وراء هذه الماديات التافهة الغانية، فكم نرى من هم فى القصور وسط الخدم والحشم ولا سعادة زوجية حقة يعيشونها، ونرى السعادة الزوجية متحققة بين زوج وزوجته يعيشان فى كوخ صغير.

إن السعادة فى عمومها من داخل النفس، وليس من خارجها؛ من تقوى الله التى يفيض بها الله تبارك وتعالى على عباده المتقين، وصدق الشاعر الذى يقول:

ولست ارى السعادة جَمْعَ مال   ولكن التقى هو السعيد

فحينما تتوفر التقوى لدى كل من الزوج والزوجة تتحقق لهما السعادة الزوجية الحقة، فتقوى الله تعنى مراقبة الله تعالى أولا، وتحرّى كل ما يرضيه، وتجنب كل ما يغضبه والتزام كل منهما توجيهات الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة فى حياتهما وواجباتهما وحقوقهما، ولا شك ان فى ذلك السعادة والخير، لانها توجيهات من لدن حكيم خبير، وبعباده رؤوف رحيم، وإرشادات من الرسول الكريم الذى لا ينطق عن الهوى، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم، وعزيز عليه ما عنتم، وحريص عليهم وعلى ما فيه خيرهم.

ثم إنه بتوفر التقوى عند عمادى الأسرة (الزوجين) تتوفر الثقة بينهما، فيطمئن أنها له وحده، وتطمئن هى أنه لها وحدها، ولا سبيل حينئذ للشك والظنون والرِّيب، وغير ذلك مما يعكر صفاء الأسرة ويكون على حساب السعادة والمودة.

وبتوفر التقوى يتحقق السكن، وتوجد المودة والرحمة بينهما مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم: ٢١].

والمسلم الذى يتقى الله ينظر إلى الزواج على أنه عبادة يتقرب من خلالها إلى الله بحسن أداء واجبه نحو زوجته وبيته وأولاده، كذلك المسلمة التى تتقى الله عز وجل تعتبر الزواج عبادة وتسعى لنيل رضوان الله بحسن قيامها بواجبها نحو زوجها وبنيها وأولادها.

وهكذا على مثل هذه الأسرة تتنزل السكينة والرحمة والمودة والسعادة.

هناك أمر قد يكون على رأس الأمور ذات الأثر البالغ فى حياة الأسرة بالسلب أو بالإيجاب، بالسلب إذا لم يكن هذا الأمر موضع تفاهم كامل واتفاق أكبر، وبالإيجاب إذا كان التفاهم والاتفاق أساسا لكل صغيرة وكبيرة فى شئون الأسرة.

الا وهو:

ميزانية الأسرة المسلمة القدوة

نلاحظ أن البعض ممن بسط الله لهم الرزق يتوسعون فى أبواب الصرف باقتناء أكثر من

سيارة، وعدد غير قليل من الخدم، ويبسطون أيديهم بالمال بلا حساب للأولاد، وقد يؤدى ذلك إلى أن يفسد الاولاد وينحرفون إلا من عصم الله، إضافة إلى قضاء رحلات خارج البلاد للترفيه والمتعة وحسن السمعة، تتكلف هذه الرحلات أموالا طائلة، وقد يتعرضون خلال ذلك الترفيه إلى فتن ومفاسد وآثام.

ونرى أسراً من محدودى الدخل، لا ينظمون معدل إنفاقهم ليتناسب مع مواردهم فإذا هم يقعون فى أزمات، وقد يلجأون إلى الاستدانة، وقد تتراكم عليهم الديون. ويقول بعض ذوى الخبرة: إن المرأة والطفل الصغير يظنان أن الرجل على كل شىء قدير، فيحملونه ما لا تتحمله موارده، و قد يتسع الخلاف ويؤدى إلى تصدع الأسرة لذلك كله وغيره كثير نوصى الأسرة المسلمة القدوة بالآتى:

أولا: وقبل كل شىء، تَحرى الكسب الحلال الطيب، والبعد والتحرز من الحرام الخبيث، فكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به، وما أجمل وصية الزوجة المسلمة الصالحة لزوجها عند خروجه للعمل فى الصباح إذ تقول له:

«اتق الله فينا فلا تطعمنا إلا من حلال، فإننا نصبر على الجوع أياما، ولكننا لا نصبر على نار جهنم ساعة واحدة».

ثانيا: التشاور بين الزوج والزوجة فى ميزانية البيت، وأبواب الإنفاق على ألا يتجاوز الإنفاق وأبواب الصرف الواردات (الكسب)، بل جب أن يكون هناك جزء مدخر للطوارئ، وبهذه الطريقة تستشعرُ الزوجة مسئوليتها فى عدم تجاوز الميزانية والاقتصاد فى الصرف.

ثالثًا: الاكتفاء بالضروريات، والبعد عن الكماليات ما أمكن فى هذه الظروف العصيبة، وعدم إتاحة الفرصة لانحراف الأولاد بكثرة المال فى أيديهم.

رابعًا: مراعاة حق الله بأداء الزكاة فى وقتها، وأداء فريضة الحج إذا توفرت الاستطاعة والتعود على الإنفاق فى سبيل الله، وإعانة الفقراء والمساكين، وتعويد أفراد الأسرة على ذلك، ويحسن أن يكون لدى الأسرة صندوق خاص للتبرع لأبواب الخير وللجهاد يُودع فيه أفراد الأسرة ما تيسر لهم إنفاقه فى هذا السبيل.

وفى العطلات الصيفية يدرب من كبر من الأولاد أو البنات على تسليمهم مصروف البيت الشهرى مدة شهر لكل منهم بإشراف الأم ليتدربوا على حسن توزيع المبلغ على أيام الشهر، وحسن اختيار احتياجات المنزل، وفى ذلك تأهيل لهم قبل الزواج، وما أجمل

حديث رسول الله ﷺ : «من بات آمنا فى سربه معافىً فى بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها». رواه الترمذى وابن ماجة عن عبد الله بن محصن.

صلة الأرحام والعلاقة بذوى القربى

على الأسرة المسلمة القدوة أن تتبع ما حث عليه الإسلام من صلة الأرحام والإحسان إلى ذوى القربى، ولا شك أن لذلك أثره فى دعم الصلة والوشائج فى المجتمع المسلم بما يحقق جو التعاون والتكافل والتراحم بين المسلمين، فقد قال الله تعالى:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦)﴾ [النساء: ٣٦].

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

«من سره أن يُمدَّ له فى عمره، ويوسَّع له فى رزقه، ويُدفَع عنه ميتة السوء، فليتق الله، وليصل رحمه» متفق عليه.

أخرج البخارى والترمذى وأحمد عن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ قال:

«ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذى إذا قَطَعت رحمه وصلها».

فعلى الزوج فى الأسرة المسلمة القدوة أن يحرص على احترام أسرة الزوجة وإكرامها، وخاصة والديها؛ بحيث يشعرون وكأنه ابنهم، وذلك بجانب بره وإحسانه لأسرته هو وخاصة والديه، وعلى الزوجة المسلمة مثل ما على الزوج تماما فى هذا السبيل.

وننبه ونؤكد -فى العلاقات واللقاءات مع الأقارب- أن تراعى آداب الإسلام وتعاليمه؛ من حيث التحجب وعدم الخلوة بغير المحارم.

صلة الأسرة المسلمة بالجار

لقد اهتم الإسلام بالتوصية بالجار والإحسان إليه كما قرأنا فى الآية السابقة من سورة النساء، أما الأحاديث النبوية الشريفة فمنها:

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ

جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت » متفق عليه.

وعن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال:

« ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » متفق عليه.

وعن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

« يا أبا ذر إذا طبخت فأكثر المرقة وتعاهد جيرانك، أو قسم بين جيرانك ». رواه مسلم والترمذى وابن ماجة.

حول المعارف والأصدقاء

الأسرة المسلمة ليست فى عزلة عن المجتمع، ولابد أن يكون لها معارف وأصدقاء، لذا يلزم التفاهم بين الزوج والزوجة حول تحديد دائرة المعارف والأصدقاء؛ لكى يتم حسن الاختيار لهم، وتفادى التورط فى العلاقات مع أحد من أهل السوء. كما يلزم تحديد مدى العلاقات؛ بحيث تكون بالقدر المناسب الذى يحقق الخير ويحول دون السلبيات والمتاعب. وعلى الأسرة المسلمة القدوة أن يكون القصد الأول من هذه الصلات؛ تحقيق الخير للدعوة الإسلامية، بأن يتحقق من خلالها الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى، وربما كان مناسبا إعداد لقاءات للتفقه فى أمور الدين للرجال، وأخرى للنساء، مع تجنب كل ما نهى الله ورسوله عنه من غيبة أو نميمة أو غيرهما، كما يُعتنى أيضا بالأطفال، ويتم توجيههم فى تخير الأصدقاء.

ولا يخلو الأمر من تبادل الهدايا، فعلى الأسرة المسلمة القدوة أن تحسن اختيار الهدايا النافعة للجانب الإسلامى؛ كالمصحف الشريف أو الكتب الإسلامية النافعة، أو غير ذلك مما يفيد الكبار والصغار.

حول الضيوف وإكرامهم

إكرام الضيف أيضا من الفضائل التى يحث عليها الإسلام، وهى فضيلة تؤكد روح الأخوة والمودة والتعاطف بين المسلمين، وحينما تسود هذه الفضيلة ونحوها مجتمعنا يشعر كل فرد فيه أنه بين أهله أنَّى ذهب، وحيثما حل، بخلاف المجتمعات الأوروبية المادية وغيرها التى تفقد هذه الفضائل، بل حتى بر الوالدين والإحسان إليهما لا يكادان أن يوجدان؛ لأن الأسرة كأسرة متماسكة مفقودة، وطغت المادة على العلاقات فأفسدتها.

لكننا فى المجتمع الإسلامى، نجد الإسلام بحث المسلمين على المشاركة والتعاون فى قرى الأضياف إذا كثروا، كما حدث مع أهل الصفة، ويراعى عدم الإسراف أو الكلفة.

والأحاديث حول إكرام الضيف كثيرة، وقد أوردنا أحدها عند الحديث عن الصلة بالجار.

وعن عبد الله بن عبيد بن عمير قال دخل على جابر بن عبد الله نفر من أصحاب النبى ﷺ، فقدم إليهم خبزا وخلا فقال: «كلوا، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نعم الإدام الخل».

إنه هلاك بالرجل أن يدخل عليه النفر من إخوانه فيحتقر ما فى بيته أن يقدمه إليهم، وهلاك بالقوم أن يحتقروا ما قدم إليهم». رواه أحمد والطبرانى. ولعل قوله: إنه هلاك بالرجل... الخ من كلام جابر مدرج غير مرفوع، والله أعلم.

وعن أبى شريح الخزاعى قال قال رسول الله ﷺ :

«الضيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة، ولا يحل لرجل أن يقيم عند أحد حتى يُؤثمه قالوا يا رسول الله فكيف يُؤثمهُ؟ قال: «يقيم عنده وليس له شيء يُقريه» متفق عليه. «يقربه: أى يقدم له حق الضيف».

الزوج والأب المسلم القدوة

بعد أن تناولنا هذه الأمور العامة المتصلة بالأسرة المسلمة القدوة، يجمل بنا أن نتناول العناصر المكونة للأسرة المسلمة كُلاً على حدة، كالأب أو الزوج، والأم أو الزوجة، والابن والابنة، كى يتعرف كل منهم على واجباته الإسلامية نفسه ونحو غيره.

«ولا يظن القارئ الكريم أننا نكرر المفاهيم فى الكلام عن الأسرة، وإنما أردنا أن يقف القارئ الكريم على آراء كل الشخصيات المؤثرة فى المجتمع حول هذا الأمر أو الأسرة؛ لما لها من تأثير عميق فى مد المجتمع المسلم بالرجال والنساء الذين يعلو بهم شأن المجتمع، وبالتالى يعلو شأن الأمة الإسلامية وتتبوأ مكانها الذى قرره القرآن الكريم فى قول الله تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله جل شأنه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فليست فى الامر تكرار، ولكنه زيادة إيضاح وبيان، والله الموفق.

نعود إلى شخصيات الأسرة المسلمة القدوة؛ لنرى ما على كل فرد فيها من الواجبات:

الزوج والأب القدوة

١ - عليه أن يستشعر مسئوليته العظيمة والثقيلة أمام الله عن رعايته للأسرة وأنه مسئول عن كل فرد فيها، وعن كل ما يتعلق به بدنيا وروحيًا وعقليا وخلقيا، وأساسها وأهمها: هو الجانب الروحى؛ أى ما يتصل بالعقيدة والتربية الإسلامية التى تترتب عليها الحياة المصيرية فى الآخرة، فالله تعالى يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم: ٦] وكذا حديث رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته»...

٢ - عليه أن يكون قدوة حسنة لزوجته وأبنائه من حيث تمسكه بتعاليم الإسلام، وقيامه بتكاليفه، والتخلق بأخلاقه، فذلك خير له ويجعله أقوى تأثيرا فى توجيهه ورعايته لأفراد الأسرة، بخلاف ما إذا كان مقصرا فى شىء من ذلك، فإنه يفقد بذلك صلاحيته للتوجيه؛ حيث إن فاقد الشىء لا يعطيه.

٣ - على الزوج أن يحسن معاملته لزوجته، فهذا واجب إسلامى حثنا عليه رسول الله ﷺ قولا وعملا، وهو ﷺ قدوتنا، وحديثه الذى يقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى» يؤكد هذا المعنى. ولا شك أنه بقدر حسن العلاقة بين الزوجين فى ظل تعاليم الإسلام تتحقق الحياة الطيبة للأسرة كلها، والعكس كذلك، فالمطلوب أن يسود جو المودة والرحمة والسكن، ولا يجد الشيطان سبيلا للدخول بينهما.

٤ - على رب الأسرة أن يحرص على إضفاء الجو الإسلامى على الأسرة والبيت، حتى تكون الحياة كلها فى الأسرة تسير وفق تعاليم الإسلام، وتخلو مما فيه مخالفة أو إثم، بل وتتنزه عن الشبهات، فتكون العبادة وتلاوة القرآن وذكر الله ورقابته وخشيته هى الجو الغالب، وينحسر الصخب والسباب والغيبة والكذب وغير ذلك من الآثام.

■ - على الزوج المسلم القدوة أن يتيح الفرصة لزوجته فى مشاركتها وتعاونها معه فى تحمل مسئوليات الأسرة، وحل مشكلاتها، فالأسرة كشركة مديرها الرجل، وللزوجة دور

كبير في حسن سير الحياة داخل الأسرة، فلا يجوز للزوج أن يهمل دورها أو أن يجنح إلى أسلوب الأوامر والتسلط والاستبداد بالرأى.

وسبق أن ذكرنا موضوع التفاهم حول الميزانية وحسن توزيعها والالتزام بها كمثال لهذا التعاون.

٦ - ومن أهم ما يتعاون فيه الزوج مع زوجته حسن تربية الأولاد، وتنشئتهم تنشئة إسلامية ليكونوا حقا قرة أعين لهما، وعناصر بناءة في المجتمع الإسلامي، وإن أى إهمال في تربيتهم سيجعل منهم مصدر شقاء وإعنات لوالديهم، وعناصر هدم وفساد في المجتمع، والآيات والأحاديث تحث على هذا المعنى، فيقول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾ [الفرقان: ٧٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» رواه مسلم وغيره. وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«قاربوا بين أبنائكم»؛ يعني سَوّوا بينهم، وفي لفظ: «اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم»؛ يعني في العطية أو الهبة. متفق عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها أن امرأة دخلت عليها ومعها ابنتان لها؛ قالت فأعطتها تمرة فشقتها بينهما، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال:

«من ابْتُلى (أى اختُبِر) بشيء من هذه البنات، فأحسن إليهن كن له سترا من النار» متفق عليه.

ويراعي الزوج والزوجة تعويد أولادهما على الثقة بأنفسهم، وعلى الشجاعة وحب الجهاد، كما يراعي حسن اختيار لعب الأطفال بما يحقق مثل هذه المعاني في نفوسهم. كذلك يراعي تشجيع الأولاد على الاهتمام بالدراسة والتفوق فيها، وتقديم الهدايا والجوائز لهم.

٧ - على رب الأسرة أن يضفي جو البهجة على الأسرة، ويحقق لهم ألوانا من التسرية والترويح الخالية من الإثم، حتى لا يلجأ الأولاد إلى التسرية في مجالات آثمة، كالرحلات في الأماكن البعيدة عن مظاهر الإثم، وكالعمل في الحديقة المنزلية إن وجدت وتَعَلمّ بعض الأمور: كالإسعافات الأولية، أو مبادئ في السباكة أو الكهرباء أو

التجارة أو غير ذلك، ويراعى الحرص على جو الحب والمودة بين الأولاد، وعدم تنازعهم وسريان روح العداء والبغضاء بينهم، وتعويد المخطئ على الاعتذار لمن أخطأ فى حقه، وتعويد الآخر على التسامح وقبول الاعتذار.

٨ – وعلى رب الأسرة الأب أن يكون يقظ الضمير حذرا مما تحذر منه الآيات الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن: ١٤ – ١٦]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩].

٩ – وعلى الأب الزوج المسلم القدوة أن يعمل على الارتقاء بمستوى أفراد أسرته الإيمانى، وما يمليه عليه هذا الإيمان، من واجبات العمل والجهاد والتضحية فى سبيل تحرير الوطن الإسلامى، والتمكين لدين الله فى الأرض.

كذلك التهيؤ لما قد يتعرضون له بسبب ذلك من امتحانات وابتلاءات، وضرورة الصبر والتحمل والرضى؛ أسوة برسول الله ﷺ وصحابته رضى الله عنهم.

١٠ – على رب الأسرة المسلمة القدوة أن يكون معتدلاً فى أسلوبه فى حياة الأسرة، فلا يجنح إلى القسوة والشدة، ولا إلى اللين والتساهل، فكلاهما يفسد جو الأسرة ويخرجها عن رسالتها، وأن يكون معتدلاً كذلك بين الإسراف والتقتير، وبين التضييق والتسيب.

١١ – وعلى الزوج والزوجة إحسان المعاملة فى الخدم، ومن يكفلونهم من يتامى أو غيرهم.

الزوجة والأم المسلمة القدوة

المرأة – كزوجة أو أم – دعامة قوية فى كيان الأسرة وعامل استقرار أساسى فى البيت، بل إن البيت هو مملكتها كما يقولون. وعلى عاتقها يقع العبء الأكبر فى تربية الأولاد وصناعة الرجال، ولا تتحقق الأسرة المسلمة القدوة؛ إذا توافرت الصفات المطلوبة فى رب الأسرة فقط؛ دون أن تتوافر الصفات المطلوبة فى الزوجة أيضا. ولقد فطن الأعداء إلى دور المرأة المؤثر فى الأسرة والمجتمع؛ فاتخذوا منها وسيلة لنشر الرذيلة، وشيوع الفساد؛ لذا وجب على العاملين للإسلام أن يهتموا بالمرأة المسلمة، وأن يجعلوا منها وسيلة لنشر الفضيلة والخير، ودعم كيان الأسرة والمجتمع، وتنشئة الأجيال الملتزمة بإسلامها.

لذلك نوصى الزوجة الأم المسلمة القدوة بالآتى :

١ - أن تؤمن فى قرارة نفسها بدورها الكبير، وأثرها الفعال فى جو الاسرة وحياتها، وانها بسلوكها وحكمتها ويقظتها، وحسن مراقبتها لله تعالى، يمكنها ان تجعل من البيت جنة يأوى ويحن إليها الزوج والأولاد؛ يستروحون فيها من لفح الحياة ومتاعبها خارج البيت .

٢ - عليها أن تقوم بواجبها ودورها الاساسى فى تربية الابناء ورعايتهم، فهى أشد احتكاكًا بهم، وهم أشد حاجة إليها فى مرحلة بناء شخصيتهم ونموهم، ويلزم التنسيق بينها وبين الأب فى أسلوب التربية؛ بحيث يتكامل البناء والتكوين، ولا يحدث تعارض أو تضاد بين الاسلوبين، فاحيانا نرى أن عاطفة الام نحو أولادها إذا لم تكن منضبطة تكون سببا فى تدليل الاولاد أو تمردهم على سياسة والدهم وأسلوبه معهم، كما نرى بعض الآباء والأمهات يعطون الاهتمام الاكبر بصحة ابنائهم، ولا يحظى تدينهم بمثل هذا الاهتمام، فى حين انه الاولى، وعلى الام أن تتعرف على العادات والاخلاق السيئة التى قد يتعرض لها الابناء خارج البيت؛ لتحميهم من التاثر بها، وأن تتابع أصدقاء أولادها ونوعياتهم بحيث تجنبهم - بمعاونة الوالد - صداقة قرناء السوء، وتطبق آداب الإسلام وتعاليمه عليهم من حيث التوجيه الدينى، وتعليم الصلاة لسبع سنين، والضرب عليها لعشر سنين، ومن حيث التفريق بينهم فى المضاجع، وتعويد البنات على الحياء وتقبل الزى الإسلامى عندما يبلغن سن الحيض أو قبله بقليل .

وعلى الام الا تعتمد على المربيات إلا لضرورة ملحة، كما لا تعتمد على الرضاعة الصناعية إلا لضرورة صحية .

٣ - لكى نلمس الأثر الفعال، وتتضح الصورة، نقارن هذه الصورة المشرقة للاسرة المسلمة القدوة بأن نتصور بجانبها أسرة مسلمة لم تتوافر فى الزوجة الصفات التى ذكرناها، ولم تقم بالواجبات التى تعرضنا لها، بل ربما قلبتها راسا على عقب، وجعلت من البيت جحيما، وميدانا للخلافات والنزاعات، والمخالفة لآداب الإسلام وتعاليمه، ولا يجد الزوج ولا الاولاد فيه جو الاسترواح والهدوء، وكيف يجد الزوج من المشقة والإعنات، ويتعرض الاولاد إلى الضياع!

٤ - وعلى الزوجة المسلمة القدوة أن تتعرف بدقة على واجباتها نحو زوجها وحقوقه عليها فتؤديها؛ تعبدا لله، وطمعا فى ثوابه، وأن تراعى مشاعره، وتمتص همومه، وتحفظ سره

وغيبته، وأن تتعاون معه فى الأمور التى أشرنا إليها عند حديثنا عن الزوج المسلم القدوة، وخاصة تربية الأولاد، وصلة الأرحام.

■ - على الزوجة المسلمة القدوة أن تشجع زوجها على القيام بواجباته نحو إسلامه من عمل متواصل وتضحية وجهاد، وإلا تكون مثبطة له أو فتنة معوقة له، وأن يعيشا معا ما تعنيه الآيات الكريمات: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ [الروم: ٢١]، ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)﴾ [الأحزاب: ٣٥].

٦ - وعليها أن تحسن اختيار معارفها وصديقاتها من النساء الصالحات، وأن تقوم بدور التوجيه والتذكير بآداب الإسلام وتعاليمه، وأن تكون هى نفسها قدوة لغيرها فى هذا المجال، فتكون اللقاءات متسمة بالطابع الإسلامى، وتخلو من المآثم ومن تناول الآخرين بالغيبة وغيرها، وتراعى آداب الإسلام كالحجاب وغيره.

٧ - ما أجدر الزوجة المسلمة القدوة بأن تتحرى الحلال فى كل ما يتصل بالمنزل من أثاث ولباس وطعام وشراب وعادات وغير ذلك. وأن تتحرز تماما من الحرام وكذا ما فيه شبهة، كما يجب عليها أن يكون بيتها نموذجًا للنظافة والنظام، وأن تعود أولادها على ذلك.

٨ - عليها أن تحافظ على القواعد الصحية، وعدم تعرض الطعام للتلوث، وكذا عدم جعل الأدوات أو الأشياء الخطيرة فى متناول الأولاد، كالأدوية والكبريت، والأدوات الحادة وغير ذلك.

٩ - يلزم اتباع سنة الرسول ﷺ وهديه فى أعمال اليوم والليلة التى تمارس فى المنزل؛ كآداب الطعام والشراب واللباس والنوم والسلام والاستئذان وقضاء الحاجة، ودخول المنزل والخرج منه، والنظر إلى المرآة، والأدعية المصاحبة لهذه الأمور وغيرها، وتجنب العادات والتقاليد الجاهلية أو المستقاة من الغرب، وما فيها من مخالفات لتعاليم الإسلام.

١٠ - أن تحرص هى والزوج على إحياء المناسبات الإسلامية وتحبيبها لنفوس الأبناء كشهر

رمضان وما فيه من صيام وقيام فى المسجد والبيت، والبعد عما اعتاده الناس من أمور مخالفة، كالسمر والفوازير، وكالتخمة، وكثرة ألوان الطعام.

١١ - لسنا فى حاجة إلى التذكير بأن الزوجة المسلمة القدوة يجب أن تكون قدوة حسنة ملتزمة بالزى الإسلامى، وتحاشى الزينة المنهى عنها كوصل الشعر والتنمص والأصباغ وغير ذلك.

الابن المسلم والابنة المسلمة القدوة

عندما ننشد الأسرة المسلمة القدوة، فإننا نعنى أيضا أن يكون كل فرد فيها فى ذاته قدوة إسلامية جيدة، وتعرضنا للأب أو الزوج، والأم أو الزوجة، ثم نتعرض للابن والابنة كذلك، فنتوجه إليهم بالتوصيات التالية:

١ - أن يستشعر كل من الابن والابنة مكانة الأب والأم، وما يستحقان، وما يجب نحوهما من الحب والتقدير والبر والإحسان، وأن يقدروا ما تعرضا له من تعب وسهر ورعاية وخاصة الأم، وما لاقته من مشقة ووهن أثناء الحمل والوضع والرضاعة والرعاية فى مراحل الطفولة والصبا، ولا نغالى إذا قلنا فى كل مراحل حياته.

٢ - أن يستشعروا واجب طاعة أوامر الله ورسوله ﷺ فى بر الوالدين والإحسان إليهما، وما وراء ذلك من مثوبة وأجر، وعلى العكس من ذلك، فإن عقوق الوالدين من الكبائر، ويترتب عليه سخط الله وعقابه.

ونذكر بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية حول هذا الموضوع:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان: ١٣ - ١٥].

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ أى الأعمال أحب إلى الله؟

قال: «الصلاة على وقتها» قال قلت ثم أى قال: «بر الوالدين» قال قلت ثم أى قال: «ثم الجهاد فى سبيل الله»، قال فحدثنى بهن ولو استزدت لزادنى. رواه البخارى ومسلم والنسائى.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«رغم أنف، رغم أنف، رغم أنف رجل أدرك والديه أحدهما أو كليهما عند الكبر ولم يدخل الجنة»، وفى رواية: «فلم يدخلاه الجنة» رواه مسلم وغيره.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«إن أكبر الكبائر عقوق الوالدين، قال: قيل وما عقوق الوالدين؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه» رواه مسلم وغيره.

٣ – ليعلم الأبناء أن أبويهما أعرف بما ينفعهم وما يضرهم، بحكم السن والتجربة، وهما فى الوقت نفسه يحبان لهم الخير ويكرهان ما يضرهم، فعلى الأبناء أن يطيعوا والديهم فيما يأمرانهم به؛ ما لم يكن معصية واضحة لا شك فيها، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

٤ – ليحرص الأبناء على روح الحب والمودة فيما بينهم، وتلافى جو التنازع والتشاحن، وليكن سائدا بينهم جو التسامح والتعاطف، ويرحم الكبير الصغير، ويوقر الصغير الكبير.

٥ – على الأبناء أن يحافظوا على طاعة الله وخاصة الصلاة فى أوقاتها وعلى الأخلاق الإسلامية عموما، وأن يهتموا بالقرآن تلاوة وحفظاً، وفهماً، وكذا الفقه فى الدين، فحديث رسول الله ﷺ جعل من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: «شاب نشأ فى طاعة الله».

٦ – وعليهم أن يتعلموا السنة النبوية المطهرة فى آداب الطعام والشراب والنوم واللباس، وغير ذلك وأدعيتها، وأن يمارسوا ذلك.

٧ – وأن يهتموا بدراستهم بحيث يكونون من المتفوقين.

٨ – وعليهم أن يتعودوا النظافة دائمًا فى ملابسهم وأجسامهم وغرفهم وفى مدرستهم، وكذا النظام فى أوقاتهم وفى غرفهم ومكاتبهم وأدواتهم وكل شئ يتصل بهم.

٩ - وعليهم أن يحسنوا اختيار معارفهم وأصدقائهم، وأن يكونوا قدوة لهم.

الأخ المسلم القدوة

من المعلوم أن الفرد المسلم هو النموذج التطبيقى للإسلام بجوانبه المختلفة؛ عقيدة وعبادة وأخلاقا ثم تشريعا بين أفراد المجتمع المسلم. وبقدر كمال نموذج الفرد المسلم يكون كمال نموذج البيت أو الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم، وكذا الحكومة الإسلامية، فالدولة الإسلامية، ويتحقق النموذج الصحيح السليم للحكم الإسلامى، وتطبيق شرع الله فى الأرض.

والأخ المسلم - فى الجماعة التى تسعى إلى تحقيق الهدف العظيم، وهو التمكين لدين الله، وإقامة دولة الإسلام - يمثل عنصر أساسيا فى العمل والحركة والبناء.

لذلك وجب علينا - ونحن نتحدث عن القدوة على طريق الدعوة - أن نولى الأخ المسلم القدوة الاهتمام اللائق به. ونؤكد دائمًا أننا كلما تحدثنا عن الأخ المسلم قصدنا أيضا الأخت المسلمة، فهما عنصرا تكامل فى مجالات العمل والبناء، فالبيت المسلم لا يقوم إلا بأخ وأخت، والمجتمع لا يقوم على أكتاف الرجال دون النساء.

ونهدف إلى تحقيق نموذج الأخ المسلم القدوة؛ أيا كان وضعه فى أسرته أبا وزوجا أو ابناً.. وأيا كان وضعه فى المجتمع؛ مدرسا أو طالبا أو طبيبا أو مهندساً أو عاملا أو تاجرا أو صانعا، أو أى حرفة تخدم الغير، وأيا كان وضعه فى الجماعة؛ مسئولا كان أم جنديا.

وسبق عند حديثنا عن الأسرة المسلمة القدوة أن تناولنا الأب المسلم القدوة والزوج المسلم القدوة، وكذا الابن المسلم القدوة، وكذلك الأم الزوجة المسلمة القدوة، والابنة المسلمة القدوة.

مقومات عامة

هناك مقومات أساسية عامة يجب على الأخ المسلم القدوة أن يلتزم بها.

وهناك التزامات أخرى بصفته يعمل فى جماعة تعمل لتحقيق أهداف الإسلام. وسنبدأ بالمقومات العامة ثم نتبعها بالأخرى بعون الله وتوفيقه.

وأول مفهوم نبدأ به؛ وهو أهمها جميعا، أن يكون الأخ المسلم القدوة سليم العقيدة: فتكون عقيدة التوحيد الخالص عنده نقية لا تشوبها شائبة تعكر صفاءها ونقاءها؛ فالعقيدة

السليمة أساس العمل النافع، وعمل القلب أهم من عمل الجوارح، وتحصيل الكمال فى كليهما مطلوب شرعا.

وعلى الأخ المسلم القدوة أن يؤدى العبادات المفروضة أداءً صحيحًا سليماً؛ أداءً يجمع بين أحكام صحتها، وبين أسرارها وروحها؛ كي تثمر ثمرة التقوى وتكون مقبولة عند الله، فعليه أن يحسن الصلاة، ويواظب على أدائها فى أوقاتها جماعة في المسجد ما أمكن، وأن يظل على وضوء في غالب الأحيان.

وعليه أن يحرص على صيام شهر رمضان وأداء الحج متى توفرت الاستطاعة، كما يتقرب إلى الله بالنوافل بعد أداء الفرائض، كقيام الليل، وصيام ثلاثة أيام على الأقل من كل شهر، ودوام ذكر الله تعالى القلبى واللسانى، والإكثار من الدعاء المأثور. ومطلوب من الأخ المسلم القدوة أن يجعل من حياته كلها عبادة، وذلك بأن يجعل قصده من كل عمل يقوم به خدمة الإسلام والمسلمين، والاستعانة به على طاعة الله، فطعامه وشرابه ودراسته وعمله وزواجه ورياضته وكل عمل يمارسه ينوى به طاعة الله وخدمة الإسلام والمسلمين، ومع النية يلزم تحرى الحلال والبعد عن الحرام فى كل هذه الأمور.

وعليه أن يكثر من قراءة القرآن مع إتقانها، وأن يحفظ ما تيسر له منه ليساعده على قيام الليل به، وعليه أيضاً أن يكثر من قراءة حديث رسول الله ﷺ وأن يحفظ ما تيسر له منه، منفزاً ما تتضمنه هذه الأحاديث من توجيهات.

وأن يلتزم بسنة الرسول الله ﷺ فى حياته وفى أعمال اليوم والليلة كالطعام والشراب واللباس والنوم وقضاء الحاجة وغير ذلك، وما يصاحبه من أدعية مأثورة.

وعليه أن يتفقه فى أمور دينه، وأن يحرص على الاستزادة من ذلك والتعرف على قضايا الإسلام والمسلمين، وأن ينمى ثقافته وخبرته، وأن يتقن تخصصه العلمى أو الفنى، كى يفيد به دعوته.

وهناك جانب مهم جداً فى حياة الأخ المسلم القدوة، نريد أن يكون قدوة حسنة فيه ألا وهو الجانب الأخلاقى، فالأخ المسلم الذى يلزم نفسه بالأخلاق الإسلامية الفاضلة يعطى الصورة الصادقة للإسلام التي تتنزع التقدير والاحترم حتى من أعداء الإسلام. ويكون قدوة عملية مؤثرة فيمن حوله من الناس بحسن تعامله معهم، وبما يلمسونه منه من أخلاق فاضلة، وللأسف الشديد نجد اليوم كثيراً من المسلمين يسيئون إلى الإسلام؛ بسبب عدم

التزامهم بأخلاق الإسلام، وبهذا ينفرون غير المسلمين من الإسلام.

نريد المسلم المتميز بآداب الإسلام وتقاليده وتحيته ولغته وزيه وإتقانه لعمله وأمانته ووفائه، بل حتى فى أفراحه وأتراحه، ولا نسمح للعادات الأعجمية أن تغزو مظاهر الحياة فى مجتمعاتنا.

فالأخ المسلم القدوة يجب أن يكون صادق الكلمة؛ فلا يكذب أبدا، وأن يكون وفيا بالعهد والكلمة والوعد، فلا يخلف مهما كانت الظروف.

ونريد الأخ المسلم القدوة شجاعاً عظيم الاحتمال، ومعلوم أن أفضل الشجاعة الصراحة فى الحق، وكتمان السر، والاعتراف بالخطأ، والإنصاف من النفس، وملكها عند الغضب.

وأن يكون وقوراً يؤثر الجد، ولا يمنع ذلك من المزاح الصادق، والضحك فى تبسم. كما نريده شديد الحياء، دقيق الشعور، عظيم التأثر بالحسن والقبح؛ يسر للأول ويتألم للثانى، وأن يكون متواضعاً فى غير ذلة، ولا خضوع ولا ملق أو رياء.

وأن يتصف بالعدل فى جميع الأحوال، بعيداً عن التأثر بالغضب والرضا، وأن يقول الحق وإن كان مراً على نفسه أو على أقرب الناس إليه.

ونريده رحيم القلب يعفو ويصفح ويلين ويحلم ويرفق بالإنسان والحيوان، حسن السلوك، جميل المعاملة، يرحم الصغير، ويوقر الكبير، لا يتجسس ولا يغتاب ولا يصخب، كما يستأذن فى الدخول والانصراف... إلى آخر هذه الآداب الإسلامية.

وأن يبر والديه ويحسن إليهما ويصل رحمه ويقوم بحق الجوار وإكرام الضيف وكل ما يدعو إليه الإسلام، كملاطفة اليتيم وحسن معاملته وإطعام الفقير والمسكين والأسير.

نريد الأخ المسلم القدوة أن يكون كله حركة ونشاطاً وحيوية، يقدم الخدمات ويشعر بسعادة وسرور كلما قدم خدمة لغيره، فيعود المريض ويساعد المحتاج ويحمل الضعيف ويواسى المنكوب ولو بالكلمة الطيبة، ويسارع دائما إلى الخيرات.

وعلى الأخ المسلم القدوة أن يهتم بصحته وبدنه؛ كى يستطيع أن يقوم بالواجبات والمهام الشاقة والجهاد فى سبيل الله، فلا يقف ضعف صحته عقبة فى طريق تحقيق ذلك، فعليه أن يبادر بالكشف الصحى العام، وأن يأخذ بعلاج ما قد يكون عنده من أمراض، وأن يهتم بأسباب القوة الجسمانية والوقاية والابتعاد عن أسباب الضعف الصحى، وأن يمتنع تماماً عن التدخين وغيره من الخبائث، وألا يسرف فى شرب قهوة البن والشاى ونحوهما من المشروبات

المنبهة؛ فلا يشربها إلا لضرورة.

وعليه أن يهتم بالنظافة فى كل شىء ؛ فى المسكن والملبس والمطعم والبدن ومحل العمل، وان يكون منظماً فى كل شئونه.

وعلى الأخ المسلم القدوة أن يزاول عملاً اقتصادياً مهما كان غنياً وأن يقدم العمل الحر على الوظيفة الحكومية، محاولاً ان يستغل مواهبه، ويجتهد فى ان يتقن عمله وان يتحرى الآداب والأخلاق الإسلامية: كضبط المواعيد وعدم الغش وعدم الجشع وحسن التقاضى لحقه وحسن آدائه لحقوق الناس كاملة بدون طلب، وبدون مماطلة، وان يتحرى الكسب الحلال، ويتجنب كل وسائل الكسب الحرام، وأن يبتعد عن الميسر وعن التعامل بالربا.

وعلى الأخ المسلم القدوة أن يخدم الثروة الإسلامية بتشجيع المصنوعات والمنشآت الاقتصادية الإسلامية، ويجتهد الا يقع قرشه فى يد غير إسلامية، ويحرص ان يكون مأكله وملبسه من إنتاج وطنه الإسلامى.

وعليه أن يؤدى الزكاة الواجبة عليه، وأن يقدم من ماله لدعوته وللعمل الإسلامى، مهما كان دخله ضئيلاً، وأن يدخر للطوارئ جزءاً من دخله مهما قل، والا يتورط فى الكماليات.

ونريد من الأخ المسلم القدوة أن يكون مجاهداً لنفسه، وأن يأخذها بجد حتى يسلس قيادها له، وتلتزم بتعاليم الإسلام وواجباته، فيحترز من صغائر الآثام، فضلاً عن كبائرها، وأن يتورع عن الشبهات؛ حتى لا يقع فى الحرام، وأن يغض الطرف ويضبط عواطفه، ويقاوم نوازع الغريزة فى نفسه، وأن يسمو بها إلى الحلال الطيب، ويحول بينها وبين الحرام أياً كان، وأن يكون دائم التوبة والاستغفار، ويجعل لنفسه ساعة قبل النوم يحاسب فيها نفسه على ما عمله من خير أو شر.

ونريد من الأخ المسلم القدوة أن يكون حريصاً على وقته، فالوقت هو الحياة، والواجبات أكثر من الأوقات، فلا يصرف جزءاً منه فى غير فائدة.

وعليه أن يبتعد عن أقران السوء وأصدقاء الفساد، وأماكن المعصية، ويختار أهل الصلاح والتقوى، وأن يبتعد عن مظاهر الترف والرخاوة، بل يروض نفسه على الحياة الخشنة، ما أمكن.

وعلى الأخ المسلم أن يؤدى واجب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويكسب لصف العمل الإسلامى عناصر جديدة.

الفصل الثالث

أسر ضلت الطريق

مأساة أب أراد تسليم أولاده للأحداث

الإدمان دفع الأب لمأساة إنسانية

تنكر لأولاده حتى يوفر نفقات المخدرات!

ما سبق ان اثبتناه من جرائم اسرية قبل عشر سنوات وذلك فى سنة ١٩٨٦، وما سبق ان بيناه أيضًا على صفحات الصحف هذا العام نختتمه، بما ذكرته صحيفة الاخبار القومية بتاريخ الخميس ٢٠/٦/١٩٩٦ تحت العنوان الموضح عاليه، وهو بنصه:

نرجوك... بلاش تعذيب، كفاية ذل وإهانة، ارحمنا من كرباجك، اخرجنا من سجنك، عايزين نقول لك يا بابا واحنا عارفين معنى الكلمة!».

إنها كلمات موجعة، تقفز على السنة اطفال مفجعة بوحشية اب... كل ماساته أنه هرب من إنسانيته، وتخلى عن آدميته، اشترى الكيف الذى لعب براسه وباع فلذات كبده فى سوق الضياع!

وهى أيضًا (تراچيديا) ناطقة بالبكائيات، نكتبها بدموع ضحاياها إلى الرأى العام، نحذر فى البداية، ونتساءل فى النهاية: من المسئول عن حدوث هذا الشرخ فى الجدار الاجتماعى؟ «لا.. لن نعيش فى بيت أبينا...

هذا ما أكده لنا ٨ أطفال، وإن كان تاسعهم لم يتجاوز الشهور التسعة؛ إلا أن ملامحه تنطق بنفس الرفض الذى جاء على ألسنة إخوته، بل نؤكد أنه فى الطريق إلى نفس المصير الغامض، إذا لم يجد من ينقذه!

اى اب هذا؟.. واى عصر يعيش؟

سؤال الح علينا أثناء اللقاء به امس، لم يكن اللقاء عاديًا او بإرادته، كان فى وجود الشرطة ؛حيث اصدر اللواء محمود وجدى مدير الإدارة العامة لمباحث القاهرة – تعليماته بضبط وإحضار الأب المتهم، وعلى الفور قام العقيد حسين رفعت رئيس مباحث الأحداث بتشكيل قوة لملاحقته، والقاء القبض عليه.

مجانين:

● اسمك وسنك ومهنتك؟:

سيد عبد الفتاح على – ٥٠ سنة – سائق تاكسى.

● ظروفك المادية:؟

أملك السيارة التى أعمل عليها، ومنزلاً مكونًا من أربعة طوابق.

■ ومحيط علاقاتك الاجتماعية؟

ضيق جداً.. لان شغلى حاكم بكده!

● لكنة يتسع لزملاء الكيف، وأصدقاء السهرات الحمراء؟

كلها اتهامات باطلة... وهاتوا الدليل.

● لماذا تعامل زوجتك وأولادك معاملة أسرى الحرب؟

مش ممكن.. أنا راجل عارف ربنا، وأديت فريضة الحج كذا مرة.

● يا أسطى سيد، هناك فرق بين أداء فريضة الحج والسفر للسعودية للعمل كسائق أثناء الموسم.

– بوجه متجهم، وملامح قاسية.. ولهجة اهتزت حروف الكلمات فيها من شدة الانفعال يرد: مش معقول كده – زوجتى وأولادى عايزين يشوهوا صورتى رغم حسن سيرى وسلوكى.

● هل سبق زواجك من غير أم العيال؟

– تزوجت مرتين قبلها.

● وأنا أقول لك يا عم سيد: «الأولى استمرت معك ٤٠ يومًا فقط وطلقتها.. والثانية ٩ شهور ولحقت بالأولى.. معقول يكون الثلاث ستات على خطأ وأنت الوحيد صاحب الحق»؟

– والله أنا حر.. الشرع أعطانى رخصة بأربعة!

■ لكن ليس على طريقة الأسياد والعبيد – يا سى السيد!.. المهم لماذا إصرارك على تعذيب زوجتك وأولادك؟

يجيب – وذهنه شارد، وعيناه زائغتان– :

■ بصراحة أنا في رعب من الأمور حولي: حوادث اغتصاب نقرا عنها في الجرائد، معاكسات تليفونية.. مشاكلنا ضد الآداب في الطريق.. لهذا فانا احافظ على اولادى.

صاحب سوابق وشرس:

كان لابد من الحديث باستفاضة مع أول رجل بكى تأثرًا لحال الأسرة المسكينة؛

العقيد حسين رفعت رئيس مباحث أحداث القاهرة.. فماذا يقول؟

● منذ أيام دخل مكتبى الزوج والزوجة، وبصحبتهما ٤ بنات، قدم الزوج بلاغًا ادعى فيه أن بناته يسرقن ويهربن من البيت، وانه يريد إيداعهن الأحداث لهذا السبب... ونظراً لغرابة الموضوع سُألت الأم عن صحة ما جاء ببلاغ الأب فأيدته، ولكن الخوف والرهبة سيطرا على كلماتها.. وهنا انفردت بالحوار مع الأم وبناتها دون الأب، فحكين بكل صراحة عن عمليات التعذيب التى كن يتعرضن لها من حبس وتعليق فى السقف وغير ذلك!

وبالتالى تم إحالة الأمر إلى نيابة الأحداث، والتى أصدرت قرارها بتسليم البنات للأب، مع أخذ تعهد عليه بحسن معاملتهن.. لكن الأب رفض الاستلام. وبعد ذلك جاءت الأم ومعها بنات أخريات – بكت وقالت: إن حياتها مهددة بتعذيب الزوج لها، ولأولادها، وأنها عرضة للتشرد فى أى وقت! ويضيف العقيد حسين رفعت: إن ملف الأب الجاحد يفيد بأنه سبق تسجيل ٨ اتهامات ضده، آخرها القضية رقم ٢٨٨١ لسنة ١٩٨٦ البساتين – سرقة... وباقى القضايا ضرب ونشل.

المدمن:

هذه الزوجة تعيش مع زوجها على طريقة «صبر أيوب» منذ ٢٢ سنة، وتؤمن بالمثل الشعبى: «ضل راجل ولا ضل حيط»، تخشى الطلاق، وتخشى الفضائح.. لكن للصبر حدود، وما تقوله يؤكد ضرورة رصد وتحليل العلاقات الأسرية فى مجتمع بدأت تحاصره المشاكل والهموم. تقول الزوجة بثينة صلاح: عندما رفضت ابنتى مها الخروج من المدرسة جرى وراءها بالسيارة وصدمها وأصيبت بكسر فى الحوض، ثم ادعى أن سيارة أخرى هى التى صدمتها وارتكبت الحادث، وهو يستند فى ذلك لشهادة الزور من أصدقاء جلسات الكيف.

وماذا يقول الجيران؟

أشاد الجيران الذين قابلناهم بسلوك الأم وبناتها، أكدوا أنهم لم يلاحظوا ما يسيء إلى سمعتهن، منهم محمود قرني، ومحمد سيد أحمد، وخالد مرزوق، قالوا: إن الزوج ليس بخيلاً على أولاده من حيث إنفاق المعيشة، لكننا سمعنا عن قسوته معهن في البيت، وشاهدناه أكثر من مرة يجبر أربعًا من بناته على القيام مرة واحدة بغسل سيارته وسط الشارع، رغم تقاليد التعامل مع البنات، ورغم أنه ميسور الحال، وبإمكانه عمل ذلك في أي محطة سيارات.

«بنكرهك يا بابا»:

إلى أي زمن تنتمي هذه الكراهية للأبوة؟.. أي سلوك هذا الذي يجعل الأبناء يلعنون الآباء وعلى الملأ؟ صفية ومها وهبة وجهاد وشيماء وشيرين وشمس ودينا .. كلهن ضحايا عذاب الأب، أما محمد فهو خارج دائرة العذاب.. لماذا؟ لأنه ولد. ولأن الأب يتعامل مع أسرته على طريقة اللعب بأوراق الكوتشينة، فالولد عنده يكسب.. والبنت تخسر! لو كان قد سأل زبونًا مثقفًا أثناء عمله بالتاكسي ذات مرة عن سبب ذلك لقال له: إن الرجل هو المسئول عن نوع المولود - حسب طبيعة الكروموزمات.. سبحانك ربي «ونحن نوضح للناس»، ولو رجع الكل إلى قول الله عز وجل: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠] فلا الرجل مسئول ولا المرأة مسئولة، إنما الأمر كله لله.

واستمعوا معنا إلى أنين مها - نقول استمعوا ؛ لأن الكلمات المكتوبة تكاد تنطق من شدة الألم: «إيه فايدة اللبس والأكل والشرب إذا كنت مسجونة في البيت ولا أرى الشارع إلا قليلاً؟ لن أنسى أنه قص لي شعري، وآخر مرة ضربني وأنا معلقة في السقف بكابل كهربا فيه ١٠ سلوك»!

وامسحوا معنا دموع الصغيرة شمس ذات الثماني سنوات: «بنكرهك يا بابا، انت عذبتنا وحرمتنا من كل حاجة حلوة، ضربتنا كتير أنا واخواتي، حرام عليك، أنا عاوزة أب تاني»!!!

حصار وانحدار:

لابد أن نخترق صمت الرأي العام.. لأن القضية على غير المألوف، انتقلت القسوة

والعنف من الأمهات إلى الآباء هذه المرة!

يقول عبد المنعم سعد - مهندس ميكانيكا: «لابد من تشريح نتائج الحالة من كل جوانبها، نسلط الضوء أكثر على الشق الاجتماعي، ونسأل أنفسنا، ولا نمل البحث عن الإجابة المقنعة، لماذا غطى الصدأ علاقاتنا الأسرية؟ لماذا يقطع العنف صلات الرحم»؟

إن مجتمعنا تحاصره المشاكل من كل جانب، وبالتالى فقد تكون هناك علاقة مباشرة بين انعكاسات هذه المشاكل وانحدار الأوضاع الأسرية!

والدكتور عزى شهدى - أخصائى أمراض نساء وولادة - له وجهة نظر يتمسك بها: «أجمل شيء فى عملى أن يخرج مولود للنور على يدى.. عندما أتابعه بعد ذلك أشعر وكأنه ابنى.. فما بالك بشعور الأب الذى هو من صميم صلبه؟! إن ما يحدث ضد مشاعر الأبوة الحقيقية.. وضد الإنسانية، وآدمية الإنسان.. ولذا يجب إخضاع مثل هذه الحالات للدراسات المتخصصة».

إلا البيوت:

فى النهاية لا نملك إلا التحذير.. علاقاتنا الأسرية والاجتماعية فى خطر.. قد نتحمل معاناة المؤثرات المختلفة فى أى مجال.. إلا بيوتنا وحياتنا الخاصة.. فهى أولى بكل رعاية واهتمام.. نتعرض لحملات غزو وافدة من الخارج! من السهل أن تعصف بكل شيء، اللهم إلا إذا عشنا على كوكب آخر! فى أول عرض القضية الخطيرة يسأل الكاتب لهذا الموضوع «من المسئول»؟ ونحن نجيب:

الاجابة واضحة فى كل ما سبق أن بيناه خاصًا بالأسرة والبيت ومن فيه من مسئولية وحقوق وواجبات.

وإن أى اهمال أو إعراض عن ذلك لابد أن يأتى بتلك النتائج السيئة، ومجتمع فيه مثل هذه النوعيات لابد أن يراجع حياته وما يسيرها وفى أى طريق تسير، ومن أى مصدر تستقى أسلوب حياتها. وحديث رسول الله ﷺ الذى سبق ذكره خلال عرض بعض الفقرات يقول: «كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته» متفق عليه.. وعن النبى ﷺ قال: «من ابتلى - أى اختبر- بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كن له سترًا من النار» متفق عليه.

الفصل الرابع

صرخة مدوية للعلماء والمفكرين

عندما تغيب التربية الإسلامية، أو تُهمل

الجرائم الأسرية

تحت هذا العنوان كتبت جريدة «المسلمون» الصادرة في يوم السبت ١٧ من شعبان ١٤٠٦هـ الموافق ٢٦ أبريل ١٩٨٦م تحقيقًا صحفيًا واسعًا ومدعمًا بآراء علماء النفس وغيرهم من العلماء والمفكرين، ولا يسعنا إلا ان نضعه تحت أنظار القراء الكرام والآثار الجسيمة السيئة على الاسرة المسلمة حين تغيب التربية الإسلامية من البيت والمدرسة ودواوين من العمل الحكومي، وكل مرافق الدولة:

انتشار الجرائم الأسرية يتناسب عكسيًا مع التربية الإسلامية.

علماء الاجتماع: غياب الوعي الديني وراء ١٢١ جريمة أسرية في مصر. فإلى تفاصيل الموضوع كما نشرته الجريدة بنصه:

كشفت الدراسات العلمية التي اجريت حول تزايد الجرائم الاسرية في بعض المجتمعات الإسلامية أن الأسر التي تعرضت لهذه الجرائم لم تلزم نفسها بالقيم الدينية، وأن غياب الوازع الديني والتربية الإسلامية هو المسئول عن كل هذه الجرائم الأسرية. تقريبًا، نسبة ضئيلة من هذه الجرائم أرجُعت إلى الأمراض النفسية والاضطرابات العقلية.

قالت تقارير المركز القومي للبحوث الاجتماعي في القاهرة إنه ثبت أن الجريمة بصفة عامة والجرائم الأسرية بصفة خاصة تتناسب تناسبًا عكسيًا مع التربية الدينية والالتزام بقيم الإسلام.

أرجع علماء الاجتماع الاسباب – التي كانت وراء ١٢١ جريمة أسرية وقعت في مصر وحدها خلال العام الماضي – إلى غياب الوعي الديني، وألقوا بالمسئولية على عاتق مدرسي الدين وخطباء المساجد والدعاة.

ونلفت النظر هنا إلى أن المسئولين الذين بيدهم التغيير وبث الوعي الديني ونشر القيم الإسلامية هم امثال سيئة لغيرهم، وكما يقولون «فاقد الشيء لا يعطيه»، ونعود إلى ما ذكرته الصحيفة وآراء علماء النفس والاجتماع وغيرهم:

يقول الدكتور جمال ماضى أبو العزايم – مستشار الصحة النفسية بمصر: إن ثمة اختلالاً فى محيط الأسرة فيما يتعلق بالقيم الدينية والاصالة والترابط، حتى إن بعض الآباء والامهات أصبحوا غرباء فى بيوتهم. ثم أضاف: إن الأمر يتطلب استغلال نتائج الصحوة الإسلامية، لتقوية الوازع الأخلاقى فى النفوس.

وقال الدكتور سيد صبحى أستاذ الصحة النفسية بجامعة عين شمس: إن من أهم العوامل التى أدت إلى تزايد نسبة الجرائم الأسرية، هو عدم الالتزام بالقيم الدينية.

ومن ناحية أخرى تحدث الشيخ محمود العدل فى مجلس العلم بمسجد أبى بكر الصديق بسلطنة عمان عن الجرائم الاسرية والتى بدأها قابيل بن آدم الذى قتل أخاه هابيل، وقال إن كل جريمة قتل يتحمل قابيل جزءاً منها، واستدل الشيخ محمود فى ذلك بالحديث الشريف الذى يقول فيه الرسول ﷺ: «ما من نفس تقتل ظلماً بغير حق إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها؛ لأنه أول من سن القتل».

الآراء كلها تجمع على أن الحل هو العودة إلى التمسك بالإسلام

رجال الشرطة يقولون: ١٢١ جريمة أسرية حدثت فى مصر فى عام واحد علماء الاجتماع يقولون: الشباب أصبح يتيماً رغم وجود الآباء والأمهات.

أما تفاصيل الموضوع فهو كما روت الجريدة:

قتل فعل ماضٍ، لكنه اشهر الافعال الحالية فى صفحة الحوادث فى مصر ودول إسلامية أخرى.. الابن قتل والديه ظناً منه أنه يخدمهما! والزوجة قتلت زوجها من أجل شهواتها، والأم قتلت أطفالها الثلاثة لتريحهم!

عشرات الجرائم الأسرية تطفو على السطح حتى باتت صفحات الحوادث، فى معظم المجلات والصحف، هى الأكثر شهرة وشعبية:

رجال الشرطة لهم رأى، ورجال القضاء والقانون لهم رأى، وعلماء الاجتماع والنفس – كذلك – هم رأى، لكن الآراء كلها تصب فى قناة واحدة هى قناة الشرع الحنيف. محمد عزيز قتل والديه الناجحين بسبب أفكاره الإلحادية، وظن أنه يخدمهما؛ لأنه يخلصهما من هذا العالم الحقير كما زعم.

وقتلت نادية على أحمد – الأم الخائنة – ابنها وزوجها. وهزت بقتلهما وجدان المجتمع المصرى كله، وأحدثت خللاً فى قيمه، وسجلت أبشع حادث من أجل شهواتها الدنسة.

وقتلت أم بالمنوفية أطفالها الثلاثة، وقتلت أخرى بالإسكندرية طفلتها (٦ سنوات)، وشرعت فى قتل شقيقها الرضيع من أجل عشيقها، وقتلت امرأة زوجها بمدينة السويس، وأخفت جثته تحت السرير، ومارست حياتها الجنسية مع عشيقها فى ليلة قتله ثم مزقت الجثة ووضعتها فى أكياس وألقت بها فى الحقول!

قتل طبيب زوجته وألقى بها إربًا فى صناديق القمامة بعد أن فشل فى علاجها من إدمان الحبوب المخدرة! وللسبب نفسه قتل مزارع فى القليوبية ابنه بثلاث رصاصات. وزوج يقتل زوجته بطعنها ٢٠ طعنة لخروجها من المنزل دون إذنه!

وزوجة تطعن زوجها بسكين وتتركه ينزف ثلاث ساعات يلفظ بعدها آخر أنفاسه! وعروس من أسيوط عُثر عليها مخنوقة فى شقتها عقب زفافها بأسبوعين، وطالب جامعى يقتل شقيقته لرفضها قطع علاقتها بأحد جيرانها، وزوجة تقتل زوجها بالسم لتتزوج صديقه

وزوجه أخرى تشترك مع صديقها فى قتل زوجها ودفنه فى صندوق.

رصدت صحيفة المسلمون كل هذه الحالات وما وراءها من ظروف وأبعاده. وسعيًا وراء العودة بالمجتمع الإسلامى إلى حالته الطبيعية: حالة الأمن والطمأنينة والسكينة والهدوء، كانت الرحلة فى عقول العلماء والمفكرين والباحثين:

يقول الدكتور جمال ماضى أبو العزايم - مستشار الصحة النفسية بمصر: حدث اختلال توازن فى الأسرة فيما يتعلق بالقيم والمحبة والاحترام والأصالة والترابط؛ ونتيجة لذلك فقد أضحى التماسك فى الأسرة ضعيفًا أو معدومًا؛ فالأب- أو الأم- بسبب السفر إلى الخارج أصبح غريبًا فى المنزل وبين أسرته، فهو لا يجد نفسه - فى كثير من الأحيان؛ حتى بعد أن يعود وتنتهى فترة إعارته أو سفره - ممسكًا بزمام الأسرة، وقد كان ذلك واضحًا فى حالات الإدمان التى عرضت علينا. كما أن حجم الأسرة أو عدد أفرادها عندما يصبح قليلاً فإنه يكون سببًا فى عدم الإحساس بالسعادة، وليس أدل على ذلك من الأمراض النفسية التى تصيب الأسرة من قلق واضطراب، فهى تعبر عن نوع من أنواع الهروب من الواقع؛ حيث إن واقع الأسرة أصبح شديد البلاء.

والمجتمع بمتاعبه يقع على عاتقه جزء كبير من المسئولية فى هذه الحوادث.

وواجب وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، هو ملاحقة هذه الحالات، وهذه

الامراض؛ حيث إنه بدأت تظهر بعض الأمراض الغريبة على الطب النفسى فى الحاضر.

والقول الحق إن المسئولية الاولى تقع على ولى الامر الذى تحت يده الإعلام صاحب اليد العليا فى توجيه الناس والسير بهم إما إلى الحق وإما إلى الباطل والهلاك. ويعود الدكتور ماضى فيقول:

والشباب يواجه تحديات وضغوطًا اجتماعية نتيجة للمطالب المتعددة التى لا تستطيع الإمكانات المتاحة الوفاء بها؛ لأن الدخل غير كاف.

وتدليل الطفل يعد سببًا قويًا فى حوادث الجرائم التى ظهرت الآن وخاصة عندما يكون التدليل تحت ضغط حالة نفسية مؤقتة، وهذا لا يعفى من المسئولية.

والوازع الدينى يتصدى لهذه الامراض والاضطرابات النفسية. والذى يملك وازعًا دينياً لا يخطر بباله اى انحراف من هذه الافعال الخطيرة، فمتاع الدنيا قليل بالنسبة للآخرة، والقيم عنده لها مكانة دينية تقاوم الشرور وتبعدها عن تفكيره.

ويؤكد الدكتور سيد صبحى أستاذ الصحة النفسية بجامعة عين شمس أن هناك عوامل كثيرة أدت إلى وقوع مثل تلك الجرائم الاسرية ويذكر منها:

أولاً: إيقاع العصر السريع والتطلعات المادية وعدم القناعة والطمع فى المزيد ولو بطريق غير شريف ، أحدث شرخًا وتصدعًا فى شبكة العلاقات الأسرية عند بعض الأسر، ونتيجة لعدم القناعة والطمع اهتزت بعض القيم؛ نظرًا: لافتقاد القدوة الصالحة الحقيقية التى تواكب هذا الطمع وتحققه.

ثانيًا: عندما تختفى القدوة الصالحة من حياة الناس يسهل الوقوع فى الجريمة، وهذا يتضح جليًا فى أمر الانحرافات التى قد تشغلنا وتحيرنا، فالأخ يقتل أخاه، والأم تقتل ابنها، والزوجة تقتل زوجها، هذه الانحرافات مرجعها إلى اختفاء القدوة الحسنة، وغلبة التوافه والماديات على كثير من أمور الحياة؛ مما جعل الناس - فى الغالب - يتناسون المبادئ الأصيلة، والقيم الفاضلة فى السلوك داخل الأسرة والمجتمع.

ثالثًا: تحول الناس من البساطة إلى التعقيد، ذلك أن الكثيرين رغبوا عن اليسر فى التعامل، و عن إعلان الود، وتبادل المحبة، إلى ما يسمى - فى لغة التكنولوچيا- التعقيد؛ مما أدى إلى ضعف الوصال النفسى والوجدانى بين فرد وآخر.

رابعًا: غياب الام أو الأب عن الأسرة - سواء كان بسبب العمل أو الإعادة أو الانفصال أو

المشكلات - يؤثر فى سلوكيات الابناء، فتنعكس صورة القيادة المهتزة - ممثلة فى الاب أو الام - على حياة الأبناء، فلا يرون إلا العنف طريقة للتفاهم أو التصرف فيما بينهم ومع الآخرين.

خامساً: عدم الالتزام بالقيم الإسلامية فى التعامل، وعدم العناية بغرس هذه القيم، فعملية التطبيع الاجتماعى والخلقى للابناء والبنات كبذرة صحيحة تعدل من مسار السلوك، وتهذب طموح الغرائز، ولابد أن يكون الآباء والأمهات قدوة صالحة دائماً.

ويضيف الدكتور سيد صبحى: عندما لا يستطيع الاب تحقيق كل المطالب المادية فإن شخصية القيادة تهتز أمام الزوجة؛ خاصة إذا كانت من النوع الذى لا يرى فى الحياة سوى الماديات فقط؛ فتتمرد، وتشجع - بتمردها - الابناء على تغذية الكراهية للأب، وتزيد من إحساسهم بانه لا يستطيع ان يلبى طلباتهم، وأنهم فى موقف ضعيف وانهم سيظلون هكذا لقلة حيلة هذا الاب!

والتمرد ينشأ اعتماداً على الكراهية التى زرعتها الام، فتكون داخل الاسرة جبهة مضادة للاب، ثم جبهة مضادة للإخوة والاخوات داخل الأسرة؛ لان شعار مثل هذه الأسرة سيكون «الغاية تبرر الوسيلة»، وكاننا فى غابة الغلبة فيها للأقوى!

وعندما لا يكون للقيم فحواها ونتاجها الفورى يحدث صراع بين ما يقوله الأب للزوجة وللأبناء، وما يرونه فى عالم الواقع، وينهار بعض ذوى النفوس الضعيفة، ويزداد الصراع وتُرتكب الجرائم نتيجة لكل هذا.

مثال ذلك: عندما يلتزم الاب بقيمة المتابعة اللصيقة للأبناء، وضرورة الحرص على معرفة الرفاق؛ خوفًا من رفاق السوء، فإن هذه القيمة العظيمة قد تصطدم ببعض أمثلة فجة تحاول أن تمنعها، كان يكون أحد الابناء غير راض عن متابعة الاب له أو منعه من صداقة معينة سيئة فينشأ صراع وصدام بين هذا الاب وذلك الابن.

الجرى وراء المادة: ويرى الدكتور يسرى عبد المجيد أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة أن تلك الجرائم التى ارتكبت بين افراد الأسرة، مرجعها الاول إلى الخلل النفسى والاجتماعى الذي سيطر على كيان الأسرة بشكل عام؛ نتيجة الطغيان الجارف للماديات على حساب المعنويات فى حياة الافراد، وهذا بدوره يزيد الإحساس بالغربة بين أفراد الأسرة الواحدة، فلا يبقى بينهم شيء يجمعهم سوى المكان، دون الترابط الوجدانى أو المودة أو التعاطف فيما

بينهم.

ويقول: والمحزن أن بعض أولياء الأمور – ممن التهمتهم الحياة المادية – اعتقدوا أن الأشباع المادى، وتلبية الاحتياجات المادية للأسرة هو الأساس؛ فى حين أن الحقيقة غير ذلك، حيث إن تجاهل الإشباع الوجدانى، وتجاهل بث روح القيم والمثل السليمة والمبادئ الأخلاقية السامية هو الذى أظهر هذه النوعية من الجرائم، بالإضافة إلى ما فى وسائل الإعلام المرئية- والمسموعة والمقروءة – من مواد تساعد على الانحدار الخلقى، والقدوة السيئة فى كل ما يعرض على الناس وخاصة الشباب بنوعيه، وبالتالى تؤدى إلى تفكك الأسرة، وتوجد التباعد الفكرى والوجدانى بين أفرادها.

فى السنوات العشر الأخيرة تسلقت بعض العناصر السيئة الهزيلة – الضحلة التفكير – على أكتاف المجتمع الطيب الطاهر، وأصبحت تمثل القدوة الزائفة، التى زينت للبعض أن المادة هى كل شىء فى الحياة، وأن الحصول عليها بوسيلة مشروعة أو غير مشروعة هدف أسمى!

وفى هذا المجال أيضًا نذكر أن بث روح العقيدة والعبادات، والقيم الأخلاقية الإسلامية – لدى الشباب والشابات – له الأثر الطيب القوى فى منع مثل هذه الجرائم.

لقد تأكد أنه من بين السلبيات التى ساعدت على ظهور الجرائم الأسرية غياب أحد الزوجين بحثًا عن المادة؛ تاركًا الطرف الآخر دون رقيب؛ ظنًا منه أنه يكدح ويسعى من أجل هذا الطرف!

والحقيقة أن التجاور والالتحام بين الطرفين أمر ضرورى لعدم تصدع بنيان الأسرة ككل. وسرعة إيقاع الحياة، والمظهرية الزائفة، وعدم الصدق والصراحة المتبادلة بين أفراد الأسرة وعدم إفساح المجال لمزيد من الحوار والتشاور بينهم ،كل ذلك من العوامل التى ساعدت على ظهور الإجرام فى الأسرة، كما أن ظهور الأفكار الإلحادية تحت مسمى «العلمانية» – نتيجة القراءات لبعض الكتاب الملحدين بدعوى «حرية الفكر» وحماية المسئولين لهؤلاء – وعدم الإيمان بالبعث والجنة والنار والحساب الناتج عن حرية الفكر – له دور كبير فى حدوث هذه الجرائم.

ويقول الدكتور محمد شعلان أستاذ الطب النفسى بالجامعة الأزهرية: مظاهر العنف عندما تحدث فى الأسرة تكون تعبيراً عن حالة التفكك التى وصلت إليها الأسرة؛ فالعلاقة بين الزوج والزوجة قائمة على أساس توزيع الأدوار على أسس من العدالة والمساواة، بلا

سيطرة أو تسلط، وإنما تعاون وثيق بين الزوجين؛ فإذا اختلت هذه المعادلة؛ كان يكون الاب ضعيفًا أو طاغية، وأن يكون الخاضع لسلطته متمرداً عليها بمعنى؛ ان يكون احد الطرفين غير راض عن الدور الذى يؤديه، فسوف يحدث خلل يتولد عنه احتكاك، وإذا كان الخلل عنيفًا فسوف يأخذ شكل الصراع العنيف أيضًا.

العودة للدين:

ويضيف الدكتور محمد شعلان: ما نشاهده اليوم من مظاهر العنف بين أفراد الأسرة الواحدة إنما هو نذير تفكك يحدث على مستوى المجتمع الأكبر، فمثلما فقد المجتمع قضيته، فقدت الأسرة أيضًا أهدافها الخارجية التى تؤكد انتماءها للمجتمع الأكبر، وتحولت طاقتها - التى كانت موجهة إلى الخارج - إلى طاقة مدمرة موجهة إلى الداخل.

وفى غياب الهدف العام تغيبت المبادئ الدينية العليا، ولا يبقى من الدين غير المظهر. ومن ثم يطلق العنان للغرائز. والعلاج الوحيد هو الرجوع إلى بث المثل العليا الدينية فى الشباب بنوعيه من البيت. والأب والأم هما القدوة والمؤثر الاول، فلابد من أدائهما لدورهما وهما يمثلان القدوة الصالحة العملية.

الشباب يتقيم:

ويقول الدكتور عادل صادق أستاذ الطب النفسى بجامعة عين شمس: الأسرة هى الكيان الإنسانى الوجدانى الذى يجمع أفراده على هدف واحد، ويربطهم برباط الحب والمودة والتعاون: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١]. وليست السعادة شقة أنيقة وكماليات فاخرة وأموالاً فقط، كما يتخيل البعض فى هذه الآونة. هذا الكيان المعنوى أصابه الانهيار فى الأسرة لأسباب عديدة يأتى فى مقدمتها: غياب الأب، وانشغال الام فى العمل خارج البيت، فالشباب يتيم رغم أن الأب والأم حيان، ورحم الله من قال:

«ليس اليتيم من مات أبوه و إنما ... من له أم تخلت وأب مشغول».

يضاف إلى هذا ان الاولاد لا يربون التربية الدينية الصحيحة، وفقدان القدوة الصالحة من الابوين.

ثم يقول الدكتور عادل صادق: أرى ان ضياع الحب والافتقار إلى التربية الدينية السليمة وراء مثل تلك الجرائم الاسرية البشعة التى ظهرت حتى الآن.

ويرى الدكتور أحمد عكاشة أن الدين هو الملاذ الوحيد لقطع دابر هذه الجرائم من مجتمعنا، ويرى الدكتور أحمد المجدوب الأستاذ بمركز البحوث الاجتماعية أن مناهج التفسير في عملية الحوادث الأخيرة كثيرة؛ بين أسباب نفسية واجتماعية وثقافية وتربوية.

فالعامل الاقتصادى يتمثل فى الطفرة الاقتصادية التى حدثت لشريحة من شرائح المجتمع، فكانت النتيجة أن هذه الشريحة بدت مهزوزة هامشية، وتنحو فى سلوكها منحى غريبًا. ونظرًا لافتقار الطبقة الجديدة إلى أساس سليم تقوم عليه ثقافتها، فإنها تسىء استخدام المبتكرات الجديدة، وتنتشر لديها أسوأ القيم، وأردأ الأفكار، وأحط السلوكيات؛ مما ينعكس على علاقتها فيما بينها، وعلاقتها بغيرها.

والملاحظ أن التطور الاجتماعي يتجه حثيثًا نحو التوسع فى تشغيل المرأة، وبالتالى ضعف دورها كأم مسئولة عن بيتها وأولادها، وظهر أن الجمع بين العمل خارج البيت، ومسئولية تربية الأبناء، ورعاية الزوج، قد تأثر بدرجة واضحة؛ مما يؤدى إلى ضعف الروابط الأسرية.

وهذا ينذر بحدوث تفكك للأسرة المصرية مشابه لما حدث فى أوروبا وأمريكا، وهو أمر ملحوظ بالنسبة لكثير من الجرائم الأخيرة التى هزت وجدان المجتمع المصرى وراح ضحيتها أمهات وآباء وأبناء. فإن إهمال الجوانب المعنوية الدينية والقدوة الصالحة من الأب والأم وكل مسئول عن التربية، لعب دوراً واضحًا فى توجيههم إلى ارتكاب الجرائم وانعدم التوجه نحو القيم الدينية والمثل العليا والخلق الحسن والسلوك السليم، وإنما نجد حديثًا وإشادة بالمال والغنى والكرة، حتى أصبحت النماذج التى يجب على الشباب أن يحتذبها نماذج مريضة تافهة، كل ما يميزها أنها تمارس أعمالاً لا قيمة لها!

ولذلك فإننا لو سألنا عن مثلهم الأعلى فإننا سنسمع إجابات غريبة تتضمن أسماء أكثر غرابة لهذا المغنى أو لذلك اللاعب أو الممثل، فاصبح لا هم لهؤلاء الشباب إلا التطلع للوصول إلى ما وصل إليه هؤلاء؛ وحتى ولو كان هذا النجاح انحرافات خلقية!

وما نرى من التشجيع وإغداق الأموال بلا حساب والجوائز المغرية لهذا الممثل أو لتلك الراقصة يغرى الشباب والشابات بالعمل على الانخراط فى هذا السلك، على حساب الدين والخلق! وخلا ذهن الشباب وعقله من مثلنا العليا من الحكام العادلين والقواد العباقرة والمجاهدين الأبطال، وغيرهم وغيرهم.

وتؤكد الدكتورة سامية قطان أستاذ علم الاجتماع بالجامعة الامريكية بالقاهرة فتقول:

ان ازدياد الجرائم ذات الطابع الاسرى فى العام الاخير فى مصر ما هو إلا حصاد للسنوات السابقة عليه، ففى السنوات الاخيرة تزايدت التأثيرات العربية والغربية؛ بحيث شملت كل جوانب الحياة، وانتشرت الأذواق الغربية والمأكولات الغربية، وأصبحت طابعًا مميزًا لمن يريد أن يصبغ نفسه بصبغة المدنية الحديثة. ونحن بدورنا نضيف: حتى الزى تخلت عنه كل طبقات الشعب رجالاً ونساءً، وأصبحنا نرى الشباب والرجال والنساء خليطًا لا تكاد تميز الرجل من المرأة، وضاع الحياء، وسيطر التقليد الأعمى فى كل مرافق الحياة، ولا تكاد تجد فارقًا بين المصرى والأمريكى والأوروبى، وانمحت الشخصية المصرية المسلمة، مع أن الله حذرنا فى القرآن الكريم فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) ﴾ [البقرة: ١٠٤].

ويفسرها حديث رسول الله ﷺ الذى يرويه الإمام احمد بسنده عن النبى ﷺ يقول: «بعثت بالسيف بين يدى الساعة، حتى يُعبدَ الله وحده، وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعلت الذلة والصغار على من خلف أمرى، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

وقد تشبهنا بكل الأقوام حتى تشبهنا باعدائنا فى الملبس والمأكل والتحية، وصار التكلم باللغة العربية أمرًا غريبًا. ولهذا الانحدار الذى وصلنا إليه كان الذل وضعف الشخصية، وانهيار القيم والأخلاق والسلوك.

وليس لنا سوى مخرج واحد؛ وهو الرجوع إلى أساس العزة والكرامة وقوة الشخصية؛ الا وهو الإسلام فهمًا وتطبيقًا.

وهذا ما اجمع عليه كل علماء النفس والاجتماع والفكر.

فيا أيها الشباب ذكورًا وإناثًا ويا أيها المسئولون: عودوا بأمتكم إلى سالف مجدها ومنبع عزها وسيادتها؛ الا وهو الإسلام كاملاً قولاً وعملاً.

الفصل الخامس

صور مشرقة للأسرة المسلمة

الأسر المسلمة القدوة

١- وا.. محمداه

«اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة» دعاء النبي ﷺ للمجاهدة:

١- نسيبة بنت كعب وزوجها وولديها.

كان جبل «أحد» - خارج المدينة المنورة - يشهد في ذلك اليوم التاريخي معركة ضارية بين المسلمين المنتصرين ببدر، وبين المشركين الذين جاءوا بجموعهم ليثأروا لهزيمتهم في موقعة بدر..

ودارت رحى القتال كما يدور القتال في كل معركة في ذلك الزمن.. بين مقاتلين راجلين وراكبين.. حاملين السيوف أو الرماح أو النبال.. وعلى الرغم من قلة عدد المسلمين المجاهدين بالنسبة لكثرة المشركين، فقد انتصر المسلمون في المرحلة الأولى من المعركة، وولى المشركون الأدبار، وطلب الرسول ﷺ من عدد من أتباعه المقاتلين أن يقفوا بقمة الجبل مترصدين للأعداء. وكان ﷺ - ببعد نظره، وخبرته القتالية، وما يملأ قلبه من نور الإيمان - يتوقع أن يكر المشركون بعد فرارهم إذا وجدوا الفرصة متاحة، وقد حدث ما كان يتوقعه ﷺ، وانتهز المشركون فرصة انصراف الحراس عن قمة الجبل للمشاركة في الغنائم؛ وكر المشركون لمواصلة القتال والقضاء على المسلمين.

وصمد النبي ﷺ مع عدد قليل من الصحابة - رضي الله عنهم - أمام جحافل المشركين، وكان بين المجاهدين المسلمين امرأة مجاهدة، تتخلل صفوفهم، وتحمل السقايات بالماء للظامئين منهم، وتضمد جراح المصابين، وتحمس المقاتلين على المزيد من القتال والبذل، وترد القول بين الحين والآخر: «ما أبالي ما أصابني من أمر بعد ذلك»، وكانت تقصد دعاء الرسول ﷺ لها قبيل المعركة.

فقد أسرعت نسيبة بنت كعب بن عمرو، الأنصارية، تحث الناس على الجهاد، حين علمت أن الرسول ﷺ قرر ملاقاة المشركين في جبل أحد، وقد قالت لزوجها يومذاك: «الآن حق الجهاد لنصر دين الله»، فرد عليها زوجها زيد بن عاصم: حق الجهاد يا نسيبة.. فهيئي لي سلاحي..

وقال ولداها الفارسان حبيب وعبد الله...

نعم أماه: لقد حق الجهاد فهيئي لنا السلاح، وقالت نسيبة رضى الله عنها: «لقد هيأت لكم ولنفسى؛ فإن الجهاد فى سبيل الله فرض على كل مسلم ومسلمة..

.. وخرجت الأسرة بأكملها

نسيبة وزوجها وولداها نافرين إلى الجهاد فى سبيل الله حاملين السلاح والعتاد، لا يبغون إلا نصرة الدين الذى اعتنقوه قبل أن يروا الرسول ﷺ أو يسمعوا منه، فقد آمنوا به وهم فى المدينة قبل هجرته إليها، وقد أشهروا إسلامهم بين يدى الرسول ﷺ فى بيعة العقبة الثانية، وبذلك كانت نسيبة فى طليعة اللاتى سارعن إلى اعتناق الإسلام، والإيمان برسالة النبى ﷺ، ولا عجب أن كانت أسعد الناس قلبًا، وأعظمهم سروراً بهجرة النبى ﷺ إلى المدينة.

وبينما كانت الأسرة ماضية إلى ملاقاة المشركين فى جبل «أحد» رآهم النبى ﷺ فابتسم وقال لهم:

«رحمكم الله أهل بيت.. بارك الله فيكم أهل بيت»، ورأت نسيبة أن تنتهز الفرصة التى لا تتكرر، فقالت للرسول عليه الصلاة والسلام: «يا رسول الله.. ادع أن نرافقك فى الجنة»، فقال الرسول ﷺ: «اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة».

وظل هذا الدعاء يتردد فى قلب نسيبة وهى تؤدى واجبها فى المعركة فى مرحلتها الأولى... ولما بدأت المرحلة الثانية التى اشتد فيها الأمر على المسلمين، وقد شتتت مفاجأة المشركين لهم شملهم، اندفعت نسيبة تقاتل وتناضل بين القلة القليلة التى صمدت فى المعركة مع رسول الله ﷺ.

ورأت المجاهدة البطلة أن المشركين يركزون على قتل النبى ﷺ للقضاء على الإسلام؛ لأن أى نصر يحرزونه دون قتل النبى، لن يكون نصراً، وإنما هو فوز مؤقت، لا يقدم ولا يؤخر. وأسرعت نسيبة إلى الذين وقفوا يدافعون عن الرسول ﷺ - الذى كان يقاتل بلا هوادة أو تراجع، ولما رأت أن الكفار قد شرعوا سيوفهم لقتل النبى ﷺ فى محاولة أخيرة؛ أطلقت صيحتها المشهورة التى رددتها الجبال والقفار:

وا.. محمداه:

وانقضت على جميع المشركين المحيطين بالنبى ﷺ يريدون منه مقتلاً؛ فأعملت فيهم السيف مرة وهى عن قريب، ثم تبتعد لتعمل فيهم القوس والسهام.. ثم تقترب لتضرب

بالسيف مرة أخرى، وتتراجع لتضرب بالنبال، كل هذا ببسالة وشجاعة أصبحت مضرب الأمثال.

وقد قالت - وهى تصف ما حدث:

خرجت أول النهار أنظر الناس، ومعى سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ، وهو فى أصحابه، والدولة والربح للمسلمين.. فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال وأدافع عنه بالسيف وأرمى بالقوس حتى صلصلت الجراح لى.

وظلت أم عمارة تقاتل عن النبى ﷺ، وتحميه بجسمها، تتلقى عنه الطعنات، حتى قالوا إن الرسول ﷺ كان ينظر أمامه فيراها، وينظر إلى يمينه فيراها، وينظر إلى شماله فيراها.. فحيثما التفت رآها، وفى يدها سيف تضرب به أو رمح ترمى به.

وليس من عجب أن يضيق المشركون بها وببسالتها وبراعتها فى استعمال السلاح، السيف والقوس، بل فى إصرارها على الشهادة؛ حماية لرسول الله ﷺ، فشددوا عليها، وشرعوا يضيقون عليها الخناق ليقتلوها أو يصيبوها ويخرجوها من المعركة، واستطاع أحدهم أن يصيبها بضربة سيف فى كتفيها، فسقطت مضرجة فى دمائها.

وتقول أم عمارة عن إصابتها:

لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل ابن قمئة يقول:

- دلونى على محمد - فلا نجوت إن نجا.. فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير، وأنا ممن ثبت مع رسول الله ﷺ، فضربنى عدو الله هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن اللعين كان عليه درعان.

ولما رأى الرسول ﷺ الدماء تسيل من أم عمارة، هتف بابنها يوصيه: يا ابن أم عمارة.. أمك.. أمك.. اعصب جرحها بارك الله عليكم من أهل بيت، فمقام أمك خير من مقام فلان وفلان، وذكرا أسماء بعض الصحابة.

وبعد أن توقفت رحى القتال.. عادا المسلمون يتفقدون الشهداء والجرحى، وهم أشد ما يكونون ندمًا لعصيانهم تعليمات النبى ﷺ، وأشد ما يكونون وعيًا للدرس الذى تعلموه فى هذه المعركة، وفيما هم كذلك إذا بهم يعثرون على أم عمارة صريعة الجراح والدماء تنزف منها، ولكن بها رمق من الحياة، فهتف بها أحد المسلمين:

نسيبة.. كيف أنت؟.. وما أصابك؟؟

فقالت نسيبة – وهى تلتقط أنفاسها ببطء –:

«حدثونى أولاً عن محمد نبى الله ﷺ، هل رد الله عنة كيد العدو فنجا؟»

قالوا – وهم يحمدون الله:

نعم يا نسيبة.. لقد رد الله كيد العدو إلى نحره، ونجا الرسول الكريم ﷺ..

قالت – وهى تحاول الجلوس:

«ساعدونى إذن لأذهب إليه وأراه بعينى»..

فقال أحدهم مدهوشاً:

هلا سالت عن زوجك زيد.. وولديك حبيب وعبد الله؟

فردت بحزم وصدق:

«لا تحدثونى عن غير محمد رسول الله ﷺ»..

وهكذا كانت نسيبة تقيم الدليل – على كثرة الأدلة – على ما كان عليه المؤمنون الأوائل من تفانٍ فى حب رسول الله ﷺ ودعوته، وإيمان بدين الله، واستعداد لتضحية بالنفس والزوج والولد لإعلاء كلمة الله.

وظلت نسيبة على إيمانها وشجاعتها وتضحياتها.. وشهدت بيعة الرضوان مع رسول الله ﷺ.

فلما انتقل الرسول – عليه الصلاة والسلام – إلى الرفيق الأعلى، وقفت بجانب خليفته الصديق أبى بكر – رضى الله عنه – فى حروبه مع المرتدين، مانعى الزكاة.. ولما ظهر بأرض اليمامة مدعى النبوة «مسيلمة الكذاب» أرسل إليه أبو بكر الصديق رضى الله عنه جيشاً لقتاله... وقبل ان يتحرك الجيش قالت أم عمارة – كما قالت يوم أحد:

«الآن حق الجهاد، لنصر دين الله».

ولكن ولدها حبيب قال لها ضارعاً:

«أذهب وتبقين أنت يا أماه..

وانطلق حبيب مع جيش المسلمين مجاهداً فى سبيل الله، للقضاء على عدو الله فى

اليمامة.. ولكنه وقع أسيراً في يد مسيلمة الكذاب مدعى النبوة. وحاول الكذاب اللعين.. ان يثني حبيباً عن الإسلام، وان يغريه بالكفر بالإسلام فقال له:

«اتشهد ان محمداً رسول الله...؟»

فقال حبيب بإصرار وثبات: «نعم، اشهد ان لا إله إلا الله.. وان محمد رسول الله..» ويضيق صدر مسيلمة بذلك ويقول:

- اتشهد انى رسول الله؟

فيقول حبيب: «أشهد أنك عدوا الله.. الكذاب بن الكذاب».

وامر مسيلمة الكذاب بتعذيب حبيب بن زيد حتى يصرفه عن الإسلام، ولكن حبيباً احتمل العذاب بصبر المؤمن الذى يجد فى كل عذاب من أجل الإسلام متعة لا تعدلها متعة. اليس هذا العذاب هو الذى يقربه من الجنة؟! حتى لقد قيل: «إن المؤمن المعذب ليشم ريح الجنة فيتحول عذابه إلى راحة ونعيم!»

بلغ الغضب مداه من مسلمة الكذاب بصبر حبيب وثباته وشجاعته، فامر اللعين بتقطيع اعضاء حبيب عضواً عضواً، ولكن حبيباً ارتفع بإيمانه وثباته، فكان يصيح عند قطع كل عضو - بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، حتى استشهد مؤمناً ثابتاً شجاعاً على كلمة الإسلام والحق.

ولما بلغ أمه نبأ استشهاده.. لم تحزن ولم تذرف الدمع وقال:

«الآن لا ينوب عنى أحد فى الجهاد لنصرة الإسلام».

وحملت سيفها مرة أخرى، وخرجت للقتال ضد مسيلمة الكذاب ومعها ولدها الثانى عبد الله، ونذرت نسيبة الا يهنأ لها بال حتى يُقتل مسيلمة الكذاب بيدها او بيد أحسن المسلمين، فاندفعت تقاتل ببسالتها المعروفة، وهى تشق طريقها إلى حيث يكمن الكذاب اللعين.

وعلى الرغم من ان ذراعها قد قطعت فى المعركة، إلا أنها لم تتراجع، وإنما قالت لابنها عبد الله تزيده حماساً:

«أنت الآن ذراعى.. فاحمل على عدو الله حتى تقتله».

وحقق الله أملها، فكان عبد الله احد الذين تسابقوا إلى قتل مسيلمة الكذاب. وتقول أم عمارة عن هذا الحادث:

«قطعت ذراعى يوم اليمامة وأنا أريد قتل مسيلمة، وما كان لى ناهية حتى أرى الخبيث صريعًا، وإذا عبد الله ابنى يمسح سيفه بثوبه، فقلت له: «أقتلته»؟ فلما قال نعم.. فسجدت لله شكرًا».

وهكذا بقيت أم عمارة، إلى آخر يوم من حياتها، تضرب المثل فى الشجاعة والإقدام وعمق الإيمان، والتضحية بالنفس والزوج والولد فى سبيل إعلاء كلمة الله ونصر دينه رضى الله عنها وعن زوجها وولديها «رحمكم الله أهل بيت.. بارك الله فيكم أهل بيت»، وصدق رسول الله ﷺ.

٢- الأسرة المسلمة القدوة:

ذات النطاقين: أسماء بنت أبى بكر الصديق وزوجها الزبير بن العوام وابنها عبد الله بن الزبير

هذه الأسرة ضربت المثل الأعلى فى القدوة الحسنة:

فالزوج: الزبير بن العوام: حوارى رسول الله ﷺ من قوله ﷺ بن الزبير من العوام، وطلحة بن عبيد الله: «طلحة والزبير» جاراى فى الجنة».

وهما من العشرة المبشرين بالجنة.

وكان إسلام الزبير مبكراً، فهو واحد من السبعة الأوائل الذين سارعوا إلى الإسلام.

ويلتقى الزبير مع رسول الله ﷺ من جهة أبيه فى قصى بن كلاب، وأمه صفية عمة رسول الله ﷺ.

وحين أسلم كان عمره خمس عشرة سنة، وهكذا رزق الهدى والنور والخير صبيًا. ويذكر بعض المؤرخين أن أول سيف شهر فى الإسلام كان سيف الزبير.

وقد حمل حظه من العذاب واضطهاد قريش.

وكان الذى يتولى تعذيبه عمه.. كان يلفه فى حصير، ويُدَخِّن عليه بالنار كى تزهق أنفاسه، ويناديه وهو تحت العذاب: «اكفر برب محمد، أدرأ عنك العذاب».

فيجيبه الزبير فى تحد رهيب:

«لا، والله لا أعود للكفر أبداً».

ويهاجر الزبير إلى الحبشة، الهجرتين الأولى والثانية.

وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، لا تفتقده غزوة ولا معركة، ولقد كان حظه من حب رسول الله ﷺ وتقديره عظيمًا.. وكان الرسول ﷺ يباهي به ويقول:

«إن لكل نبى حواريا، وحواريّى الزبير بن العوام».

ذلك أنه لم يكن ابن عمة رسول الله ﷺ فحسب، ولا زوج أسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين فحسب، بل كان - فوق ذلك - الوفى القوى، والشجاع الأبى، والجواد السخى، والبائع نفسه وماله لرب العالمين:

لقد كان يدير تجارة ناجحة، وكان ثراؤه عريضاً، لكنه أنفقه فى الإسلام، حتى مات مديناً.

ولما رأى الزبير الحق فى نفض يديه من القتال يوم موقعة الجمل، تبعه نفر من الذين يريدون للفتنة دوام الاشتعال، وطعنة القاتل الغادر وهو بين يدى ربه يصلى.

وذهب القاتل إلى الإمام على رضى الله عنه، يظن أنه يحمل إليه بشرى حين يُسمعه نبأ قتله الزبير.

لكن عليا كرم الله وجهه صاح حين علم أن بالباب قاتل الزبير يستأذن صاح آمرًا بطرده قائلا:

«بشر قاتل ابن صفية بالنار».

وحين أدخلوا على الإمام سيف الزبير قبله وأمعن فى البكاء وهو يقول: «سيف طالما والله جلا به صاحبه الكرب عن رسول الله ﷺ»..

سلام على الزبير فى مماته بعد محياه.

سلام، ثم سلام على حوارىّ رسول الله ﷺ.

أما الزوجة فهى:

أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه، ذات النطاقين:

حديث أسماء بنت أبى بكر عند الطبرانى:

كان رسول الله ﷺ يأتينا بمكة كل يوم مرتين بكرة وعشيا.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت:

«فبينما نحن يوما جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة، قال قائل لأبى بكر:

هذا رسول الله ﷺ متقنعا فى ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر:

فداء له أبى وأمى، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل، فقال النبى ﷺ لأبى بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك يارسول الله بأبى أنت وأمى. قالت عائشة: وليس عند أبى بكر إلا وأنا وأسماء. قال رسول الله ﷺ : فإنى قد أذن لى فى الخروج.

فقال أبو بكر: الصحابة (أو الصحبة) بأبى أنت وأمى يارسول الله قال رسول الله ﷺ: (نعم) قال أبو بكر: فخذ – بأبى أنت يارسول الله – إحدى راحلتى هاتين: قال رسول الله ﷺ « بالثمن ». قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا سفرة فى جراب فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب.

فكانت أسماء تمسيهما كل ليلة بالزاد والماء، وبما عسى أن تكون قد سمعته، أو رأته من حديث القوم وخبرهم.

ثلاثة أميال إلا قليلاً كانت تقطعها الصبية الناشئة فى جوف الليل، ووحشة الطريق بين أسنة الصخر، ومساخات الرمال ماشية متخفية، حذرة مترقبة، حتى تصعد إلى هامة الجبل،، ثم تنحدر فى جوفه، فتوافى رسول الله ﷺ بما قصدت له.

وكان أخوها عبد الله له مهمة أخرى: يبيت بمكة فيسمع ما يأتمر به المشركون وما يدور من أحداث تمس الدعوة، ثم يذهب إلى رسول الله وأبى بكر فى الغار قبل أن تستيقظ الناس صباحاً، فيوافي المهاجرين الكريمين بما رأى وسمع.

ذلك مثل من الأمثلة لتلك النفوس التى استخلصها الله تبارك وتعالى لدينه، واصطنعها لدعوته، فكانت مستقر الكمال، ومجتمع أشتات الفضائل.

ولئن سلمت أسماء من عثرات الطريق، فقد مُحنت بالشديد المؤلم من بلاء قريش وأذاهم، فلقد أحاط بها رجال القوم ذات صباح ليتعرفوا منها أمر أبيها، فأنكرت أمره، وتجاهلت خبره، ثم أمعنوا فى محنتها، واشتدوا فى أذاها، حتى لقد لطمها اللعين أبو جهل ابن هشام لطمة طار لها قرطها، فلم يوهن ذلك شيئاً من عزيمتها، ولا عبث بمكنون سرها. كذلك اقتحمت أسماء ذلك الطريق الرائع المخوف ثلاث ليال متواليات.

وفى الليلة الثالثة – وهى ليلة العزم على مفارقة الغار إلى عرين الأنصار بالمدينة – وافتهما أسماء بزاد السفر كله، فلما أذن رسول الله ﷺ بالرحيل، نهضت لتعلق سفرة الزاد، فإذا

ليس لها عصام، فلم تجد ما تعصمها به إلا نطاقها فشقته نصفين، فعصمت السفرة، ووكات السقاء بباقيه، فأبدلها الله بنطاقها ذلك نطاقين فى الجنة. كذلك وعدها رسول الله ﷺ، فسميت منذ ذلك اليوم: «ذات النطاقين».

ومن حديث أسماء قالت:

لما خرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر، احتمل أبو بكر ماله كله: خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم، فانطلق بها، فدخل عليهم جدهم أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه.

قالت: قلت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً. قالت: فأخذت أحجاراً فوضعتها فى كوة فى البيت، كان أبى يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوبا، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال، قالت: فوضع يده عليه فقال: لا بأس إذا ترك لكم هذا، فقد أحسن، وفى هذا بلاغ لكم.

تقول أسماء: لا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك.

زواجها رضى الله عنها

قالت: تزوجنى الزبير، ثم حملت بعبد الله. فخرجت – كما قالت – وهى مُتمّ؛ أى أتمت شهور الحمل، فأتت المدينة مهاجرة فنزلت بقباء، فولدته بقباء، قالت: فأتيت به النبى ﷺ، فوضعته فى حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل فى فمه، فكان أول شىء دخل فى جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه؛ أى دلك فمه من الداخل بالتمرة، ثم دعا له وبرّك عليه، وكان أول مولود فى الإسلام بعد الهجرة.

شأنها مع ابنها عبد الله بن الزبير

واحتشد المسلمون فى المدينة وحملوا الوليد فى مهده، ثم طوّفوا به فى شوارع المدينة كلها مهللين مكبرين.

ذلك أن اليهود، حين نزل الرسول ﷺ وأصحابه المدينة، كبتوا واشتعلت أحقادهم، وبدأوا حرب الأعصاب ضد المسلمين، فأشاعوا أن كهنتهم قد سحروا المسلمين، وسلطوا عليهم العقم، فلن تشهد المدينة منهم وليداً جديداً.

ومضى عبد الله مع أيامه وقدره، لا تتغير خلائقه العظيمة، إنما هو رجل يعرف طريقه

ويقطعه بعزيمة جبارة، وإيمان وثيق.

وفى معركة أفريقية وقف المسلمون فى عشرين ألف جندى أمام عدو قوام جيشه مائة وعشرون ألفاً.

والقى عبد الله بن الزبير نظرة على قوات العدو، فعرف مصدر قوتهم، وما كان هذا المصدر سوى ملك البربر وقائد الجيش، يصيح فى جنوده ويحرضهم بطريقة تدفعهم إلى الموت دفعاً. هنالك نادى بعض إخوانه، وقال لهم: «احموا ظهرى، واهجموا معى».

وشق الصفوف المتلاحمة كالسهم نحو القائد حتى إذا بلغه هوى عليه فى كرة واحدة فهوى، ثم استدر بمن معه من الجنود الذين كانوا يحيطون بملكهم فصرعوهم، ثم صاحوا: الله أكبر، وشدوا شدة رجل واحد، وانتهى كل شيئ لصالح المسلمين.

على أن بطولته فى القتال كانت - رغم تفوقها - تتوارى أمام بطولته فى العبادة.

وظل ابن الزبير أمير المؤمنين، متخذا من مكة المكرمة عاصمة خلافته، باسطاً حكمه على الحجاز واليمن، والبصرة والكوفة، وخراسان والشام كلها ما عدا دمشق.

حتى جاء عهد عبد الملك بن مروان، فانتدب لمهاجمة عبد الله بن الزبير واحداً من أشقى بنى آدم، وأكثرهم إيغالاً فى القسوة والإجرام، ذلكم هو الحجاج الثقفى الذى قال عنه الإمام العادل عمر بن عبد العزيز:

«لو جاءت كل أمة بخطاياها، وجئنا نحن بالحجاج وحده لرجحناهم جميعاً».

وذهب الحجاج بجيشه وحاصر مكة، وطال حصارها واشتد الجوع، وتحت وطأته استسلم الأكثرون، ووجد عبد الله نفسه وحيدا أو يكاد، وراح يقاتل جيش الحجاج فى شجاعة أسطورية، وهو يومئذ فى السبعين من عمره.

ولن نبصر صورة أمينة لذلك الموقف الفذ إلا إذا أصغينا إلى الحوار الذى دار بين عبد الله وأمه العظيمة المجيدة «أسماء بنت أبى بكر» فى تلك الساعات الأخيرة من حياته.

ذهب إليها ووضع أمامها صورة دقيقة لموقفه، وللمصير الذى بدا واضحاً أنه ينتظره.

قالت له أسماء:

«يا بنى: أنت أعلم بنفسك؛ إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حق، فاصبر عليه حتى تموت فى سبيله، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية.

وإن كنت تعلم أنك أردت الدنيا، فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك».

قال عبد الله:

«والله يا أماه، ما أردت الدنيا، ولا ركنت إليها، وما جرت فى حكم الله أبدا، ولا ظلمت، ولا غدرت.

قالت أمه أسماء:

«إنى لأرجو الله أن يكون عزائى فيك حسنا إن سبقتنى إلى الله أو سبقتك اللهم ارحم طول قيامه فى الليل، وظمأه فى الهواجر، وبره بأبيه وبى».

«اللهم إنى أسلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبنى فى عبد الله بن الزبير ثواب الصابرين الشاكرين»، وتبادلاً معا عناق الوداع وتحيته. وبعد ساعة من الزمن وانقضت فى قتال مرير غير متكافئ، تلقى الشهيد العظيم ضربة الموت، فى وقت استأثر الحجاج فيه بكل ما فى الأرض من حقارة ولؤم فأبى إلا أن يصلب الجثمان الهامد، تشفيا وخسة!.

وقامت أمه، وعمرها يومئذ سبع وتسعون سنة، قامت لترى ولدها المصلوب. وكالطود الشامخ وقفت تجاهه لا تريم، واقترب الحجاج منها فى هوان وذلة قائلاً لها: يا أماه، إن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد أوصانى بك خيرا، فهل لك من حاجة؟!

فصاحت به قائلة: «لست لك بأم».

«إنما أنا أم ذلك المصلوب على الثنية».

«ومالى إليكم حاجة».

«ولكنى أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: «يخرج من ثقيف كذاب ومبير».

«فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فلا أراه إلا أنت»!.

وتقدم منها عبد الله بن عمر رضى الله عنه معزيا وداعيا إياها إلى الصبر، فأجابته قائلة:

«وماذا يمنعنى من الصبر، وقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل»؟!

يا .. لعظمتك يا ابنة الصديق

أهناك كلمات أروع من هذه تقال للذين فصلوا رأس عبد الله بن الزبير عن جسده قبل أن يصلبوه؟!

أجل .. إن يكن رأس «ابن الزبير» قد قدم هدية للحجاج ولعبد الملك، فإن رأس نبى كريم - هو يحيى عليه السلام - قد قدم من قبل هدية لـ «سالومى»: بغى حقيرة من بنى إسرائيل.

وبعد .. فهل كان يمكن لعبد الله بن الزبير أن يحيا حياته دون هذا المستوى البعيد من التفوق والبطولة والصلاح، وقد رضع لبان أم من هذا الطراز؟!

سلام على عبد الله.

وسلام على أسماء.

سلام عليهما فى الشهداء الخالدين.

سلام عليهما فى الأبرار المتقين.

الا تستحق هذه الأسرة:

الجد: أبو بكر الصديق.

الأم: أسماء بنت أبى بكر.

الأب: الزبير بن العوام.

الابن: عبد الله بن الزبير.

التقدير والاحترم والتعظيم، والاقتداء بها؟! فما أحوج الأسرة المسلمة اليوم إلى قدوة صالحة، وها هى القدوة كأنها تعيش بيننا، فهلمى أيتها الأم وأيها الأب وأيها الأبناء إلى ذلك الصرح العظيم: صرح القدوة الحسنة. ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] صدق الله العظيم.

قدوة الرجال فى البطولة

مر بنا أحد هؤلاء الأبطال القدوة وهو عبد الله بن الزبير رضى الله عنه، ومر بنا أبوه الزبير ابن العوام «حوارى رسول الله ﷺ»

قوة الإخوة الأشقاء

ونستعرض معاً صورة من صور البطولة النادرة التى لا توجد إلا حيث وجد الإيمان واستقر في القلب ومزج هذا الإيمان بالإخلاص، واليكم النموذج الفذ: ثلاثة إخوة اشقاء فى المعركة.

معركة فتح نهاوند «بلاد الفرس»

فكان القائد: النعمان بن مقرن.

ومعه: أخوه نعيم بن مقرن، على مقدمة الجيش.

ومعه: أخوه سويد بن مقرن على مجنبة الجيش، ومعه حذيفة بن اليمان.

ومعه: القعقاع بن عمرو على المجردة.

ومعه: مجاشع بن مسعود على الساقة.

قال النعمان قائد الجيش لجنوده:

استعدوا فإنى مكبر ثلاثاً؛ فإذا كبرت الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ.

وإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه وليتأهب للنهوض.

فإذا كبرت الثالثة فإنى حامل على العدو؛ إن شاء الله، فاحملوا معاً.

ورفع النعمان رأسه إلى السماء يبتهل إلى اللّه عز وجل – أن يكتبه مع الشهداء فقال: «اللّهم أعز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهداء اليوم على اعزاز دينك ونصر عبادك».

فتح الفتوح

انتهى النعمان من حديثه مع جنوده، وصلى الظهر ركعتين: صلاة الخوف وعاد إلى مكانه، والناس ينتظرون التكبير، فلما كبر الثالثة حمل المسلمون على عددهم، وانقض النعمان على العدو كأنه عقاب انقض على فريسة، وقد أعلم نفسه بعمامة بيضاء وثياب أبيض، والتحم الجيشان.

وقتل النعمان أمير المسلمين، حيث زلق فرسه فى الدماء فصرعه وأصابه سهم فى خاصرته، ولم يشعر به أحد إلا أخوه نعيم بن مقرن، فحمل الراية إلى حذيفة بن اليمان،

وخشى المغيرة بن شعبة أن يتكشف أمر الناس، فقال اكتموا مصاب أميركم حتى ننظر ما يصنع اللّه فينا وفيهم.

ولبس سواد بن مقرن ثياب أخيه القائد الشهيد، وتقلد سيفه، وركب فرسه، فلم يشك الناس أنه النعمان، فثبتوا يقاتلون عدو الله وعدوهم حتى أنزل اللّه نصره، وأعز جنده، وهزم عدوه.

وسمى ذلك الفتح فتح الفتوح؛ لأنه لم يكن للفرس بعده اجتماع، وملك المسلمون بلادهم.

هدأ المسلمون بعد عناء طويل، ونعمت أعينهم بنصر الله لهم، وراحوا يسألون عن قائدهم أين النعمان؟ فقال لهم أخوه معقل: هذا أميركم، قد أقر اللّه عينه بالفتح، وختم له بالشهادة، وأدرك معقل النعمان وبه رمق، فغسل وجهه، فقال له النعمان: من أنت؟ فقال معقل: قال النعمان: ماذا صنع المسلمون؟

قال: أبشر بفتح الله ونصره.

قال النعمان: الحمد للّه، اكتبوا إلى عمر.

ليست هذه أساطير، ولا أمنيات، ولا خيال، ولكنه الواقع، واقع الإخوة الأربعة: القدوة الفذة، التى لم يكن الشباب - مثل اليوم - أشد حاجة لها فى واقعه الذى صار بينه وبين المثل العليا والقدوة الصالحة للإخوة الأشقاء أمد بعيد. فانهضوا ولا تتأخروا ولا تسوفوا، فالوقت هو الحياة، ولن تكون الحياة حياة حقيقية إلا وفى مقدمتها الشباب وصانعها الشباب، وحارسها الشباب، ومعقد الأمل الشباب.

واللّه معكم ولن يتركم أعمالكم

أما قدوة النساء فمنها الكثير

ولنأخذ أولاهن فى الفهم والبذل والثبات والوقوف بجانب الزوج:

السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين

هى أول زوجات النبى ﷺ ولها مواقف لا يدانيها فيها أحد، فمنها:

١- وقوفها بجانب النبى ﷺ تشد أزره وتهدئ من روعه، عندما نزل عليه جبريل عليه السلام فى غار حراء بأول آيات القرآن الكريم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ

﴿الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③﴾ [العلق: ٢، ٣].

فعاد النبى ﷺ إلى بيته يرتجف ويقول: زملونى زملونى..

وعندها تقول له زوجه الوفية: «لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتقرى الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق».

٢- وهى التى وقفت بجانب النبى ﷺ فى شعب أبى طالب الذى حاصر الكفار المسلمين فيه، وقاطعوهم، فأنفقت كل مالها - وكان كثيراً - فى إطعام المسلمين المحاصرين حتى نفد كل مالها.

٣- وهى التى نزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ يقول له: الله تبارك وتعالى يقرئ خديجة السلام، ويبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

٤- وهى القائلة عند اشتداد المرض عليها وقرب نهايتها: «يارسول الله كنت أرجو أن أعيش حتى أرى راية الإسلام خفاقة على العالمين».

٥- وهى التى لم يتزوج الرسول ﷺ غيرها حتى لقيت ربها، وكان أشد ما يكون وفاؤه لها بعد موتها، حتى إنه كان يكرم صديقاتها إكراماً لها.

أما الثانية القدوة فهى: الصديقة بنت الصديق، عائشة أم المؤمنين:

١- وهى التى لم يتزوج النبى ﷺ بكراً غيرها .

٢- وكانت ذكية لماحة فقيهة عالمة بالفقة والدين، حتى إن كبار الصحابة كانوا يسألونها عندما لا يجدون من يفتيهم فى مسألة من المسائل الفقهية. يقول عنها الكاتب الأديب عباس العقاد - رحمه الله:

نحن لا نعتسف التوفيق والترتيب حين نقول عن - عائشة بنت الصديق:

٣- إنها لوحظت فى آداب العرب والإسلام؛كأنها الوجهة التى اتجهت إليها هذه الآداب فى طريق الارتقاء والتهذيب.

٤- ومن قسمتها فى الإسلام أنها ملكت حقوق المرأة المسلمة، وتجاوزتها فملكت الحظوة التى يضفيها على نسائه بنى كريم، يتجاوز الحقوق المفروضة صُعدا فى معارج الكمال، وكانت هى - بعد هذا - صاحبة الحظوة الأولى بين هؤلاء النساء.

ويقول: «المرأة الخالدة»

إن المرأة التى اجتمعت لها خلاصة الرعاية فى آداب أمة من الأمم لذات شأن فى تاريخ قومها، لا يسهو عنه باحث موكل بدراسة التاريخ أو دراسة الآداب.

٦- وأعظم من ذلك شأن المرأة التى كتبت لها خلاصة الرعاية فى دين من الأديان، والتى اشتركت فى سيرة النبى المرسل بذلك الدين، ونقلت أحاديثه فى أحكام شريعته، وخطرات ضميره، ولقيت عنده الحظوة التى لم تلقها واحدة والنساء.

هى المرأة التى قال عنها النبى ﷺ: «إنها أحب الناس إليه»، وتلقى الأعقاب عنها مئات الأحاديث التى عرفوه بها فى دينه ودنياه.

٧- والسيدة عائشة رضى الله عنها مثل من أمثلة الأنوثة الخالدة فى جميع أقوامها وجميع عصورها.

وإنها ترينا النبى ﷺ فى بيته؛ فترينا الرجل الذى ارتفع بالنبوة إلى أعلى مراتب الإنسانية، ولكنه - مع هذ هو - الرجل فى بيته، كما يكون الرجال بين النساء على سنة الفطرة المعهودة من آدم وحواء.

٨- ولم تنس قط أن تتحلى بما يروق النبى ﷺ من مرآها، فكانت تلبس المعصفر والمضرج، وتتحرى ما يعجبه من الطيب والحلية.

ودخلت امرأة وهى معصفرة فسألتها عن الحناء فقالت:

شجرة طيبة وماء طهور، وسألتها عن الخفاف فقالت لها:

«إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتصنعيهما أحسن ماهما فافعلى».

وبهذه الوصية الذهبية من السيدة عائشة رضى الله عنها نختم الحديث عنها، ولو أننا لم نثبت كثيراً من فضائلها، وحسبنا ذلك، والله الموفق.

الشاعرة المؤمنة المحتسبة: الخنساء

هى تماضر الشهيرة «الخنساء» بنت عمرو بن الشريد بن رباح، السلمية الشاعرة المشهورة، قدمت على رسول الله ﷺ مع قومها، فأسلمت معهم، فذكروا أن رسول الله ﷺ كان يستنشدها، ويعجبه شعرها فيقول: «هيه يا خنساء».

روى ابن الأثير أن الخنساء شهدت القادسية ومعها أربعة بنين لها فقالت لهم أول الليل:

يا بنى: إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين، ووالله الذى لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين؛ فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، وإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت لظىً على سياقها، وحللت ناراً على أرواقها، فيمحوا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا الغنم والكرامة فى دار الخلد والمقامة».

فخرج بنوها قابلين لنصحها، وتقدموا فقاتلوا وهم يرتجزون، وأبلوا بلاء حسنا واستشهدوا رضى الله عنهم.

فلما بلغها الخبر قالت ما عن هذا أسأل إنما أسأل: «هل قتلوا من الأمام أم من الخلف»؛ أى وهم يهجمون أم وهم يفرون؟ فقال لها المبشر: كلا يا أماه بل استشهدوا من الأمام وهم يصارعون العدو. فقالت قولتها المشهورة التى سطرها التاريخ بحروف من نور. قولة أم مؤمنة:

«الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته».

رحم الله الشهداء وأم الشهداء وجزاهم عن الإسلام خير الجزاء. والآن نكتفى بهذه الأمثلة فى القدوة النسائية.

ثم نعود إلى القدوة فى رجال حول الرسول ﷺ ومنهم:

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

هو عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بعد الخليفة الاول ابو بكر الصديق رضى الله عنهما، ولا يسعنا هنا أن نذكر قول فلان وبحث فلان عن عمر بن الخطاب، ولكن أولى ثم أولى أن نذكر قول الرسول ﷺ فى عمر.

يقول عباس العقاد فى كتابه «عبقرية عمر»:

«قد كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن فى امتى أحد فعمر». ويقول ﷺ:

«لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب»، وقوله:

«إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»، وقوله:

«عمر بن الخطاب معى حيث أحب، وأنا معه حيث يحب، والحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان».

ومن الحكم التى رويت عن عمر رضى الله عنه:

ففى الكتابة والقراءة قال:

«شر الكتابة المشق، وشر القراءة الهزرمة، وأجود الخط أبينه» ومنها فى المشورة:

«الرأى الفرد كالخيط السحيل، والرأيان كالخيطين المبرمين، والثلاثة سراء لا يكاد ينتقض».

ومنها: «إن الاقتصاد فى السنة خير من الاجتهاد فى الضلالة، فافهموا ما توعظون به، فإن الحريب من حُرب فى دينه» يريد المسلوب.

ومنها: «ثلاث من الفواقر: جار مقامة إن رأى حسنة سترها، وإن رأى سيئة أذاعها، وامرأة إن دخلت عليها لسنتك، وإن غبت عنها لم تأمنها، وسلطان إن أحسنت لم يحمدك، وإن أسأت قتلك»، ولسنتك؛ أى تناولتك بلسانها.

حب الأبناء والعدل بينهم

ورزق عمر الذرية من ذكور وإناث نجباء، ونجيبات، فقرت عينه بهم؛ لأنه - كان كأهل البادية كافة - يستكثر من الذرية ويوصى الناس أن يستكثروا منها، وكانوا جميعاً عنده بمكان الحب والمودة لا يخشى الانحراف عن العدل من جانب، كما يخشاه من جانب هذه الذرية، أو جانب أهله على التعميم، ويذكرهم:

«إن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، ويقسم لهم: لئن مثله أحد منكم لأضاعفن عليه العقوبة».

ومن أمثلته فى العدل مع أبنائه:

وهو قضاؤه فى اتجار ابنائه بمال من بيت مال المسلمين، وذاك أن ابنيه عبد الله وعبيد الله خرجا فى جيش إلى العراق، فلما قفلا نزلا بالبصرة، وذهبا إلى أبى موسى الأشعرى وهو اميرها فقال لهما: لو اقدر على امر انفعكما به؟ ثم عرض عليهما ان يحملا إلى ابيهما مالاً من مال الله، فيشتريا به متاعاً من العراق يبيعانه بالمدينة ثم يؤديان رأس المال، ويكون لهما الربح، فلما علم عمر سالهما:

«اكل الجيش أسلفه؟ ثم امرهما ان يؤديا المال وربحه، فسكت عبد الله وقال عبيد الله: ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين هذا، لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه! وقال رجل فى المجلس: يا أمير المؤمنين، لو جعلته قراضا؟ فأخذ رأس المال ونصف ربحه، وأخذ ابناه نصف ربح المال.

يموت عمر - أمير المؤمنين مديناً!

وحدث ما توقعه عمر من مجىء أجله قبل سداد ديونه جميعاً، فلم يشغله الموت، ولا شغلته كبار الخطوب التى يضطلع بتصريفها قبل موته ان يسال عن ديونه، ويوصى بسدادها من ماله ومال أهله، وقال لابنه:

إن وفى به - اى بالدين - مال آل عمر فاده من أموالهم، وإلا فاسأل فيه بنى عدى، فإن لم تفِ أموالهم فاسأل فيه قريشا، ولا تعدهم إلى غيرهم. وكان عبد الرحمن بن عوف حاضرا فأشار عليه مقترحا أن يستقرضها من بيت المال حتى تؤدى لم يقبل عمر، ودعا ابنه عبد الله فقال: اضمنها! فضمنها، ووفى بوعده، فلم يدفن أبوه حتى اشهد بها على نفسه أهل الشورى وعدة من الانصار، وما انقضى اسبوع حتى حمل المال إلى عثمان، وأحضر الشهود على البراءة بدفعه، وقد بيعت لعمر دار فى هذا الدين، وسميت زمناً باسم «دار القضاء»؛ لأنها بيعت فى قضاء دينه.

ولأن يموت عمر مدينا، وفى الدين، لهو أعظم الشرفين.. وايسر من ذلك شرفاً أن يموت غنيا بغير دين».

وللمرشد العام الثالث للإخوان المسلمين عمر التلمسانى - رحمه الله - كتاب قيم فى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه نلتقط منه بعض النفحات العمرية

كتب رحمه الله يقول: يقول رسول الله ﷺ:

«إن عمر أقوى أمتى فى دين الله» الاستيعاب ج ١ ص ٨، عن أنس بن مالك رضى الله عنهم. وناهيك بهذه الشهادة من خير خلق الله كلهم محمد ﷺ.

ويقول ﷺ لأبى بكر وعمر:

«لو اجتمعتما فى مشورة ما خالفتكما»، الإصابة ج ٢ ص ٣٣٥.

كما يقول ﷺ:

«رضا عمر رحمة»، ويقول حين رأى أبا بكر وعمر مقبلين:

«هذان السمع والبصر». الترمذى والحاكم عن أنس.

أما وكل هذا صحيح، فكيف لا نأخذ بأسلوب أحد وزيرى رسول الله ﷺ وسمعه وبصره، وأقوى مسلم فى دين الله، وصاحب المشورة المرتضاة، ومن يجب الاقتداء به تنفيذاً لأمر رسول الله ﷺ وطاعة له؟! وطاعة رسول الله ﷺ من طاعة الله ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ و﴾ [النساء: ٨٠].

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ⑦ ﴾ [الحشر: ٧].

خامس الخلفاء الراشدين: عمر بن عبد العزيز

يجدر بنا أن نعلم عن حفيد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وسميه وشبيهه فى عدله وتقواه وزهده، وعودة دولة الإسلام إلى عهدها العمرى الراشدى.

يقول عمر بن العزيز لأمه ليلى التى تكنى بأم عاصم:

تعرفين يا أماه؟! لأكونن مثل خالى عبد الله بن عمر.

وعبد الله بن عمر فى منزلة جده لأنه عم والدته ليلى.

كان ذلك وهو مع أمه بالمدينة المنورة يدرس على يد علمائها وفقهائها ، فقد كان - على شبابه المبكر - محباً للعلم والعلماء ولا يجالس إلا الشيوخ يتعلم ويختزن الحكم والنصائح.

فى سنه الخامسة والعشرين، اختاره الخليفة الأموى - الوليد بن عبد الملك - ليكون والياً على المدينة المنورة وحاكمها.

ومن ثم بدأ – أول ما بدأ – باختيار عشرة من أئمة العلم والورع والفضل فى المدينة المنورة، فجعلهم مجلس شوراه.

وهؤلاء العشرة هم: «عبد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعروة، وأبو بكر بن خيثمة، والقاسم بن محمد بن حزم، وسليمان بن يسار، وخارجة بن زيد بن ثابت، وسالم بن عبد الله، وعبد الله بن عامر بن ربيعة».

وفى أول اجتماع له بهم قال لهم:

«إنى دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعواناً لى على الحق.

أناشدكم الله إن رأيتم عدواناً أو باطلاً إلا أبلغتمونى أمره، وأرشدتمونى إلى الحق».

وراح يجعل من ولايته مثلاً عالياً، واتسعت رقعة سلطانه فصار والياً على الحجاز كله – مكة والمدينة والطائف وما حولها.

ولكنما أراد القدر أن يجعل من إمارته هذه تجربة للمهمة الجليلة والعظيمة التى يدخرها له فى غد، يوم تنتهى إليه خلافة المسلمين، وحكم الدولة المسلمة من أقصاها إلى أقصاها.

تروى زوجته فاطمة بنت عبد الملك هذه الواقعة:

«دخلت عليه يوماً وهو جالس فى مصلاه واضعا خده على يده، ودموعه تسيل.

فقلت له: ما بالك، وفيم بكاؤك؟

فقال: ويحك يافاطمة.. إنى قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت، ففكرت فى الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعارى المجهود، واليتيم المكسور، والمظلوم المقهور، والغريب والأسير، والشيخ الكبير، والأرملة الوحيدة، وذى العيال الكثير والرزق القليل، وأشباههم فى أقطار الأرض، وأطراف البلاد، فعلمت أن ربى سيسألنى عنهم يوم القيامة، وأن خصمى دونهم يومئذ محمد ﷺ، فخشيت ألا تثبت لى حجة، فلذلك أبكى».

عبر عن حاله أوضح تعبير خادم له رآه أمير المؤمنين يسحب برذونه (البغلة) التى يركبها مشاكه: «كيف حال الناس» ؟؟ . فيجيب الخادم:

«كل الناس فى راحة، إلا أنت، وأنا، وهذا البرذون..!!»

وحكت عنه عمته «أم عمرو» حين ألغى كل مخصصات بنى أمية وهى منهم وسلمت العمة ثم جلست وراحت تحملق بعينيها لا تكاد تصدق ما تراه..

لقد كان كل ما لديه من طعام: خبز جاف، وطبق عدس وملح!!

ودارت بها الأرض.

أهذا هو عمر الذى كان يخوض فى النعيم خوضا؟؟.

الآن وهو الخليفة المطاع يصير هذا طعامه!

لقد عاد يوماً إلى داره بعد صلاة العشاء، ولمح بناته الصغار فسلم عليهن كعادته، وبدلاً من أن يسارعن نحوه بالتحية كعادتهن، رحن يغطين أفواههن بأكفهن ويتبادرن الباب..

فسأل: ما شأنهن؟؟

فأجيب: بأنهن لم يكن لديهن ما يتعشين به سوى عدس وبصل، فكرهن أن يشم من أفواههن ريح البصل، فتحاشينه لهذا.

فبكى أمير المؤمنين، وقال يخاطبهن:

«يابناتى.. ما ينفعكن أن تعشين الألوان والأطايب، ثم يذهب بأبيكن إلى النار؟؟!!»

ونرى إحدى بناته الصغار صديقة لها تزين أذنيها بلؤلؤتين جميلتين، فترسل إلى أبيها ضارعة أن يشترى لها مثلها.

ويدعو أمير المؤمنين خادمه، ويأمره أن يجيء بجمرتين ملتهبتين ثم يطلب ابنته فيقول لها:

«إن استطعت أن تجعلى هاتين الجمرتين فى أذنيك جئتك بلؤلؤتين كهذه»!

إن مسئولية القدوة، إذن، لا تنحصر فيه هو - الخليفة والحاكم - بل وحسب منهجه وتقديره - تنال أهله جميعاً، حتى بناته الصغيرات.

وهكذا صار يحملهم على التضحية فى سبيل المسئولية والقدوة.

ويدخل عليه فى داره أحد خاصته المقربين، فيجده بركن منها تغطيه الشمس، وقد دثّر جسمه فى إزار، وحسبه الزائر مريضا، فسأله: ما باله..؟

فأجاب أمير المؤمنين:

«لا شيء، غير أنى أنتظر ثيابى حتى تجف.

قال الزائر: وما ثيابك يا أمير المؤمنين؟؟

قال عمر: قميص ورداء، وإزار..

قال صاحبه: الا تتخذ قميصا آخر ورداء وإزارا؟؟

قال الخليفة: كان لى ثم بَلِيت.

قال الزائر: الا تتخذ سواها ؟؟

وهنا شرقت كلماته بدموعه، وراح يجهش بالبكاء مسندا جبهته على راحتيه مردداً آية من القرآن الكريم:

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾ [القصص: ٨٣].

دخل عليه ابنه عبد الملك وكان يومئذ يتجه نحو السابعة عشرة من عمره، وقال: ماذا تريد ان تصنع يا أمير المؤمنين؟؟

فقال: اى بُنَى أريد أن اغفو قليلاً، فلم يبق فى جسدى طاقة.

فقال عبد الملك لأبيه: أتغفو قبل أن ترد المظالم إلى أهلها يا أمير المؤمنين؟

فقال أى بنى: إذا حان الظهر صليت فى الناس ورددت المظالم إلى أهلها إن شاء الله.

فقال عبد الملك: يا أمير المؤمنين ومن لك بأن تعيش إلى الظهر؟؟

فالهبت هذه الكلمة عزيمة عمر وأطارت النوم من عينيه، وبعثت القوة والعزم فى جسده المتعب وقال:

أدن منى اى بنى: فدنا منه فضمه إليه وقبل ما بين عينيه وقال:

الحمد لله الذى أخرج من صلبى من يعيننى على دينى.

ثم قام وأمر أن ينادى فى الناس:

الا من كانت له مظلمة فليرفعها.

وبلغه أن أحد أولاده اتخذ خاتما واشترى له فصاً بألف درهم، فكتب إليه:

أما بعد فقد بلغنى أنك اشتريت فصاً بألف درهم، فبعه وأشبع به ألف جائع، واتخذ خاتماً من حديد، واكتب عليه: «رحم الله امرأً عرف قدر نفسه».

ومرض ابنه عبد الملك، وجزعت فاطمة أمه أشد الجزع، أما أبوه فلم يجزع لقد علمته الأيام أنه لا يملك له شيئا، وأن قضاء الله نافذ، وراح يعود ابنه فيجد نور عينيه ينطفى فيستشعر الماً، إن عبد الملك يموت أمام عينيه فيحزن ولا يجد فى حزنه مأثماً، فرسول الله ﷺ بكى لموت ابنه إبراهيم ولم يتحرك لسانه بما يغضب الله.

وفاضت روح عبد الملك وهو بين ذراعيه فسالت دموعه على خديه حتى بللت لحيته، وبكت فاطمة وبكى كل من فى الدار .

وجاء إليه الناس يعزونه فقال:

«أمر رضيه الله فلا أكرهه».

الخاتمـــــة

كان عمر بخناصرة من دير سمعان بين حماه وحلب، فلما ذاع خبر مرضه هرع إليه أصحابه، وجاء رجاء بن حيوة يعود الخليفة العادل فالقاه وهو فى مرضه مشغولا بأمور المسلمين، إنه يكتب إلى عدى بن عدى:

«إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، من استكملها استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص.

إن الشائعات قد انتشرت فى أرجاء البلاد تقول:

إن بنى أمية قد دسوا السم للخليفة العادل، وقد سمع رجاء تلك الشائعات ثم قال لعمر المريض:

إنك مسموم

فقال عمر فى هدوء:

«لقد علمت يوم سقيت السم.

تدارك نفسك.

قال: والله لو أن شفائى أن أمس شحمة أذنى أو أوتى بطيب فأشمه، ما فعلت..!!

وراح عمر يوصى رجاء بن حيوة أن يغسله، ويكفنه، وأخذ رجاء ينظر إلى الرجل الأسم

النحـيل المسجى فى إشـفـاق، ولم يكن إشـفـاقـه على الرجل الذى لم يبلغ الاربعين بعـد وحسب، بل كان إشفاقه على الأمة التى ذاقت طعم الحق وستفقده من بعده. واستدعى عمر بن عبد العزيز مولاه الذى سقاه السم فقال له:

ويحك ما حملك على ما صنعت؟؟

الف دينار أعطيتها.

هاتها.

فذهب مولاه وأحضر الدنانير فاخذها عمر فوضعها فى بيت المال ثم قال لمولاه الخائن: «اذهب حيث لا يراك احد فتهلك».

ودخل عليه مسلمة بن عبد الملك ابن عمه فرأى الموت فى وجه أمير المؤمنين فقال: هؤلاء بنوك الا توصى لهم بشىء فإنهم فقراء.

قال عمر:

«إن وليِّى اللّه الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين. واللّه لا اعطهم حق احد، وهم بين رجلين: إما صالح فاللّه يتولى الصالحين، وإما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه.

واحس شوقاً إلى رؤية بنيه فامر أن يدعوهم فجاءوا. كانوا اثنى عشر ذكرا فنظر إليهم فذرفت عيناه ثم قال:

بنفسي الفتية.

وراح يوصى أبناءه ويودعهم:

يا بنى إن أباكم خير بين أمرين: أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار، أو أن تفتقروا ويدخل الجنة، فاختار الجنة وآثر أن يترككم للّه الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين. انصرفوا عصمكم اللّه واحسن الخلافة عليكم.

وجاء صوته واهب بقول:

أجلسونى فخفوا إليه وأجلسوه فقال:

«إلهى أنا الذى أمرتنى فقصرت، ونهيتنى فعصيت، ثم رددها ثلاث مرات وقال: ولكن لا إله إلا اللّه.

وإذا بصوت عمر بن عبد العزيز يسرى فى جنبات المكان كأنه آت من بعيد يقول «اللّهم رضنى بقضائك، وبارك لى فى قدرك، حتى لا أحب لما عجلت تأخيراً ولا لما أخرت تعجيلاً.

ثم قال لأهله:

اخرجوا عنى فخرجوا وجلس مسلمة بن عبد الملك وأخته فاطمة فسمعوه يقول: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾ [القصص:٨٣].

وهدأ الصوت وساد المكان سكون مريب، فدخلت فاطمة عليه فندت منها صرخة مدوية مفجوعة فوجدته قد مات.

رحمك اللّه يا عمر يا خامس الخلفاء

لقد عدت كما يعود المسافر إلى وطنه وآب إلى داره مع الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا..

الفصل السادس

الأسر النبوية القدوة

الأسر النبوية القدوة

إذا كنا قد علمنا مما سبق أن هناك رجالاً فى القمة: إيمانا ويقيناً وسلوكاً. وأن هناك كذلك نساءاً فاضلات فى القمة أيضا، فسنرى من أسر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: الزوج أو الأب أو الزوجة أو الأم، والابن؛ ما يضع أيدينا على هذه الصور التى نحن فى أشد الحاجة إلى اقتفاء أثرها والسير على دربها لعلنا نتمكن من صياغة حياتنا الأسرية على هذا المنوال فى تلك الظروف الشديدة، والمحن القاسية التى يعيشها المسلمون كأسر وكأفراد.

ونبدأ بالأم الأولى «حواء» عليها السلام، فهى أول أم خلقها اللّه تعالى ليكون منها النسل وعمار الأرض حتى تقوم الساعة، ولفهمها لدورها الأصيل الذى خلقت من أجله .

القاعدة الذهبية

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥].

جاء فى تفسير ابن كثير:

لما أمر الله جل شأنه آدم عليه السلام أن يسكن الجنة، فكان يمشى وحده ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة - خلقها اللّه من ضلعه - فسألها: «ما أنت»؟ قالت: «امرأة» قال : ولم خلقت؟» قالت:

«لتسكن إليّ»

قالت له الملائكة: ما اسمها يا آدم؟ قال: «حواء» قالوا: ولم حواء؟ قال: إنها خلقت من شيء حى».

وبهذا النطق لأول مرة فى حياة أم البشرية الأولى «حواء» عليها السلام، وضعت أول خطوة صحيحة سليمة، وقاعدة ذهبية لحياة الأسرة إلى أن تقوم الساعة .

وقد أكد القرآن الكريم ذلك حين أنزل اللّه تعالى على الرسول الأمين محمد ﷺ: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم: ٢١].

فخلق الزوجة من نفس الزوج آية، أى معجزة تسير بمقتضاها الأسرة آمنة مستقرة فهى

بيان إلهى واضح لمهمة المرأة العظيمة التى حددها فهم أم البشرية الأولى «حواء» عليها السلام لرسالتها العظمى فى استقامة الحياة واستقرارها.

وسار التاريخ البشرى سيره السليم فى ضوء تلك القاعدة الهامة التى جاءت الأسرة المثالية: الأب والام، والابن، وادت مهمتها على خير ما يكون الأداء: إيمان راسخ، ويقين ثابت، وصبر جميل، ورضا كامل بأمر الله تعالى.

هذه الأسرة المثالية هى أسرة أبى الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذى اختار الله ملته وسمانا إبراهيم عليه السلام: «المسلمين».

﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج: ٧٨].

إبراهيم عليه الصلاة والسلام النبى الأب

وهاجر عليها السلام الزوجة الأم.

وإسماعيل عليه السلام الابن والنبى

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) ﴾ [الأنعام: ٧٥].

: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) ﴾ [الأنبياء: ٥١].

: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) ﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

: ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات: ٩٨ - ١٠٧] وهناك سور من سور القرآن الكريم سميت باسمه: سورة إبراهيم.

هذه الآيات من سور: الأنعام، الأنبياء، مريم، الصافات، لم تكن وحدها التى تعرضت لذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام. بل نجد ٢٥ سورة تعرضت لبعض مواقفه العظيمة ضد الكفر والكافرين، وتكرر اسمه فى نحو ٦٩ فى السياق القرآنى.

والعبر التى نستلهمها من سيرة هذا النبى العظيم كاب نلمس بعضها فى موقفه من أمر الله تبارك وتعالى له بذبح ولده إسماعيل عليهما السلام.

ولتمام الفائدة، وسبر أغوار هذه المواقف للأب النبى إبراهيم عليه السلام وللابن النبى إسماعيل عليه السلام وللأم المثالية والزوجة الوفية هاجر عليها السلام، لا نجد أوضح فى التعبير من كلام الشهيد سيد قطب رحمه الله فى كتابه «الظلال» كتب يقول:

وقال إبراهيم عليه الصلاةوالسلام بعد نجاته من النار: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩)﴾ [الصافات: ٩٩].

إنها الهجرة. وهى هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية، هجرة يترك وراءه فيها كل شيء من ماضى حياته، يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه وكل ما يربطه بهذه الأرض، وبهؤلاء الناس، ويدع وراءه كل عائق، وكل شاغل، ويهاجر إلى ربه متخففًا من كل شيء، وطارحًا وراءه كل شيء، مسلمًا نفسه لربه، لا يستبقى منها شيئًا، موقن أن ربه سيهديه، وسيرعى خطاه، وينقلها فى الطريق المستقيم.

إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع، ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة، لا يزحمها فى النفس شيء، إنه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة، واليقين.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠)﴾ [الصافات: ١٠٠].

واستجاب الله دعاء عبده الصالح المتجرد الذى ترك وراءه كل شيء، وصار إليه بقلب سليم.

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾ [الصافات: ١٠٠].

هو إسماعيل عليه السلام، ولنا أن نتصور فرحة إبراهيم عليه السلام الوحيد المفرد المهاجر المقطوع عن أهله وقرابته، لنا أن نتصور فرحته بهذا الغلام الذى يصفه ربه أنه «حليم».

والآن آن لنا أن نطلع على الموقف الكريم الفريد فى حياة إبراهيم عليه السلام، بل فى حياة البشرية كلها، وآن أن نقف من سياق القصة فى القرآن الكريم أمام المثل الموحى الذى يعرضه الله للأمة الإسلامية من حياة أبيها إبراهيم عليه السلام.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)﴾ [الصافات: ١٠٢].

يا لله ويا لروعة الإيمان والطاعة والتسليم؛ هذا إبراهيم الشيخ المقطوع من الأهل والقرابة المهاجر من الأرض والوطن، ها هو ذا يرزق فى كبره وهرمه بغلام طالما تطلع إليه، فلما جاءه؛ جاء غلامًا ممتازًا يشهد له ربه بأنه «حليم»، وها هو ذا ما يكاد يأنس به، وصباه يتفتح، ويبلغ معه السعي، ويرافقه في الحياة، ويأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد حتى يرى فى منامه أنه يذبحه، ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية فماذا؟ إنه لا يتردد ولا يخالجه إلا شعور الطاعة، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم، إنها إشارة من ربه، وهذا يكفي ليلبى ويستجيب دون أن يعترض، ودون أن يسأل ربه، ولكنه لا يلبى فى انزعاج، ولا يستسلم فى جزع، ولا يطيع فى اضطراب.. كلا: إنما هو القبول والرضا والطمأنينة والهدوء، يبدو ذلك فى كلماته لابنه، وهو يعرض عليه الأمر الهائل فى هدوء وفى اطمئنان عجيب.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢]. فى كلمات المالك لأعصابه المطمئن للأمر الذى يواجهه، الواثق بأنه يؤدى واجبه، وهي فى الوقت ذاته كلمات المؤمن الذى لا يهوله الأمر فيؤديه فى اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهى ويستريح من ثقله على أعصابه والأمر شاق – ما فى ذلك شاق – فهو لا يطلب إليه أن يكلفه أمرًا تنتهي به حياته..

إنما يطلب إليه أن يتولى هو بيده، يتولى ماذا؟ يتولى ذبحه!!

فيعرض على ابنه هذا العرض، ويطلب إليه أن يتروى فى أمره وأن يرى فيه رأيه ، وهو يعرض الأمر عليه كالذى يعرض المألوف من الأمر فالأمر فى حسم، هكذا ربه يريد فليكن ما يريد على العين والرأس، وأنه ينبغى أن يأخذ الأمر طاعة واستسلامًا لينال هو أجر الطاعة، وليسلم هو الآخر، ويتذوق حلاوة التسليم، إنه يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع الذى ذاقه.

فماذا يكون من أمر الغلام الذى يعرض عليه الذبح تصديقًا لرؤيا رآها أبوه..

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)﴾ [الصافات: ١٠٢].

إنه يتلقى الأمر لا فى طاعة واستسلام فحسب، ولكن فى رضا كذلك ويقين: يا أبت – فى مودة وفى قربى، فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه، ولا يفقده رشده، بل لا يفقده أدبه، ومودته: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢]. هو الأدب مع الله ومعرفة حدوده وقدرته، وطاقته هو فى الاحتمال والاستعانة بربه على ضعفه، ونسبة النصر إليه – سبحانه – فى إعانته على التضحية، ومساعدته على الطاعة:

﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات: ١٠٢]. لم يأخذها بطولة، ولم يأخذها شجاعة، ولم يأخذها اندفاعًا إلى الخطر، دون مبالاة، إنما أرجع الفضل كله لله.

يا للأدب مع الله، ويا لروعة الإيمان، ويا لنبل الطاعة، ويا لعظمة التسليم.

ويخطو المشهد خطوة أخرى وراء الحوار والكلام، يخطو إلى التنفيذ.

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٧].

علامة على طريق الحق والطاعة والتسليم من الآباء لأمر الله.

وعلى أدب الأبناء مع الآباء فى إطار الطاعة والتسليم والرضا لأمر الله.

وعلى الأم فى الثقة بالزوج والرضا لأمر الله فى الابن.

فيا أيها الآباء ويا أيتها الأمهات ويا أيها الأبناء اليوم وبعد اليوم وإلى أن تقوم الساعة لن تجدوا السعادة وراحة النفس واطمئنان القلب إلا فى العيش فى ظلال هذه القدوة، والسير على منهاجها، منهاج الأسرة المسلمة القدوة الصالحة.

أم إسماعيل عليه السلام «هاجر»

لقد آثر الله تبارك وتعالى هذه الأم المثالية «هاجر» واختارها لرعاية إسماعيل عليه السلام الوليد: وإنقاذه من الهلاك؛ إذ تركهما أبوه إبراهيم عليه السلام، بواد غير ذى زرع عند بيته المحرم، فكانت لهفتها على الصغير، والألم الذى ذاقته حين رأته يكابد حرقة الظمأ، ومسعاها المثير فى سبيل نجاته حديث التاريخ وعبرة الدهر، وصورة تخلد فيها الأمومة إلى حيث تغدو عباده ومنسكًا «السعى بين الصفا والمروة» بعض مناسك الحج والعمرة، تكريمًا لهاجر أم النبى إسماعيل عليه السلام..

«ومن هاجر»؟

تقول الدكتورة بنت الشاطئ:

«هاجر» أمة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، هاجرت بها السيدة «سارة» زوجة إبراهيم عليه السلام من مصر إلى أرض كنعان.

وكانت السيدة سارة عجوزًا عقيمًا يئست من أن تلد لزوجها ولدًا، فبدا لها أن تهبه جاريتها المصرية هاجر.. وحملت هاجر، فحرك هذا الحمل ما فى فطرة حواء من الغيرة،

فاشتكت لزوجها، فشفع للجارية عندها فتجلدت إلى حين، حتى إذا وضعت هاجر مولودها نفذ صبر سارة، فما زالت بزوجها ملحة لإبعاد هاجر؛ حتى انطلق إبراهيم عليه السلام ذات يوم ميممًا شطر الجنوب تتبعه هاجر، وبين ذراعيها وليدها «إسماعيل» وقد اتخذت نطاقًا تشد به وسطها، فكان أول ما اتخذ النساء المنطق «أم إسماعيل».

وقد خطر لإبراهيم عليه السلام أن يلتمس لولده وأمه ملاذًا فى حمى البيت العتيق:

أول بيت عبد فيه الله في الأرض، وانتهى بهم المسير عند «مكة» وهي حينذاك مقفرة خلاء لا يكاد يلمح بها سوى نفر من البدو الرحل.

وعند ربوة هناك حيث أطلال البيت العتيق ترك إبراهيم عليه السلام «هاجر» وولدها، وترك لهما جراب تمر وسقاءً فيه ماء، وأمرها أن تتخذ لها عريشًا، ثم هم بالرجوع فارتاعت هاجر من وحشة البرية، وتضرعت إلى سيدها إبراهيم ألا يدعها وولدهما فى ذلك القفر المرهوب، ولكنه أشاح بوجهه عنها لا يلتفت ولا يجيب، وأعادت هاجر سؤالها:

أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس به أنيس؟ وهو منصرف عنها ماض فى سبيله، حتى بلغ منعرج الوادى سمع صوتها الضارع تسأله فى لهفة: آلله أمرك بهذا؟ قال وهو لا يلتفت إليها: «نعم». قالت هاجر فى استسلام خاشع، وإيمان ثابت: «إذن فالله لا يضيعنا».

وهنا رفع إبراهيم عليه السلام يديه إلى السماء، واستقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾ [إبراهيم: ٣٧ - ٤١].

حتى إذا نفذ ما فى السقاء عطشت هاجر وعطش ابنها، فجعلت تنظر إليه يتلوى، وبدا لها أن تصعد فنظرت إلى أى الجبال أدنى من الأرض فإذا «الصفا» فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدًا؟ وتسمعت هل تؤنس صوتًا؟ فلما لم تجد إلا الوحشة هبطت من الصفا حتى أتت المروة مهرولة تسعى سعى المجهد فصعدت عليها ترى أثرًا من حياة، ولا أثر.

هرولت بين الصفا والمروة سبع مرات حتى نال منها التعب. قال ابن عباس رضى الله عنهما: قال النبى ﷺ: «فذلك سعى الناس بينهما» يعنى فى الحج والعمرة.

وهذا تكريم إلهى لتلك الأم الصابرة.. وقد كان لهاث الوليد الظمآن يمزق قلبها ويعزى كبدها، وأمسك الكون أنفاسه، ولم يبق من صوت سوى لهاث المحتضر، وأنين أمه:

ثم كانت النجاة، وسمعت صوتًا حسبته صوتها، فقالت تريد نفسها:

«إن كان عندك غواث» فإذا بملك ظل يبحث حتى انبثق ماء «زمزم» فهرُعت هاجر نحوها، وهى تحس موجة من القوة والحيوية، فخوضت الماء فغرفت منه، وأقبلت ترتوى وترضع ولدها. قال ابن عباس: قال النبى ﷺ:

«رحم الله أم إسماعيل، لو تركت الماء – أو قال لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم عينًا معينًا».

قال ابن عباس رضى الله عنهما: ومرت رفقة من جرهم فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرًا، فقالوا إن هذا الطائر لحائم على ماء، وأرسلوا دليلهم فعاد ومضى بهم إلى حيث كانت هاجر وولدها عند النبع المبارك، فقالوا لها: إن شئت كنا معك، فآنسناك، والماء ماؤك، فأذنت لهم، فنزلوا معها، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، وتعلم إسماعيل عليه السلام العربية منهم، وأعجبهم حتى شب، فلما أدرك زوجوه منهم.

وعندما اختبر الله تعالى الأسرة الكريمة بأمره عز وجل – لإبراهيم أن يذبح ابنه إسماعيل لما بلغ معه السعى – جاء الشيطان اللعين إلى هاجر قائلاً لها: أتدرين إلى أين يذهب إبراهيم بولده إسماعيل؛ قالت ماذا يريد؟ قال اللعين: يزعم أن الله أمره بذبحه فقالت هاجر: بكامل الثقة فى الله وفى الزوج: «إن كان الله أمره بهذا فنعم ما يفعل إبراهيم أن ينفذ أمر ربه».

ألا فليتخذ الآباء والأمهات والأبناء القدوة الصالحة من هذه الأسرة الصالحة.

أم موسى عليه السلام

فى هذه الأمومة الواعية المنفذة لأمر ربها مهما كان الأمر فوق طاقة البشر، ترى الأم تمتثل الأمر وتنفذ راضية مطمئنة واثقة، وكانت النتيجة إعجاز إلهيًا يعجز أمامه صبر البشر مهما كان هذا الصبر وذلك الرضا.

فمن هذه المثالية والقدوة نرى إيمان الأم بإيماءاته المعبرة ومدده النابع من العقيدة الصافية

واليقين الثابت، آملين أن يستلهمه جيلنا الصاعد فتيانا وفتيات، آباءً وأمهات، فسيجد كل نوع الزاد الذى يملأ القلب إيمانًا والنفس اطمئنانًا، ذلك الزاد الذى لا غنى عنه، موضحًا معالم الطريق الواضحة للسلوك السليم والعمل الجاد، وصولاً إلى الغاية المأمولة ليعود للإسلام مجده وللأمة الإسلامية مكانها فى استاذية العالم فى ظل منهج الله القويم:

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

[سورة يوسف آية ١٠٨].

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) ﴾ [النور: ٥٥].

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة القصص من الآيات ٧ إلى نهاية الآية ١٣ موضحًا موقف الأم ودور الأخت:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ [القصص: ٧ - ١٣].

ومن أول قصة أم موسى عليه السلام إلى آخرها لا يذكر القرآن الكريم شيئًا عن والد موسى عليه السلام، وإنما يخص بالذكر أمه؛ ليكل إليها وحدها أمر حمايته وليداً ورضيعًا.. وسنرى من الأحداث دور الأم والأخت، ذلك الدور الذى لا تستغنى عنه كل أم وكل أخت من خلال مسئوليتها التى وكل الله إليها القيام بها، وحتى نعيش ذلك الواقع الذى عبر الشهيد سيد قطب فى تفسيره «الظلال» يجدر بنا أن نصحبه وهو يقول:

المقصود هنا فى عرض القصة من بدء الميلاد: هو بيان أن الشر حين يتمحص يحمل

سبب هلاكه في ذاته، والبغي حين يتمرد لا يحتاج إلى من يدفعه من البشر، بل تتدخل يد القدرة الإلهية وتأخذ بيد المستضعفين المعتدى عليهم؛ فتنقذهم وتستنقذ عناصر الخير منهم، وتربيهم وتجعلهم ائمة، وتجعلهم الوارثين.

وحلقة مولد موسى عليه السلام، وما احاط بهذا المولد من ظروف قاسية في ظاهرها، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته؛ تكشف مع باقي المواقف عن تحدى القدرة الإلهية للطغيان الباغي.

وفيها يتجلى عجز قوة فرعون وحيلته وحذره عن دفع القدر المحتوم والقضاء النافذ.

﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص: ٦].

وروى ان فرعون وكل بالحوامل من نساء بنى إسرائيل قوابل (مولدات) يخبرنه بمواليدهم، ليبادروا بذبح الذكور فور ولادتهم حسب خطته الجهنمية الخبيثة التى لا يستشعر فيها رحمة باطفال ابرياء لا ذنب لهم ولا خطيئة.

وذلك عقب رؤيا رآها ففزع منها، واولها له: بأنه سيولد فى بنى إسرائيل غلام يكون هلاكك على يديه، وضياع عرشك وملكك.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص: ٤].

ولكن الله يريد غير ما يريد فرعون، ويقدر غير ما يقدر فرعون الطاغية، والطغاة والبغاة تخدعهم قوتهم وسطوتهم وحيلتهم، فينسون إرادة الله وتقديره، ويحسبون أنهم يختارون لانفسهم ما يحبون، ويختارون لاعدائهم ما يشاءون، ويظنون أنهم على هذا وذاك قادرون.

والله يعلن هنا إرادته هو، ويكشف عن تقديره هو، ويتحدى فرعون وهامان وجنودهما؛ بأن احتياطهم وحذرهم لن يجديهم فتيلاً.

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص: ٥، ٦].

لقد ولد موسى فى ظل تلك الأوضاع القاسية، ولد والخطر مُحدق به، والموت يتلفت عليه، والشفرة (السكين) مُشْرَعة على عنقه، تهم أن تجتز رأسه.

وها هى ذى أمه حائرة به، خائفة عليه، تخشى أن يصل نبأ مولده إلى الجلادين وترجف

أن تتناول عنقه السكين، ها هى ذى بطفلها الصغير فى قلب المخافة، عاجزة عن حمايته، عاجزة عن إخفائه، عاجزة عن حجز صوته الفطرى أن ينم عليه، عن تلقينه حيلة أو وسيلة، ها هى ذى وحدها ضعيفة مسكينة.

هنا تتدخل يد القدرة الإلهية، فتتصل بالأم القلقة المذعورة وتلقى فى روعها كيف تعمل، وتوحى إليها بالتصرف.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي ﴾ [القصص: ٧].

يا لله! يا للقدرة الإلهية!! يا أم موسى أرضعيه، فإذا خفت عليه، وهو فى حضنك، وهو فى رعايتك، إذا خفت عليه وهو فى قمة يديك، وهو تحت عينيك، إذا خفت عليه فألقيه فى اليم!!.

ولا تخافى ولا تحزنى، إنه هنا فى اليم فى رعاية اليد التى لا أمن إلا فى جوارها، اليد التى لا خوف معها، اليد التى لا تقترب المخاوف من حماها، اليد التى تجعل النار برداً وسلاماً، وتجعل البحر ملجأً ومناماً، اليد التى لا يجرؤ فرعون الطاغية الجبار، ولا جبابرة الأرض جميعاً أن يدنوا من حماها، الآمن العزيز الجناب.

﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص: ٧] فلا خوف على حياته، ولا حزن على بعده، وجاعلوه من المرسلين.. وتلك بشارة الغد، ووعد الله أصدق القائلين، ذلك مشهد الأم الحائرة الخائفة القلقة الملهوفة تتلقى الإيحاء المطمئن المبشر المثبت المريح، وينزل هذا الإيحاء على القلب الواجف المحرور برداً، وسلاماً.

فيا أيتها الأمهات ويا أيتها الزوجات، ويا أيتها الأخوات، ويا أيتها البنات، ويا أيها المؤمنون والمؤمنات، أصحاب الدعوات، وحملة الأمانة، انظروا جميعاً بعيون القلوب، وبصائر أولى الألباب، لتروا العناية الإلهية وقدرة الله القادرة تحوط المؤمنات حين لن يكون فى أيديهم ما يدفعون به طغيان الطغاة وظلم الظالمين.. وما أجمل قول الشاعر:

وإذا العناية لاحظت عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وليعلم من لم يعلم، أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً، ولن يغلب عسر يسرين

وتمضى الأمور بعد ذلك وفق ما قدر الله وأراد:

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ⑧ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ⑨ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ⑩ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ⑪ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ⑫ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ⑬﴾ [القصص: ٨-١٣].

عاد الطفل الغائب إلى أمه الملهوفة، معافى فى بدنه مرموقًا فى مكانته، يحميه فرعون، وترعاه امرأته، وتضطرب المخاوف من حوله وهو قرير العين، وقد صاغت يد القدرة الإلهية المشاهد من تدبيرها العجيب.

وبجانب أم موسى وأخته مثلاً أعلى هيأه الله وبث في قلبها ومشاعرها حب موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص:٩].

هذه الشخصية الفذة المتفردة التى صاغ الله دورها هى إحدى سيدات نساء العالمين الأربع.

آسية بنت مزاحم امرأة فرعون

يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة التحريم الآيات (١٠، ١١، ١٢).

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ⑩ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ⑪ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ⑫﴾ [التحريم: ١٠ - ١٢].

والمأثور فى تفسير خيانة امرأة نوح عليه السلام، وامرأة لوط عليه السلام أنها كانت خيانة فى الدعوة، وليست خيانة الفاحشة والعرض، فامرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين من قومه، وهو يصنع السفينة.

وامرأة لوط كانت تدل القوم على ضيوفه، وهى تعلم شأنهم مع ضيوفه. إن مبدأ التبعة الفردية يراد إبرازه هنا بعد الأمر لوقاية النفس والأهل من النار، كما يراد أن يقال لأزواج النبى ﷺ، وأزواج المؤمنين كذلك: إن عليهن أنفسهن بعد كل شيء، فهن مسئولات عن أمهاتهن، ولن يعفيهن من التبعة أنهن أزواج نبى أو صالح من المؤمنين.

فلا كرامة ولا شفاعة فى أمر الكفر والإيمان، وأمر الخيانة فى العقيدة حتى لأزواج الأنبياء.

وها هى ذى امرأة فرعون لم يصدها طوفان الكفر الذى تعيش فيه فى قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها، وقد تبرأت من قصر فرعون، طالبة إلى ربها بيتًا فى الجنة، وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء، وهى الصق الناس به، ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ [التحريم: ١١]، وتبرأت من قوم فرعون وهى تعيش بينهم، ونجنى من القوم الظالمين.

ودعاء امرأة فرعون وموقفها للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا فى أزهى صوره، فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ.

فى قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهى ولكنها استعلت عن هذا بالإيمان، ولم تعرض عن هذا العرض فحسب، بل اعتبرته شرًا ودنسًا وبلاءً تستعيذ بالله منه، وتتفلت من عقابيله، وتطلب النجاة منه.

هذه المرأة وحدها فى وسط هذا كله، رفعت رأسها إلى السماء وحدها فى خضم سهذا الكفر الطاغى، وهى نموذج عال من التجرد لله من كل هذه المؤثرات وكل هذه الأواصر، وكل هذه المعوقات، وكل هذه الهواتف، ومن ثم استحقت هذه الإشارة فى كتاب الله الخالد الذى تتردد كلماته فى جنبات الكون، وهى تتنزل من الملأ الأعلى.

قال ابن كثير فى تفسيره لهذه السورة «التحريم» عند قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ....﴾ [التحريم: ١١] قال ابن جرير: «كانت امرأة فرعون تعذب فى الشمس، فإذا انصرف عنها من يعذبها أظلت الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها فى الجنة، ثم قال: «كانت امرأة فرعون تسأل:

«من غلب؟» فيقال غلب موسى وهارون فتقول آمنت برب موسى وهارون، فأمر فرعون بإلقاء صخرة عظيمة على جسدها فرفعت بصرها إلى السماء فرأت بيتها فى الجنة ثم فاضت روحها، وألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه».

وصدق فيها حديث رسول الله الصحيح الذى رواه الطبرانى وصححه مسلم برقم ١٤٢٤ من كتاب سلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى، المجلد الثالث نص الحديث: «سيدات نساء أهل الجنة بعد مريم بنت عمران: فاطمة وخديجة وآسية امرأة فرعون».

يروى الطبرانى فى الكبير وأحمد فى مسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نساء العالمين أربع: مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون». حديث صحيح رقم ٤٠٨٨ من الجزء الاول كتاب الجامع الصغير للسيوطى.

الفصل السابع

مســـك الختـــام

الأسوة الحسنة

من لدن آدم وحتى قيام الساعة يبرزها في الواقع، ويؤكدها بنفسه وحياته قولاً وعملاً وسلوكًا ونية - محمد ﷺ أبنًا وزوجًا وأبًا وصديقًا وجارًا، حتى لا يكون هناك حجة أو عذر لمقصر أو مفرط في أي شأن من شئون الحياة

محمد ﷺ الزوج:

ماذا صنع محمد؟ وماذا صنعت رسالة محمد؟

هكذا يصدر عباس العقاد هذا الفصل بهذا التساؤل.

والبيان عن المثالية والقدوة الصالحة في الرسول ﷺ - كزوج - يوجب البيان عن المرأة والزوجة بجانبه. يقول العقاد رحمه الله:

حكم واحد من أحكام القرآن الكريم أعطى المرأة من الحقوق كفاء ما فرض عليها:

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وحكم آخر من أحكامه العالية؛ أمر المسلم بإحسان معاشرتها ولو مكروهة غير ذات حظوة عند زوجها: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [النساء: ١٩] سورة النساء.

وأباح لها الدين في الجهاد أن تكسب كما يكسب الرجال:

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ [النساء: ٣٢].

ولم يفضل الرجل عليها إلا بما كلفه من واجب كفالتها وإقامة أودها، والسهر عليها.

أما محمد ﷺ فقد جعل خيار المسلمين خيارهم لنسائهم حيث قال:

«أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخيارهم لنسائهم» وفي رواية: والطفهم بأهله، أمر بمداراة ضعفها ونقصها؛ لأن «المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقه فإن

استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها».

وأوجب على الرجل أن يتجمل لامرأته، ويبدو لها فى المنظر الذى يروقها، فقال ﷺ فى هذا المعنى: «اغسلوا ثيابكم، وخذوا من شعوركم، واستاكوا (أى استعملوا السواك) وتزينوا وتنظفوا. فإن بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم».

وأوجب ﷺ الرجل إذا خطب المرأة أن يظهرها على عيبه إن كان به عيب مستور: «إذا خطب أحدكم المرأة وهو يخضب بالسواد فليعلمها أنه يخضب»؛ أى يصبغ شعره بالسواد.

وبلغ من رعاية شعورها، ومداراة خجلها الذى فطرت عليه أنه أوجب على الرجل أن يمتعها كما تمتعه، لأنها لا تطلب لنفسها ما يطلبه الرجل منها، فقال ما معناه:

«فإذا جامع أحدكم أهله، فليصدقها، ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها».

وكان تأديبه المسلمين فى هذه الصلة غاية فى الكياسة والرفق، فقال ما معناه:

«إذا دخلت ليلاً فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة.. الكيس، الكيس!».

وما أوجبه ﷺ على المسلمين عامة فى معاملاتهم لزوجاتهم، وهو دون ما أوجبه على نفسه فى معاملة زوجاته بكثير. وهاك طرف من معاملته لزوجاته رضى الله عنهن:

كان يشفق أن يرينه غير باسم فى وجوههن، ويزورهن جميعًا فى الصباح والمساء. وإذا خلا بهن «كان ألين الناس، ضحاكًا بسامًا»، كما قالت عائشة رضى الله عنها.

ولم يجعل من هيبة النبوة سداً رادعًا بينه وبين نسائه، بل أنساهن برفقه وإيناسه أنهن يخاطبن رسول الله ﷺ فى بعض الأحايين، فكانت منهن من تقول له أمام أبيها: «تكلم ولا تقل إلا حقًا..»، وكانت هذه العبارة من السيدة عائشة حين نشأ بينها وبين النبى ﷺ خلاف. فقال لها: من ترضين حكمًا بيننا؟ أترضين أبا بكر؟! قالت نعم، فلما قالت ما قالت، لم يطق أبا بكر ذلك الخروج من ابنته فلطمها وقال: مَن من الخلق أجمعين يقول الحق غير رسول الله ﷺ؟! ولما سال منها الدم من أثر اللطمة، قام ﷺ وغسل آثار الدم وضمد مكانه وقال لأبى بكر:

«ما لهذا دعوناك».

ومنهن من كانت تراجعه أو تغاضبه سحابة نهارها.

وكان ﷺ يتولى خدمة البيت معهن: فيحلب شاته، ويخصف نعله، ويقُم البيت «أى ينظفه من القمامة»، وقال فى هذا المعنى: «خدمتك زوجتك صدقة».

سماحة الكريم

ولقد علمنا من رواية السيدة عائشة رضى الله عنها، كما علمنا من روايات شتى، أن عبد الله بن أبى بن سلول كان أكبر اللاغطين بحديث الإفك عن سوء نية وكيد مبيت للنبى ﷺ وللإسلام. وكان هذا الرجل بغيضًا إلى المسلمين، متهمًا عندهم، يتوجسون منه ويسمونه رأس المنافقين، ولا يكفون عن طلب دمه، واستئذان النبى ﷺ فى قتله، فما ضر النبى ﷺ لو خلى بين المسلمين وبينه يحاسبونه على فريته فى حديث الإفك المعروف والذى ورد تفصيله فى سورة النور، ثم يحاسبونه على كيده وينقمون لعرض النبى ﷺ منه؛ ليأمنوا شره ويجعلوه عبرة لغيره؟

وإذا قيل إن عبد الله بن أبى كان من أصحاب العصبية التى يُحسب حسابها وتتقى بوادرها، فماذا يقال فى مسطح وهو مكفول أبى بكر رضى الله عنه - الذى كان يأكل من مال أبى بكر؟ ما الذى أنجاه من السخط والعقاب، وكفل له دوام البر والمعونة لولا سماحة النبى ﷺ وسماحة أبى بكر - رضى الله عنه - وسماحة القرآن الكريم؟!

فهى السماحة التى شملت مسطحًا كما شملت كبير المنافقين، وخرجت من حديث الإفك كله بالعفو عن جميع المسيئين، مخلصين فى الرأى وغير مخلصين.

وهذه السماحة هى التى سبرت غورًا فى قصة هذا الحديث فتكشفت عن أطيب معاملة للزوجات فى أحرج الحالات، وتلك هى المعاملة فى مثلها الأعلى، معاملة لا تتبدل بعد أيام وشهور، بل تطول مدى السنين، وتطول مع السنين، مع نساء مختلفات لا مع امرأة واحدة، وتطول فى جميع الحالات، ومنها حالة الألم البالغ، ولا تنحصر فى حالة الرضا والطمأنينة وأقل من ذلك أمنية يتمناها الحالمون بالوءام بين الأزواج، فى العصر الذى وصفوه بعصر المرأة؛ لفرط ما أطنب فيه المطنبون من إكبار شأنها والدعوة إلى إنصافها.

والنبى ﷺ لم يطلق زوجة من زوجاته دخل بها وعاشرها، ولم يضرب قط واحدة منهن، ولم يرد عنه قط أنه ضرب أو نهر خادمًا؛ فضلاً عن زوجة، بل روى عنه ما ينفى ذلك ممن عاشروه ولازموه.

بل كان ﷺ يكره ضرب النساء ويعيبه كما قال: «أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد؟ يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره؟!!».

أربعون سنة فى الحياة الزوجية يُجَمّلها الصفاء، ويحرسها الولاء

إذا حارت الأدلة فى قوام تلك الحياة الزوجية المثالية القدوة - فالدليل الذى لا يُحَار أن ينقضى نحو أربعين سنة عليها وهى على ذلك الصفاء والولاء الذى لم يُعرف مثله فى علاقات الرجال والنساء؛ هذه حياة زوجية لا تقوم على الحس والمتعة، ولن تدوم ذلك الدوام لو كان لها قوم غير مودة القلوب، وراحة النفوس، وحب الخير، ومبادلة العطف والتعظيم.

محمد ﷺ الأب

أى أبوة إنسانية تغنى عن أبوة اللحم والدم كما تغنى أبوة النبى ﷺ - الذى تكفل بتربية الأرواح فى أمته، وفى أمم لا يلقاها فى زمانه، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه إلى آخر الزمان.

نذكر هذا حين نذكر حظ النبى ﷺ من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية وترى تكافؤاً فى الجانبين جديراً بالملاحظة والاعتبار الا ما أثقل ثمن الإصلاح!

فمحمد الأب كان أصلح الآباء، ثم فجع فى بنيه فجيعة لا يدارى فيها ألم الإنسان إلا صبر الأنبياء.

ومن الناس من لا يكون صديقًا صالحًا، ولا سيداً صالحًا، ولا زوجًا صالحًا، ولكنه أب صالح بَرٌّ ببنيه.

لأن الرحم بين الآباء والأبناء أو فى الأرحام إلى المودة وأحراها بتحريك الشفقة فيمن لا يشفق على أحد.

فكيف تكون الأبوة فى نفس صلحت للصداقة، وصلحت للسيادة، وصلحت للزوجية، لأنها تصلح للعطف الذى يعم القريب والغريب ويشمل القوى والضعيف؟ ذلك أب نعلم كيف يفرح بأبنائه.

ونعلم كيف يحزن حين يُفجع فى أولئك الأبناء.

ومن الراجح أن العنف الأبوى لم يتمثل قط فى مولد أحد من أبناء محمد ﷺ كما تمثل فى مولد ابنه الذى سماه باسم جده الأكبر «إبراهيم عليه السلام» ولعل العطف الأبوى قد

تمثل فى تشييع هذا الطفل الصغير اشد من تمثله فى استقباله يوم ميلاده.

ومحمد ﷺ كان يحب التكاثر لنفسه، ويحبه لأمته، ويوصى المسلمين أن يستكثروا من النسل ما استطاعوا ليفاخر بهم الأمم وفرة وعزة.

فاشتياقه إلى العقب من الذكور خليقة عربية تقترن بالخليقة الإنسانية والخليقة النبوية.

وفضل النبى ﷺ فى نبوته وفى أبوته أن حزن وبكى، وتلك هى الصلة بينه وبين قلب الإنسان، و بينه وبين الناس، وأى نبى تنقطع بينه وبين القلب الإنسانى صلة كهذه الصلة التى تجمع أشتات القلوب؟

روى أسامة بن زيد رضى الله عنه أن زينب بنت النبى عليه الصلاة والسلام أرسلت إليه. «إن ابنتى قد حضرت فاشهدنا» فارسل إليها ﷺ يقول: «إن لله ما اخذ وما اعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتحتسب ولتصبر» فأرسلت تقسم عليه، فقام النبى عليه السلام وقمنا، فَرُفِع الصبى فى حجر النبى ﷺ ونفسه تقعقع (أى تخرج) ففاضت عينا النبى عليه الصلاة والسلام فقال له سعد: «ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمة وضعها الله فى قلوب من شاء من عباده، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء».

وبمقدار هذا الفرح الطهور يوم استقبال إبراهيم ابنه يوم ميلاده، كان الحزن الوجيع يوم الوداع.

خرج ﷺ – الذى اضطلع بأعباء الدنيا ومن فيها، وهو لا يضطلع يحمل قدميه: خرج يتوكأ على بعض أصحابه إلى حيث يحمل الوليد آخر مرة فى حجره الأبوى قبل أن يودعه التراب، وكان يستقبل الجبل بوجهه فقال:

«يا جبل لو كان بك مثل ما بى لهدك، ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون» وصرخ أسامة حين بكى رسول الله ﷺ فنهاه الرسول الكريم وقال: «البكاء من الرحمة، والصراخ من الشيطان».

وكسفت الشمس يوم موت إبراهيم، فظن المسلمون أن انكسفت لموته فقال ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته».

أكرم الآباء

أو كان من الحتم أن يكون محمد مثال الآباء كما كان مثال الأنبياء؟

كذلك شاء القدر القادر، وكذلك رأينا محمداً مثال الاب يوم ولد له إبراهيم، ومثال

الأب يوم ذهب عنه إبراهيم.

ما يتمنى طفل - لو جاز أن يتمنى الأطفال - أبوه أرحم ولا أزكى من هذه الأبوة فى الحالتين، بل كان محمد مثال الأب حينما كان له نسل قريب أو بعيد، وذكر أو أنثى، وصغير أو كبير. أرأيت إلى الحسن بن فاطمة، و قد دخل عليه فركب ظهره وهو ساجد فى صلاته؟ إن النبى فى صلاته لهو النبى فى مقامه الأسنى، وإن النبى فى مقامه الأسنى ليشفق أن يشغل الصبى عن لعبه، فيظل السجود حتى ينزل الصبى عن ظهره غير معجل، ويسأله بعض أصحابه لقد أطلت سجودك؟ فيقول:

«إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعُجله»!!!

أرأيت إلى فاطمة تدخل البيت، أشبه الناس مشية بمشية أبيها عليه السلام؟ أرأيت أى حنان يفيض على القلب كحنانه ﷺ حين يرى فتاة تشبه أباها فى مشيته وسمته!!!

تلك فاطمة بقية الباقيات من الأبناء والبنات، يختصها النبى ﷺ بمناجاته فى عشية وفاته؛ إنى مفارق الدنيا فتبكى. إنك لاحقة بى فتضحك... فى هذا الضحك، وفى ذلك البكاء على برزخ الفراق بين الدنيا والآخرة، أخلص الود والحنان بين الآباء والأبناء.

سرها بنبوته وسرها بأبوته فضحكت ساعة الفراق لأنها ساعة الوعد باللقاء، وكذلك فارق الدنيا أكرم الأنبياء وأكرم الآباء.

محمد ﷺ الصديق عطوف ودود

إذا كان الرجل محبًا للناس، أهلاً لحبهم إياه، فقد تمت له أداة الصداقة من طرفيها، وإنما تتم له الصداقة بمقدار ما رزق من سعة العاطفة الإنسانية، ومن سلامة الذوق، ومتانة الخلق، وطبيعة الوفاء.

كذلك تتم الصداقة بالعاطفة الحية، والذوق السليم، والخلق المتين، وقد كان النبى ﷺ فى هذه الخصال جميعًا مثلاً عاليا بين صفوة خلق الله.

كان صبيًا فى الثانية عشرة من عمره يوم سافر عمه أبو طالب فتعلق به حتى شفق العم أن يتركه وحده فاصطحبه فى سفره.

وكان شيخًا قارب الستين يوم بكى على قبر أمه بكاء من لا ينسى، وهو لا ينسى وصيته فى آخر كلماتها عند انتهاء الأجل تقول له: «يا محمد كن رجلاً». ولذلك روى البيهقى

بسنده عن رسول الله ﷺ قال: «لو كنت فى صلاة العشاء وكبرت وقرأت بسورة الحمد وسمعتها تنادى «يا محمد» لقلت لها لبيك». أو كما قال ﷺ.

فما أروع وأعظم تكريمًا وإعزازًا واعترافًا بحق الأم من هذا القول الكريم وليس فى سجل المودة الإنسانية أجمل ولا أكرم من حنانه على مرضعته حليمة ومن حفاوته بها، وقد جاوز الأربعين. فيلقاها هاتفا بها: أمي! أمي!، ويفرش لها رداءه ويمس ثديها بيده الشريفة، كأنه يذكر ما لذلك الثدى عليه من جميل، ويعطيها من الإبل والشاه ما يغنيها فى السنة الجدباء.

واهتم بحاضنته فى طفولته، واهتم أن تنعم بالحياة الزوجية ما يشغل الأب من أمر بناته ورحمة، فقال لأصحابه: «من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن، وما زال يناديها: يا أمّه يا أمّه كلما رآها وتحدث إليها.

وقال أنس: «خدمت النبى ﷺ عشر سنين، فما قال لى أف قط، ولا قال لشيء صنعته: لم صنعته؟ ولا لشيء تركته، لم تركته؟». وكان إذا ودع رجلاً أخذ بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذى يدعُ يده»

ومع هذا كله أمانة يثق بها العدو فما بال الصديق؟ وحسبك من ثقة الناس به ما أودعوه من أمانات وهم يناصبونه العداء، فلم يخرج للهجرة وهو مهدد فى سربه حتى رد الأمانات إلى أهلها، واشتهاره بتلك الصفة حتى سمى بالأمين.

كل هذه المزايا النفسية - بل بعض هذه المزايا النفسية - خليق أن يتم لصاحبها أداة الصداقة أو فى تمام، فلم يُعرف فى تاريخ العظمة - لا بين الأنبياء، ولا غير الأنبياء إنسان ظفر بنخبة من الصداقات على اختلاف الأقدار والبيئات والأمزجة والأجناس كالتى ظفر بها محمد ﷺ.

ولم يعرف عن إنسان أنه احيط من قلوب الضعفاء والأقوياء بما يشبه الحب الذى أحيط به هذا القلب الكبير.

ضعف مولاه ثوبان، ونحل جسمه، وألح عليه الحزن فى ليله ونهاره، فلما سأله السيد العطوف ﷺ - يستفسره علة حزنه ونحوله قال فى طهارة الأبرار: «إنى إذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة، فذكرت الآخرة حيث لا أراك هناك لأنى إن دخلت الجنة فأنت تكون فى درجات النبيين فلا أراك، ورويت هذه القصة فى أسباب نزول الآية الكريمة: «ومن

يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا ».

وأدرك الموت بلالاً رضى الله عنه، فأحاط به أهله يصيحون: واكرباه - وهو يجيبهم: واطرباه غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه».

تلك هى بلا ريب عظمة العظمات، ومعجزة الإعجاز فى باب الصداقات.

وما استحقها محمد ﷺ إلا بنفس غنيت بالحب وخلصت له حتى أعطت كل محبة لها كفاء ما يعطيها: مودة بمودة، وصفاءً بصفاء، وعليها المزيد من فضل التفاوت فى الأقدار.

ولقد كان صاحب الفضل على أصفيائه جميعًا بما هداهم إليه من نور العقل ونور البصيرة، وهما أشرف من نور البصر الذى يشترك فيه جميع العجماوات.

ونور العقل ونور البصيرة نعمتان يختص بهما الإنسان. ومع هذا كان يذكر فضلهم ويشيد بذكرهم كما قال عن أبى بكر: «ما أحد أعظم عندى يداً من أبى بكر: واسانى بنفسه وماله، وانكحنى ابنته، وكما قال عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما: «أبو بكر وعمر منى بمنزلة السمع والبصر». وكما قال عن على كرم الله وجهه: «على أخى فى الدنيا والآخرة». وكما قال عن بعض أصحابه: «إن الله تعالى أمرنى بحب أربعة وأخبرنى أنه يحبهم: على منهم، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان، وكما قال عن الأنصار جميعًا وهو فى مرض الموت: «استوصوا بالأنصار خيراً، إنهم عيبتى التى أويت إليهم، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم».

جىء بأحد الستة الذين قتلتهم قبيلة هذيل غدراً، بينما هم الذين طلبوهم ليعلموهم القرآن وأحد الستة هو زيد بن الدثنة أسير ليباع.. فاشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه، ونصب للقتل فسأله أبو سفيان: وكان لم يسلم بعد قائلاً باستهزاء: (أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً الآن عندنا فى مكانك تضرب عنقه وأنت فى أهلك؟)

فأجابه زيد: «والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى...»

فصاح أبو سفيان دَهِشًا: (ما رأيت من الناس أحداً يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمداً..»

من فعلة كهذه نعلم مدى ما استحقه محمد من حب الأصدقاء، ومدى ما استحقه

أعداؤه من جزاء، فقد احب أصدقاءه وأحبوه لانه طبع على الصداقة، أما أعداؤه فقد لقوا جزاءهم لانهم طبعوا على العداء والاعتداء.

وبذلك نختم الصداقة النبوية والخلق النبوى الكريم: «وإنك لعلى خلق عظيم» بخير صديق لكل الناس، من اتبعوه، ومن خالفوه، بل ولكل خلق الله حتى العجماوات نالها قسط كبير من حبه ورعايته ﷺ.

ولذلك كان خاتم الأنبياء وصفوة الخلق، وسيد ولد آدم ولا فخر كما عبر عن نفسه، وله – دون جميع الأنبياء والخلق اجمعين – منزلة لا يبلغها احد غيره والتى ندعو بها دائمًا له «اللهم أعط محمد الوسيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته واحشرنا تحت لوائه، متبعين لا مبتدعين» اللهم آمين.

بيـــان:

إن الذى قصدته من ختام موضوع هذا الكتاب: «الحاجة الملحة للقدوة الصالحة فى الأسرة – بخير ختام بذلك الطود العظيم، وذلك المجد الأثيل، وتلك العظمة فى كل شأن من شئون الحياة – أقول ما قصدت بذلك إلا أن هذه القدوة الحسنة التى ذكرها تبارك وتعالى فى القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١] إلا لأن كل ما ذكرناه قبلها من حسن الأسوة فى الأسر وفى الرجال والنساء؛ الجميع وصل إلى هذه القدوة، لا قتدائه بهذه الأسوة الحسنة التي منَّ الله علينا بأن جعلنا من خير أمة أخرجت للناس. هذا هو القصد الأول:

أما القصد الثانى: فلتكون هذه الأسوة حافزًا للاقتداء الفعلى فى واقع الحياة وصولاً إلى تقديم الدليل على حب الله ورسوله.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

ولقول الرسول الكريم ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به».

ويقول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده والناس أجمعين».

وما ورد من الحديث الذى دار بينه ﷺ وبين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد روى أنه كان يسير مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر، فقال عمر: «والله يا رسول الله لأنت

احب إلى من كل شيء إلا نفسي، فقال له ﷺ: «لا يا عمر حتى اكون احب إليك من نفسك» فقال سيدنا عمر: «والله يا رسول الله لانت الآن احب إليّ من نفسي، فقال ﷺ: «الآن يا عمر» يعنى الآن انت مؤمن.

وعلامة الحب الاتباع.

فاجتهدوا - رحمكم الله - فى ان يكون حبكم لرسول الله ﷺ مصحوبًا بالدليل وهو «حسن اتباعه ﷺ»

ورجائى الا تكون مادة الكتاب - حين ييسر الله لاحد ان يطلع عليها - من باب تثقيف الفكر، او حب الادب، او زيادة المعلومات او اى شيء آخر غير ما بينت وهو إظهار القدوة الصالحة عمليا فى واقع الحياة:

فى الاسرة الآباء والامهات والابناء من النوعين، ذكرًا كان او انثى، فالكل مطالب بالاقتداء به ﷺ

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾ [هود: ٨٨] والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

والحمد لله اولاً واخيرًا. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كبيراً.

الفهرس

مقدمة ٣

الفصل الأول:

اهتمام القرآن والسنة بالأسرة المسلمة ٥

الفصل الثاني:

الأسرة المسلمة.. معناها ومقوماتها ١١

الفصل الثالث :

اسر ضلت الطريق ١٣١

الفصل الرابع :

صرخة مدوية للعلماء والمفكرين ١٣٩

الفصل الخامس:

صور مشرقة للأسرة المسلمة ١٥١

الفصل السادس :

الأسر النبوية القدوة ١٧٩

الفصل السابع :

مسك الختام ١٩٥

الفهرس ٢٠٧

شركة الأمل للتجهيزات الفنية
عامر شماخ وشركاه
ت: ٥٧٦١٩٦٢

هذا الكتاب

إذا كان هناك من يقول: إن المرأة نصف المجتمع، لا ينبغى أن يهمل أو يعطل، ونحن نقول بهذا ونزيد عليه: «إن المرأة نصف المجتمع فى العدد، ولكنها أكثر منه فى التأثير، فإنها تؤثر بالإيجاب أو السلب فى زوجها وأبنائها والنهوض بهم، فدورها عند المسلمين أكبر من أن تكون نصف المجتمع فحسب.

ولقد بين لنا المؤلف: اهتمام القرآن والسنة بالأسرة المسلمة، وساق فى هذا الصدد الآيات الدالة على هذا الاهتمام والأحاديث الصريحة فى توضيح هذه الحقوق.

وأشار إلى نداءات العلماء والمفكرين وحرصهم على صيانه المرأة المسلمة والأسرة المسلمة، لأنها عماد المجتمع ونواته الكبرى، وبغير الأسرة الصالحة فإن المجتمع معرض للفناء والضياع، فبناء المرأة المسلمة هو أقوى دعائم المجتمع، وهو نقطة التحول فى تاريخ الحضارة والتقدم، وحين تُدعم بالتربية والقدوة الحسنة والأخلاق والآداب الإسلامية - تصبح مصنع الرجال والأبطال...

الناشر

رقم الإيداع
٩٧/٧٩٩٨
الترقيم الدولى I.S.B.N
977 - 265 -166 -1

AL-OBEIKAN
1056056
SR- 18.00